المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ — ١٣ شعبان سنة ١٣٥٢

السر أُلفر لدج

Sir Oliver Lodge

مباحثهُ العلمية — الضباب والكهربائية واللاسلكية — فذلكة من ترجمته

عبوره على جسر الاثير من العلم الى الفلسفة والاعتقاد في مخاطبة الارواح

السر أُلفر لدج من أعجب الشخصيات التي تشغل مقاماً عالياً في عالم الفكر الحديث. عالم طبيعي في الطبقة الاولى بين علماء الطبيعة فهو صاحب مباحث طريفة في صلة الكهربائية بالضباب وفي الوقاية من الصواعق، وركن من الاركان التي قامت عليها المباحث والمستنبطات اللاسلكية. انهُ ندٌّ هرتز وممهد السبيل لماركوني. ثم هو يجمع بين العلم والفلسفة. لا يكتفي بالتجربة والمشاهدة، وانما يبني على التجربة والمشاهدة نظرات فلسفية، تدور حول الاثير ومكانهِ في الكون والحياة. كان من اوائل العلماء الذين رحبّوا بالفتوحات الجديدة في علم الطبيعة بدراسة الالكترون ومبتكرات الراديوم وظواهر الاشعاع. ومع ذلك ما يزال السر ألفر لدج، من العلماء القلائل، الذين لم ينبذوا الاثير، بعد ما اثبت مذهب النسبية ان لا حاجة بالعلم اليهِ. فهو ما يزال يقول ان الاثير ضروري لتفسير بعض الظاهرات الاساسية في الطبيعة والحياة والعقل

هذا الرجل الذي اكتشف واستنبط وعلّم وألّف عشرات الكتب، اتصل من طريق بحثهِ في الاثير، الى العالم الكائن من وراء الحسّ. فآمن ببقاء الشخصية بعد الموت. وبامكان مخاطبة الارواح. وبالفعل خاطب روح ابنهِ ريموند الذي قُتل في الحرب الكبرى ووضع في ذلك مجلداً ضخماً. وما يزال حتى الساعة مرجعاً للباحثين في ماهية الارواح ولكنهُ منزّه عما ينسب الى اكثرهم من خداع، ان لم ينزّه عما يرمون بهِ جميعاً من الخداع

— ١ —

نحن في يوم من ايام دسمبر سنة ١٩٠٤ والضباب في مدينة برمنغهام الانكليزية مليّد لا تكاد ترى يدك اذا مددتها . في صحن الجامعة وقف رجل مديد القامة ، وقور الطلعة ، يفحص اسلاكاً من صنف معيَّن . ثم سمعت لعلعةً على مقربة من الرجل ، كانت ايذاناً بقفز شرارة كهربائية من قطب الى قطب . واذا بالضباب الكثيف تقلّ كثافتهُ . وليس هناك ريح تدفعهُ امامها . واذا بمباني الجامعة تبدو في الضباب اللطيف كالاشباح تنجلي رويداً رويداً ، على لوحة فوتغرافية في حوض التحميض . تحوَّل الضباب الى غيم ، والغيم الى سحاب . واذا نجومٌ في صحن الجامعة صافٍ خالٍ من الشوائب ، يحيط به الضباب من كل جانب . ثم فُصل السلك الذي احدث الشرر الكهربائي ، فبدأ الضباب يرتدّ الى الصحن ، كأنه جيش يعيد الكرة على معقل أُخذ منهُ عنوة . ولكنهُ يبغي ان يحتلَّهُ ثانيةً

بعيد ذلك بأيام ، اعيدت التجربة نفسها في مدينة ليفربول ، فتمكن السر اليفر لدج ، مدير جامعة برمنغهام من ان يبدّد بشرره الكهربائي الضباب الكثيف من بقعةٍ طولها نحو ستين قدماً وعرضها نحو ستين قدماً وعلوّها نحو ستين قدماً

***

كان الضباب ولا يزال من اعدى عداة الانسان في السفر ، برّاً وبحراً وهواء . فالضباب اذا تكاثف في مدينة منشستر وضواحيها ، شلّت حركة المواصلات ، لان القطارات والترامويايات تعجز عن السير خوفاً من الاصطدام . او اذا هي سارت زحفت زحفاً . والبواخر اذا اكتنفها الضباب خففت سرعة سيرها وتنحت بصفاراتها تنبيهاً للبواخر التي لا تستطيع رؤيتها مع قربها منها . وكم ذهبت طيارة وكم راح بلون ضحية الضباب الكثيف ، اصطداماً بجبل قريب لم يرَ ، او ببرج عالٍ او بناية شاهقة . لذلك عني العلماء بدرس هذه الظاهرة الجوية والبحث في الاسباب الوافية لمكافحتها والتغلّب عليها . والوسائل العملية تنجب في الغالب من المباحث النظرية . في سنة ١٨٧٠ ابان الاستاذ تندل العالم الانكليزي ان الجوّ الذي يحيط بقضيب حام من الحديد يكون خالياً من الغبار . فظنّ اولاً ان حرارة القضيب تحرق دقائق الغبار في الهواء الملاصق لهُ . وقيل كذلك ان تيارات الهواء الباخة المنطلقة من جوار القضيب تطرد الغبار . ولكن لدج اثبت سنة ١٨٨٣ ان هذه المظاهر لا تفسَّر باحد التفسيرين المتقدمين . بل يمكن تفسيرها بفعل كهربائي . ولاقامة الدليل العملي على صدق نظرهِ قام بالتجربة التي تقدم وصفها ، فاثبت انك اذا كهربت ضباباً رسبت الدقائق التي تكوَّنت عليها قطيرات الماء الى الارض وتبدّد الضباب

كان لدج من ايام الدراسة قد وجّه عناية خاصة الى الظواهر الجوية ، وبوجهٍ خاص ما كان متصلاً منها بالكهربائية . وكتب سنة ١٨٩٢ كتاباً في الموضوع جعل عنوانه «موصلات

البرق ووقايته» . كان القضيب الواقي من الصواعق، المعروف بقضيب الصاعقة قد اقيم اولاً في اميركا . استنبطهُ بنيامين فرنكلن العالم والسياسي الاميركي، سنة ١٧٥٢. وقضيب الصاعقة يصنع عادةً من حديد او نحاس ، محدد الرأس ، ومتصل بلوح معدني بالارض الرطبة . فاذا اقتربت من البناء الذي اقيم عليهِ القضيب، غيمةٌ مشحونة كهربائية استنفد القضيب المجدد كهربائيتها رويداً رويداً. فاذا تعذّر ذلك وانطلق الشرر الكهربائي من غيمة مشحونة كهربائية موجبة الى غيمة مشحونة كهربائية سالبة ، تلقى القضيب الشرر دون البناء واوصله الى الارض فيوقى البناء كذلك ضرر الصاعقة. وذاع استعمال قضيب الصاعقة على ابراج الكنائس ومداخن المعامل وغيرها من المباني العالية . ظنّا انهُ يقي هذه المباني وقاية تامة من الصواعق. ولكن الوقاية لم تكن تامة . لان الصواعق انقضّت على بعض المباني رغم قضبان الصواعق التي اقيمت عليها. فانقلب رأي الناس في فائدة قضيب الصاعقة ، وعندئذٍ بدأ السر اوليفر لدج يعالج الموضوع . ولما كان الموضوع لا يهمنا كثيراً في هذه البلاد ، رأيت ان اكتفي بالاشارة اليهِ . وقد كان من اثر مباحث لدج ان حسّن قضيب الصاعقة حتى يفي بالغرض منهُ وفاء تامًّا ، وجنت ادارة البريد البريطاني من مباحثهِ هذه ومجاوبه ، فائدة كبيرة في وقاية اعمدة التلغراف والتلفون واسلاكهما

— ٢ —

كانت مباحثهُ في البرق والصواعق والوقاية منها ، مما استرعى نظرهُ للبحث في الامواج اللاسلكية . ولعلَّ القول بان السر اوليفر لدج من الاركان الذين قامت على مباحثهم المستنبطات اللاسلكية الحديثة ، يثير حنق بعض القرّاء الدهشة . وقد شهد لهُ بذلك هرتز قال :—

بحث الاستاذ اليفر لدج في تقريبول نظرية موصلات البروق . فقام في هذا الصدد بتجارب في تفريغ مكثفات صغيرة قادتهُ الى مشاهدة اهتزازات وامواج مترددة . ولما كان لدج يسلم بآراء مكسول ويسعى لاثباتها او نفيها ، فليس ثمة اي ريب في انهُ لو لم اسبقهُ لكان في امكانهِ الحصول على امواج في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربائية

وقد قال السر اليفر نفسهُ في هذا الصدد ما يلي . بعد ما اشار الى نظرية مكسول الرياضية الخاصة بطبيعة الضوء الكهربائية المغناطيسية وبان امواج الكهربائية تسير بسرعة الضوء : —

هذا الاكتشاف العظيم حرّك فينا نحن ، الذين كنا في مستقبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحري . واتذكر انني تباحثت فيهِ مع من محترمهُ كنا الآن جيمس فلنج وذلك سنة ١٨٧١ و ١٨٧٢ وكنا نتلقى العلم معاً . وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسول في هيدلبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الامواج الكهربائية التي قال عنها مكسول وعلى ايجاد طريقة لتشعيرها (وهذا بمثابة الارسال والالتقاط في اللاسلكي الحديث) ... وتكلمت

انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ . . . وكان رأي فتزجرالد (وهو من عظم اهل زمانه حينئذٍ) «ان توليد الاضطرابات الموجية في الاثير بواسطة القوى الكهربائية غير ممكن» . ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة «غير» من عباراته المتقدمة . وبيّن سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج ... ولو استطعنا حينئذٍ ان نصنع آلة تلتقط الأمواج الكهربائية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي»

وتفصيل مباحثه في هذه الناحية والرسائل التي القاها ونشرها في الموضوع يحتاج الى اسهاب لا يتسع لهُ هذا الفصل . وانما لا بدَّ من الاشارة الى ان لدج هو الذي اكتشف الرابط Coherer وهو جزء كان لا بدَّ منهُ في آلة الالتقاط اللاسلكية. فقد لاحظ لدج سنة ١٨٨٩ التصاق الدقائق او تجمُّعها بفعل الكهربائية . وانهُ اذا انقطع التيار تفرقت الدقائق . وكان براني الفرنسي قد لاحظ هذه الظاهرة وصنع آلة دعيت «رابطاً» او «مجمّعاً» Coherer ولكنهُ لم يفطن الى فائدتها . فاستعملها لدج سنة ١٨٩٤ في تبيّن الامواج اللاسلكية المنطلقة في الفضاء من أرهذه الامواج في ارادة الرابط ، بعد ما حسّنهُ حتى يعبر ادقّ احساساً مما كان. وبعد ذلك بسنة نجح ماركوني في تجاربه اللاسلكية الاولى، وتعاون بعيدها مع لدج في تحسين بعض الاجهزة اللاسلكية . ولما خطب لدج مبيّناً طرفاً من نصيبه في المباحث اللاسلكية الاولى قال : — ودفعاً لكل مظنّة اصرّح انهُ لولا همة السنيور ماركوني ومقدرتهُ واجتهاده ما صار التلغراف اللاسلكي وسيلة من الوسائل التجارية ولا كانت محطاتهُ قد انتشرت في كل الكرة الارضية ولا كان لهُ الشأن الذي لهُ الآن . وقال في الخطبة نفسها : — لما تمكن السنيور ماركوني من نقل حرف S بتلغراف مورس من ارلندا الى اميركا ، نصب علماً في تاريخ البشر يصلح ان يجعل مبدأ تاريخياً لما فيهِ من الغرابة والابداع »

—٣—

ولد لدج في ١٢ يونيو سنة ١٨٥١ فهو اليوم في الثالثة والثمانين من عمر حافل بالمآثر . وقد كتب اكثر من عشرة كتب بعد ما بلغ السبعين من عمره

كان ابوهُ خزافاً فبعث بهِ الى مدرسة نيوبورت فظلَّ فيها حتى الرابعة عشرة من العمر ثم ضمّهُ اليهِ في عمل الخزف وكان على وشك ان يصبح خزافاً لما وقع في يديهِ صدفة نسخ من مجلة انكليزية تدعى « الميكانيكي القديم » ، ففتحت لهُ باب عالم جديد . فسار في الطريق، غير هيّاب. وظلَّ مع ابيهِ سبع سنوات قبلما ادرك هذا ان ابنهُ نابغة علم. فبعث بهِ الى لندن ليصغي الى محاضرات الاستاذ تندل في كلية لندن الجامعة ويتلقى اصول العلم فيها على اساطينهِ. وكان لا يملك الشاب نفقاته فاضطرَّ ان يعطي دروساً خاصة ليتمكن من مواصلة الدراسة . وانت تستطيع ان تدرك مبلغ نجاحهِ اذا عرفت انهُ في خلال خمس سنوات بعد الانتظام في ذلك المعهد نال لقب

دكتور في العلوم وتزوج . ولما كان في الثلاثين ، اي تسع سنوات بعد عجزه لصناعة الخزف، عيّن استاذاً للطبيعة في جامعة ليفربول. ومنح مدالية رمفرد ، لمباحثه في الكهربائية ، فلما عيّن مستشاراً لاحدى الشركات الكهربائية ، طبّق مباحثهُ النظرية تطبيقاً جنت منهُ الشركة فائدة كبيرة . ثم عيّن مديراً لجامعة برمنغهام الجديدة سنة ١٩٠٠ فظلّ في منصبهِ حتى سنة ١٩٢٠ وهناك قام بالتجربة التي وصفناها في مطلع هذا الفصل ، ومن منبرها العام اصبح لدج ، قوة فعالة في نشر العلوم الحديثة ،بالدروس التي كان يلقيها والمقالات والكتب التي كان يؤلفها. وفي سنة ١٩٠٢ منحهُ الملك ادورد السابع رتبة فارس ولقب سر وانتخب عضواً في الجمعية الملكية واختير بعد ذلك رئيساً لمجمع تقدُّم العلوم البريطاني(١٩١٣)،ورئيساً للجمعية الطبيعية ورئيساً لجمعية المباحث النفسية ورئيساً لجمعية رنتجن

— ٤ —

قلنا في صدر الكلام ، ان لدج مفكّر يجمع بين العلم والفلسفة . وقد كان الاثير الجسر الذي عبر عليهِ من العلم الى الفلسفة ، ثم حلق بهِ في عالم الارواح

ماذا يملأ الفضاء. وماذا يربط بين الشموس في رحاب الكون. وبين الذرّات واجزاء الذرّات؟ العلوم متجهة الآن الى ان كلّ شيء مؤلف من اجزاء منفصلة بعضها عن بعض. انظر الى القبة الزرقاء في ليلة صافية الاديم تَرَ النجوم منثورة في نواحيها. تفصل بينها رحاب شاسعة. اذا اطلقت صاروخاً في الفضاء كان احتمال اصابتك احد الكواكب بهِ بعيداً جدًّا . وهو مثل احتمال اصابتك طائراً اذا اطلقت بندقيتك عفواً او اعتباطاً في الهواء . فالرحاب التي تفصل بين النجوم والسدم عظيمة جدًّا

ولكن ما قولك في خشب هذه المائدة . وزجاج هذا المصباح . وقماش هذا الطربوش؟ اليس الخشب والزجاج والقماش مواد متصلة الاجزاء ؟ كلاّ انها ليست متصلة الاجزاء . فهي في تركيبها الاساسي مؤلفة من ذرات العناصر . وذرات العناصر مركبة من كهارب وبروتونات . والكهارب والبروتونات. شحنات كهربائية دقيقة كلّ الدقة . ونسبة بُعد الكهرب عن نواته قد يقابل بنسبة بعد احد السيارات عن الشمس. فالذرة معظمها فراغ. وفي هذا الفراغ الفسيح ذرة من الكهربائية هنا وذرة هناك . فالانفصال آية الطبيعة في الاجسام المادية كبيرها وصغيرها على السواء

فلو لم يكن في الكون الاّ المادة . لما وجد رابط يربط بين هذه الاجزاء المنتشرة .واذاً لكان الكون خواء (Chaos) تامًّا .

ولكننا نعلم ان النجوم ليست مستقلة احداها عن الاخرى . فهي تنتظم مجموعات شمسية هنا . ومجموعات ثانية هناك . وعناقيد نجمية هنالك . فثمة رابط يربط بينها . يدعى

الجاذبية . ولو لم نعلم شيئاً هو هذا الرابط على حقيقته . واذاً فالفضاء بينها لا يمكن ان يكون فراغاً

وما يصح على النجوم ورحاب الفضاء يصح على الاجسام المادية . فالجزيئات والذرات . والالكترونات والبروتونات تتجمع وتتلاصق . فالجسم الجامد له حجم معيَّن وشكل معيَّن . فاذا كان بلورة رأينا في تنسيق سطوحها جمالاً ونظاماً . ومهما تبلغ الفسحات بين الجزيئات والذرات لا بدَّ ان تكون مملوءة بشيء يربط بين دقائق المادة . ويجب ان يكون هذا الشيء متصلاً

قد نختلف في الاسم الذي نطلقهُ عليهِ . فنسميه آثيراً بالاثير . وآثاً بالفضاء المطلق . وآثاً بالحيز الكوني الزماني المستمر » Space-time Continuum كما يدعي في مذهب اصحاب النسبية . ولكن لا ريب في اننا نحتاج الى شيء يتصف بهذه الصفة الاساسية التي لا نعرف من دونها سبيلاً الى فهم الكون الطبيعي فهماً متسقاً

كذلك يقول لدج

وللاثير صفات اخرى اهمها انهُ لا يرى ولا يشمُّ ولا يسمع ولا يلمس . وانما يستطاع تمويجهُ ، والانسان يستطيع ان يحسَّ بمض تموّجاته . فهو ناقل للضوء . لا يعيقه من المرور كما تعيقهُ المادة . فوظيفتهُ الاولى اذاً ان يكون رابطاً بين دقائق المادة . ووظيفتهُ الثانية ان يكون وسطاً لنقل امواج الطاقة على اختلافها من الاشعة الكونية البالغة حدًّا متناهياً من القصر ، الى الاشعة اللاسلكية التي تبلغ موجتها أحياناً عشرين كيلو متراً او تزيد

ثم ان الاثير لا يتحوَّل ، ولا ينحلُّ ، شديد الصلابة ولكن المادة تتحرك فيهِ ولا تجد أقل معارضة من فرك او لزوجة

فالاثير ليس مادة بالذات لكنهُ ماديٌّ

وهو اداة الاتصال الكبرى . وقد يكون اكثر من ذلك . لان بدونهِ لا يكون للعالم المادي وجود . ومهما تكن الحال فلا شبهة في لزومهِ للاتصال لانه يشغل كل المسافات التي بين دقائق المادة ويوصل بينها . واذا كان في الامكان وجود المادة من دونهِ فتكون اجزاء متفرقة . هو الصلة بين العوالم والدقائق . ومع ذلك فقد ينكر الناس وجوده لأنهم لا يشعرون بهِ بحاسة من حواسهم ، إلاَّ بالبصر اذا يتموَّج

— ٥ —

اذا خرجنا من ميدان البحث العلمي البحت ، جابهنا السؤال الآتي : هل للاثير صلة بالحياة ؟

نحن نعلم ان المادة لها شكلان شكل جامد خالٍ من الحياة ، كالجرامد والسوائل والغازات والكهارب والبروتونات . وشكل آخر يعرف بالشكل العضوي وهي فيه جزيئات كبيرة معقدة التركيب تعرف بالبروتويلازم . والبروتويلازم هو آلة الحياة . فبعض اشكال المادة حيٌّ والحياة لغز لم ينفذ الى سره بعد . فنحن لا نعلم ما الحياة . وانما نشاهد ما تفعله الحياة . انها

تؤثر في المادة ، وتتخذ اشكالاً مختلفة من المادة وتنتقل من السلف الى الخلف . فالحياة قد تتخذ شجرة البلوط شكلاً تظهر فيه ، وحياة شجرة البلوط تنتقل الى شجرة اخرى من البلوط. اوقد تتخذ الحياة العصفور شكلاً تظهر فيه ، او سمكة او دودة واشكال الاحياء كثيرة لا تحصى

ففي مرحلة معينة من مراحل الحياة ينبثق العقل في هذه المادة الحية التي ندعوها البروتوبلازم. واذاً فالعقل والحياة قد اثرا في المادة . انا لا نعرف ما هما. وانما ندرس مظاهرهما. انهما يستعملان المادة مدة ثم يختفيان . يقول لدج يختفيان لا يتلاشيان قصداً. انهما يزولان من حيز معرفتنا نحن . ولكن من يستطيع ان يقول انهما يزولان من الوجود حتماً . وكل ما نستطيع ان نقوله انهما يؤثران في المادة تأثيراً وقتياً

ولكن هل تؤثر الحياة ، والعقل في المادة فقط ، دون الاثير الذي يربط بين دقائقها ؟ هل تؤثر الحياة في الاثير كما تؤثر في المادة ؟ انا لا نعلم كيف تؤثر الحياة في المادة . وانما نعلم انها تؤثر . ولكننا لا نستطيع ان نثبت انها تؤثر في الاثير . وانما نحن نوجه هذا السؤال الى الباحثين . ثم هناك سؤال اهم من هذا واكثر اشكالاً . في الانسان صفات العقل والشعور والذاكرة والمحبة . وهي صفات لا نستطيع ان نقول بفقدها في الحيوانات العليا . وانما نعلم انها تتجلى في الانسان فهل تحتاج هذه الصفات العليا الى اداة تتجلى فيها في العالم المادي ؟ انا نتبين هذه الصفات اذ تبدو في المادة ، فتفعل بالمادة ، تنقلها وتغير اشكالها وتبدل من ترتيبها وتنفخ فيها احياناً معنىً من المعاني . انها تتخذ من دقائق المادة مجلىً لها . فنحن لا نتبينها الاَّ اذا ظهرت بهذا المظهر المادي ، لان حواسنا مادية

ولكن لا بدَّ من سؤال آخر . هل هذه الصفات النفسية ، تفعل بالمادة فعلاً مباشراً او غير مباشر . هذه مسألة يجب ان تخضع للامتحان والتجربة . لا بدَّ في هذا الفعل من الاتصال . انا نحرك محجر وننقله من مكان الى آخر . ولكن الذرات لا تتصل قط . بل بينها فراغ . فاذا اقتربت دقيقتان ماديتان ، احداهما من الاخرى ، تولَّت قوى الدفع الفعل بينهما . فالكهرب لا يستطيع ان يلمس الكهرب . لانهما متدافعان . فهل يستطيع الكهرب ان يلمس البروتون ؟ لا نعلم . ولكن اذا لمسهُ ، انطلقت شرارة تدلُّ على فناء احدهما في الآخر

والواقع اننا اذا نلمس جسماً من الاجسام انما نلمس الاثير. فهو الشيء الذي يملأ كل المسافات بين الاجسام. ولكن اذا كان لمسنا لا يتعدَّى الاثير، لا نستطيع ان نحدث اثراً يحسُّ به صاحبنا او جارنا او محدثنا . لأن حواس الناس لا تستطيع ان تدرك الأثير الاَّ اذا تموَّج . واذاً فالحياة اذ تفعل بالمادة تفعل بالاثير اولاً فعلاً مباشراً ، وبالمادة ثانياً فعلاً غير مباشر

ولذلك يذهب السر اوليفر لدج ، الى أن اداة الحياة والعقل ليست المادة ، بل الاثير يقول علماء الحياة انهُ لا بدَّ للحياة والعقل من جسم مادي يحملهما . وهذا مسلَّم به .

ولكن هذا الحامل قد لا يلزم ان يكون مادة في شكل من اشكالها المعروفة . بل قد يكون ابسط من المواد المعروفة . فقد يكون شيئاً غير المادة صورة محسوسة من صوره . والاثير عند السر اوليفر لدج جسم متجانس فاذا تنوّع كانت المادة

فالحياة والعقل قد يكونان متصلان بالاثير اتصالاً لا ندركه بحواسنا . واذاً فلا يحق للعلم ان ينفيه نفياً مطلقاً . فالنفي ليس من شؤون العلم . وانما شأنهُ الاثبات . والنفي القاطع اصعب من الاثبات ، لانهُ يقتضي علماً واسعاً محيطاً بكل شيء شاملاً لكل شيء . ونحن نعلم ان فرعاً من العلم قد يغفل شيئاً . ويعتني به فرع آخر . فالفرع الاول لا يستطيع ان ينفي وجود هذا الشيء نفياً قاطعاً . فالكيماويون يغفلون الاثير . وعلماء الطبيعة يغفلون الاحياء . وعلماء الحياة يغفلون في بحثهم العقل والقصد . وعلماء الكرسكوب لا يلتفتون الى الكواكب . فهل يصحُّ ان تنكر كل هذه الاشياء لان علماً من العلوم لا يلتفت اليها ؟ وما احسن ما قيل من ان الشك في كل شيء والتصديق بكل شيء محلٌّ يلجأ اليه الذين لا يريدون ان يشغلوا عقولهم

فاذا قام العلماء وقالوا وجود ما يخرجونه من نطاق بحثهم بطبيعة هذا البحث ، وجب ان لا نقبل قولهم . ان قوانا محدودة وحواسنا لم تألف الا المادة التي تشعر بها . ولا شيء غيرها نستطيع ادراكه . ان عضلاتنا واعصابنا صالحة لتحريك المادة في الجهة التي نختارها . هذا هو جهازنا لحياتنا الارضية وما تاريخ الانسان الا اخبار ما فعله بهذه القوى الطفيفة التي اعطيها

بالمادة يعرف كلٌّ منا بوجود الآخر وبها نتخاطب مع الذين افكارهم تشبه افكارنا ، إما بحركات تموجية كما بالكلام والغناء او بتوزيع دقائق المادة كما في الكتابة والتصوير . فنتخاطب كذلك ونتفاهم . وقد الفنا هذه الوسائل حتى صرنا نحسبها هي وامثالها الوسائل الطبيعية الوحيدة للتخاطب والتفاهم وان كل وسيلة غيرها يصل بها المراد من عقل الى عقل مباشرة خرق لحرمة العلم

— ٦ —

من هنا نرى الاساس الذي يقوم عليه اعتقاد لدج في بقاء الشخصية ومخاطبة الارواح . فهو يقول ان الحياة والعقل يحتاجان الى أداة . يظهران بها . او يتجليان فيها . ولكن هذه الاداة لا يجب ان تكون مادة . بل قد تكون الاثير نفسهُ . واذا فبقاؤها بعد انحلال الجسم المادي محتمل . وان كنا لا نستطيع ادراكه بحواسنا . ولكن بعضاً منا ممن ارهفت حواسهم يستطيعون ان يتبينوا اثر الشخصية في الاثير . فيتلقون من الاشخاص الذاهبين ، الذين خرجوا من دائرة الوجود المادي الرسائل والانباء

كل هذا فرض جميل . وكل انسان اذا تخطى عهد الشباب والفتوة يتوق اذا كان ممن يفكر في خفايا الحياة والكون الى ان يعرف ما وراء الموت . ويتوق كذلك الى الايمان ببقاء الشخصية وفي هذا الفرض من الناحية الفلسفية ما يكفي

ولكن موضوع مخاطبة الأرواح الذي عالجهُ السر اوليفر لدج معالجة عملية ليس لهُ بالفرض الفلسفي الا صلة ضعيفة . وهو مثار لاختلاف الرأي بين الثقاة . وقد جددت العناية به في العهد الاخير في هذه البلاد بعد ما نشرهُ بعض الكتاب من المقالات في الموضوع

والواقع ان هذه المخاطبة تختلط بكثير من الخداع والانخداع

ويكفي ان استشهد بالحادثة التالية لكي ابيّن ان الجزم في هذه الموضوعات من اصعب الامور . من نحو ثماني سنوات ، عرضت مجلة السينتفك امريكان جائزة مالية كبيرة ، لاي وسيط او وسيطة ، يقوم بظاهرة نفسية ، تثبت على الامتحان امام لجنة مؤلفة من عالمين طبيعيين وعالم نفسي ومشعوذ وسكرتير . وقد تقدم الى هذه اللجنة لنيل هذه الجائزة نحو عشرة وسطاء اثبت البحث ان نسبة منهم خادعون ، وظهرت طرق خداعهم . واما الوسيط العاشر وكان وسيطة تدعى مارجري ، ففسّرت الظاهرات التي تجلّت في أفعالها تفسيراً ، فيهِ مطّ لبعض النظريات النفسية ولا يقنع طالب الحقيقة من هذه الناحية او من تلك . وما زالت الجائزة في خزائن المجلة لم تمنح لأحد

واذن فنحن امام امرين . الاول ان حلقات الوسطاء حافلة بالخادعين فيجب ألاّ نستسلم لاول صوت نسمعهُ فنتخيلهُ صوت من نريد مخاطبته . والثاني ان هناك ظاهرات عجيبة تحير العقل ولا يمكن تعليلها بما نملكهُ الآن من الحقائق والوسائل

فالموقف المعقول يقضي علينا بالتزام الحذر في الحكم . فكثير من الحقائق العلمية انكرت في اول عهدها ثم ثبتت صحتها . وثمة طائفة اخرى من الحقائق العلمية ، لم نستطع كشفها الاّ بعد كشف وسيلة علمية جديدة كالمكرسكوب او التلسكوب او الاشعة البنية . ومن يدري ما يأتي بهِ العلم في غدٍ من الوسائل الجديدة . فالاشعة الكونية مثلاً اقوى نفوذاً من اشعة اكس واشدّ فعلاً وقد تسخّر غداً او بعد غدٍ فتكشف لنا عن عوالم كانت خافية عنا لاننا لم نملك الوسائل اللازمة لتبيّنها

ثم ان اساليب البحث الطبيعي ليست كل الاساليب التي يمكن الوصول بها الى الحقائق

فاذا شئت ان تكتفي بما تثبتهُ الوسائل العلمية المعروفة . والامتحانات والتجارب التي قام بها رجال منزّهون من الهوى . استطعت ان تقول ان مخاطبة الارواح لم تثبت بعد . ولكن ليس في العلم ما ينفيها . لان العلم لا يستطيع ان ينفي . الاّ اذا أحاط بكل شيء . واستقرأ استقراء شاملاً

واذا شئت ان تنظر نظراً فلسفيّاً فلك ان تعتقد مع السر اوليفر لدج انهُ رغم الخداع والانخداع الذي يخالطان اعمال الوسطاء يقتضي اتساق النظرة العلمية الفلسفية التي بسطناها بقاء الشخصية بعد انحلال الجسم المادي ودوام تاثيرها في الاثير المالىء رحاب الكون

فؤاد صروف

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الفاشستية والنازية والكمالية

في وصف «الفاشستية» الايطالية ما يغني القارىء عن ذكر «النازية» الالمانية لان هذه نسخة منقولة عن تلك بشيء من التصرف تقتضيه ذهنية الالمان وتربيتهم والاحوال التي طرأت على بلادهم ، فمن ذلك مثلاً ان (هتلر) زعيم النازي مع كل ما اقدم عليه من الضغط على خصومه والتهجم على حريتهم الشخصية خصوصاً الشيوعيين منهم كان بالاجمال أبعد عن العنف واتخاذ الشدة من زميله (موسوليني) زعيم الفاشستي الأمر مع اليهود ، وهذه الشدة معهم ناشئة من اعتقاد الوطنيين الالمان الراسخ بان اليهود كانوا اصل بلائهم في الحرب العالمية ومصدر نكبة المانيا في اوصابها الحاضرة وسبب تفسخ ابنائها من جراء انتشار العقائد اللاوطنية اليهودية بينهم كالماركسية وغيرها وان الاختبار دلهم في بلادهم وفي غيرها على ان اليهودي يهودي قبل كل شيء مهما تغيرت الاحوال وتبدلت الاوضاع

ثم هنالك فرق جوهري في التطبيق وهو ان الفاشستية تطبق في بلاد غالبة تتمتع بحريتها التامة، فموسوليني زعيم مطلق التصرف مثل زميله مصطفى كمال ، في حين تحاط النازية بالدول الغالبة التي تهددها بالتدخل في شؤونها في كل حين لاعذار مختلفة فتضيف الى عبء خصوم (هتلر) الداخليين عبء العداوة الخارجية الثقيل ، لكن النشاط الذي أبداه (هتلر) في الداخل والحزم الذي تذرع به في الخارج عادا عليه باجتماع كلمة الالمان حوله وتراجع الدول الغالبة عن خططها التهديدية لاذلال المانيا ، فبعد ذلك التفسخ والخضوع والرضى بالمعاهدات الجائرة قامت المانيا النازية تطالب بحقها في الحياة والجلوس على المائدة الدولية على مستوى الدول المعظمة الأخرى

﴿ الفاشستية ﴾ : لقد خرجت ايطاليا من الحرب العالمية مثل سائر الدول المحاربة منهوكة القوى تتهددها الثورات وتفت في ساعدها الانقسامات الحزبية واعظم خطر احاق بها خطر الشيوعية

حتى ان الشيوعيين حاولوا في تلك الايام تطبيق المنهاج الشيوعي في (بولونيا) احدى مقاطعاتهم. وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٢٠ حلّ السنيور (جيرلتي) محل السنيور (نتي) في رياسة الوزارة فقام بشيء من التجارب الاشتراكية في المملكة ولكن ذلك لم يخفف من حماسة الشيوعيين بل زادهم طمعاً فقاموا بثورات عنيفة في سنة ١٩٢١ في انحاء البلاد مما احدث رد فعل شديد في العناصر الوطنية التي نشأت على احترام (غاريبالدي) و (كافور) وغيرهما من مؤسسي ايطاليا الحديثة ووحدتها الوطنية السياسية، ولا سيما بين الطبقات الرأسمالية التي تحترم قاعدة التملك الخاص وتعدها الباعث على الانتعاش والارتقاء. فتألف من هؤلاء جمعية باسم «الفاشستي» رمزها ارتداء القمصان السود ودينها الوطنية وديدنها مصارعة الاشتراكية فسلكت سبيل العنف والشدة مع الخصوم ورأت خير زعيم لتنفيذ رغائبها السنيور (بنيتو موسوليني) الصحفي الراديكالي سابقاً فرفعته قيادها فساقها الى الامام بحزم وعزم ومهارة نادرة حتى قضى على الشيوعيين وعلى اعمالهم العنيفة — ولو موقتاً — بسرعة فائقة وقبض على الاحرار المخالفين من زعماء وكتّاب والقاهم في غياهب السجن. وتمكن من انقاذ البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها، وزاد في نجاحه ما اظهره الزعماء الاشتراكيون من السخافات الصبيانية والتقلقل المعيب والجبن الذي نهك قواهم، ومن الطرق المستغربة التي سلكها في إسكات المنتقدين ومضايقتهم تبليعهم جرعاً كبيرة من زيت الخروع. وصار القتل والضرب والتعذيب وحرق الاملاك الخاصة كما قال (آش. جي. ولز) من الوسائل الادارية في ايطاليا لكبح جماح الاحرار والقضاء على مذاهبهم «فزال شبح الشيوعية وحلّ محله حكم السلاّمين النهّابين»[1]

ولما اشتدت شوكة الفاشستيين وتأيد سلطانهم وصار لهم جيش نظامي يعتمد عليه زحفوا في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٢ على رومية لاحتلالها فتزعزعت الوزارة (وزارة السنيور فاكتا) لملاقاتهم في الميدان واعلنت الاحكام العرفية وعرضت على الملك الخطط التي تذرعت بها ولكن الملك بدلاً من اقرارها على ذلك دعا اليه (موسوليني) لتولي زمام الأمر فتولاه وقبض بيد من حديد على شؤون الدولة ومرافقها ومصادر قوتها حتى دان له الشعب، ومما فعله في هذا الباب انه قضى على حرية الصحافة وجعل الانتخاب للمجلس النواب بمهزلة تشبه مهزلة المجلس الوطني الكبير في انقره، وما فتىء يلقي خصومه السياسيين في اعماق السجون ويأخذهم بالشدة ويقابلهم بالطول حتى قضى عليهم قضاء مبرماً واصبح الآمر الناهي في طول البلاد وعرضها. وكلمة «الدكتاتور» — وهي اللقب الذي يطلق عليه — تعني في معجم السياسة الحاضرة الجبّار القاهر

ومما تحسن الاشارة اليه ان «الدكتاتور» ما تربع على دست الوزارة حتى استقر البرلمان وحمل

(١) Outline of History, p. 682

على النظم الديموقراطية ولم يذكر الجمهورية التي كان يتغنى بها بكلمة واحدة . ومما جاء في احدى خطبه بومئذٍ قوله: «ان جميع المشاكل المتعلقة بالحياة الايطالية قد وجد لها الحل على الورق ولكن الحزم اللازم لوضعها موضع التنفيذ كان مفقوداً فعلى الحكومة الفاشستية ان تمثل هذا الحزم وهذه الارادة التي لا مردّ لها . والواجب ان تكون القواعد الكبرى في سياستنا الداخلية الاقتصاد والعمل والتدريب» (١)

وقد أتى ظهور الفاشستية في ايطاليا والنازية في المانيا (والكمالية في تركيا) برهاناً آخر على صحة مذهب ارسطو من ان الفوضى تؤدي الى الحكم القاهر . فالفوضى التي منيت بها ايطاليا عقب الحرب العالمية خلقت موسوليني وجعلته رجل الساعة خصوصاً لأن زعماء الاشتراكيين الطليان على ذاك العهد كانوا ثرثارين — يكثرون من الكلام ولا يكادون يعملون شيئاً ، وكل حزب يجعل همّه الهدم بمعاول النقد المجرّد من الاعمال الايجابية البنائية يستطيع ان يشل يد الحكومة ولكنهُ عاجز عن الجلوس على منصتها وهذا ما يمهد السبيل الى يد القاهر الحازمة التي تنقذ الموقف . وكان الاشتراكيون في حيص بيص لم يرضوا بالطريقة القديمة من جهة ولكنهم مع عطفهم الشديد على روسيا لم يجرؤوا على اعلان الشيوعية من جهة اخرى ، فادّى هذا التقلقل في موقفهم الى الاستياء العام والى اختناق الطريقة البرلمانية وما فيها من اخذ ورد على غير طائل والى رفع الثقة من الاشتراكية ومن انصارها ومن الحزب الكاثوليكي واعوانه مما عبّد الطريق امام (الدكتاتور) وجيشه اللجب من الرجال الناقمين وفتح ابواب روما لليد القادرة والادارة الحازمة . ولم يمضِ زمن طويل حتى انضمّ الملك نفسه اليها ودخل تحت لوائها. سنّة في سياسة الامم حكم بها الدهر اليد القادرة منذ فجر التاريخ ولن تجد لهذه السنة تبديلاً

تشترك الفاشستية الايطالية ومعها النازية الالمانية — والكمالية الى مدى بعيد — من جهة والشيوعية الروسية من جهة اخرى في الشؤون الآتية :

(اولاً) اصرارها كلتيهما على ان الوطنية الصحيحة هي عمل ايجابي لا اهمال سلبي ، فموقف المتفرجين غير المبالين موقف لا يليق بالمجتمع السليم ولا بنظرية الجماعة المسؤولة ، والبيت الذي لا يكترث اهله لترتيبه ونظامه بيت محكوم عليه بالفوضى والانهدام

(ثانياً) الشد بخناق جميع العناصر العدائية والآراء المخالفة والسعي في حرمانها من الاشتراك في ادارة الدولة وسد المنافس دون افصاحها عن آرائها وبث دعايتها

(ثالثاً) رغبتهما كلتيهما في ضم جميع المتحدات الاختيارية الحرة وسائر انواع الحياة المشتركة تحت لواء الدولة السامي

(رابعاً) عزمهما على تحويل الاشتراكية الوطنية في ايطاليا والمانيا وتركيا والاشتراكية

(١) These Eventful Years, p. 655

الشيوعية في روسيا اليد العليا في تعيين السياسة الواجبة الاتباع ائناً ما كان اسمها

ولئن تماثلت الشيوعية والفاشستية في الطرائق الموصلة هذا التماثل الشديد فالغايات مختلفة كل الاختلاف ، ذلك لان الاساس الذي يبنى عليه العمل في الشيوعية الماركسية هو الطبقة فعلى الطبقة وما فيها من قوة حافزة وما لها من مصلحة ملحة يجب ان يبنى المجتمع الجديد واما في الفاشستية واضرابها فقطب الدائرة هو الامة ، وان غاية السياسة جعل الامة عظيمة متمتعة بحقوقها رافلة بحلل السعادة ، وايجاد الانسان السياسي او الاداة السياسية التي تعبر عن الحياة الوطنية كاملة ، وهكذا نجد النظريتين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الوطنية على طرفي نقيض ، ويزيد في هذا التباين وما يجر اليه من تنازع جوهري ان الوطنية في نظر الفاشستي لم تعد شيئاً يظفر به الوطنيون بالانتصار على عدو اجنبي ظالم بل هي شيء راهن حاصل في اليد شكلاً ولكنه يحتاج الى من ينفخ فيه روحاً ويكسوه لحماً ويحميه من مجازر الاشتراكية وغارات « الدولية »

ولم تكن الفاشستية في اول عهدها نظرية علمية او منهاجاً سياسياً بقدر ما كانت دعوة الى العمل وسعياً لانقاذ الوطن من التفتت والانحلال ، ويمكن وضع تعريف لها بسرد ما تضمنته من الكلمات او المصطلحات الدالة على الكراهة والبغض اكثر مما فيها من التعاليم والآراء اللهم الا ما دعت اليه من وطنية بحتة وانها رسالة جذابة للنشء الحديث وانها التفتت الى العمل واعتدت به واهملت شأن النظر : وقد ابغضت الشيوعية ونفرت من « الدولية » على اشكالها ومن الحروب بين الطبقات وحملت على الطريقة البارلمانية حملة شعواء وحكمت عليها بانها سبب الخيبة وسوء الادارة في ايطاليا — يشاطرها هذا الرأي كل من تتبع سير البرلمانات في جميع البلدان التي لم يستعد اهلها للحكم الديموقراطي ، بل ان هذا الشكل في الحكم يلاقي خصوماً الداء حتى في ارقى البلدان

وتقوم الفاشستية من الاساس على فكرة ان الامة هي الوجود الاخلاقي القيم ما بعده وجود ، وان الواجب على الجميع ان يخضعوا لها ويلتحقوا بها ويسعوا الى تحقيق ذاتهم وما تتطلبه نموهم ضمنها وبواسطتها . وعلى الناس نحو الامة واجبات ولكن ليس على الامة من واجب ، وقد تتعامل بالامم الاخرى بمعاملات سلمية حبية او حربية عدائية ولكنها لا تعترف بتفوق احد عليها او بخضوعها للاسرة الدولية التي هي عضو من اعضائها . وتسعى بروح تحاكي روح (فردريخ نيتشه) الفيلسوف الالماني نحو القوة الى التوسع والانبساط والتعلي بحيث لا يكون السلم العالمي العام متوقفاً على شيء يعارض طموحها . فالامة عند القائلين بهذا المذهب هي الوجود الشامل والسياسة هي تحقيق المطالب الوطنية . ونسارى القول اننا في شرح الفاشستية والاشارة الى زميلتها النازية والكمالية نشعر كأننا نشرح نظرية (هيجل) في

تقديس الدولة وجعل الوطن سر الاسرار ومجلى الانوار

وتمجد هذه الطرائق الثلاث الفضائل العسكرية ، وفي سياستها نغمة حربية مستمرة ، واذا كان هتلر في خطابه السياسي الذي سبق المؤتمر الاقتصادي العالمي قد تجنب اضطراراً ذكر الفتوحات والبسطة السياسية ومصطفى كمال حاول الظهور بمظهر المكتفي بتركيا في حدودها الحاضرة فان الفاشستية عند مؤسسيها تعني التوسع السياسي في الخارج صراحة ؛ وقد يعميها هذا الميل الاستعماري عن مصالحها الحقيقية ويحملها على البذل الغالي في المال والسمعة والرجال في سبيل بلاد قاحلة قليلة الانتاج مثل طرابلس الغرب وبرقه ، بل انها لم تتورع هناك ان تسود صحيفتها فتقتل شيخاً طاعناً في السن من كبار المجاهدين مثل عمر المختار للارهاب العسكري . على ان نظرة سياسية صادقة فيما لها من المصالح في الشرق تدعوها الى جعل شاطىء الصحراء الليبية الخاوية على عروشها مكاناً تنجب الى سكانه فتسخطهم من العطايا السياسية ما يبث لها دعاية في شمال افريقية تزعزع بها اعظم دولة حربية تهددها وتهدد غيرها من الدول «بالامبراطورية السوداء» التي تحلم بتأسيسها في افريقية . قال السنيور (نيتي) رئيس وزرائهم المشهور «ان ليبيا — يعني طرابلس وبرقة — هي المستعمرة التي كلفت ايطاليا اعظم البذل ، ومع كل هذه الحروب المديدة التي خضنا معاركها هناك والنفقات الباهظة التي انفقناها فالظاهر انها محكوم عليها ان تبقى عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة وسبباً مستمراً للقلق واشتغال البال[1]»

ان مثل هذه الذهنية الهجومية الدفاعية تحتم على ايطاليا ان تفكر في الحرب وتعدها في حيز الامكان دائماً ، فلا يجوز للايطاليين والحالة هذه ان يستكينوا للسلم او يستسلموا له حتى لو كانوا ينوون الدفاع عنه

وتعني الوطنية عدا ذلك الارتكاز في الداخل فيجب تنظيم حياة المجتمع الايطالي وضمه حول دولة الامة . ولا يسمح لاية اداة من ادوات العمل او الكلام ان تعيش في المجتمع الايطالي ما لم توطد العزم على احناء الرأس امام الفكرة الوطنية وان تقوم بالقسط المتوجب عليها في تحقيقها . ويتناول هذا الموقف ابادة حركة العمال خاصة والقضاء عليها سواء بالشكل الذي اتخذته في ايطاليا ام في غيرها ، لان طبقة العمال كطبقة الرأسماليين تتشابه في الاقطار الصناعية وتتخذ شكلاً واحداً ، وهي من الاساس مشربة بالفكرة الدولية فالمتحدات التجارية والاحزاب الاشتراكية كلتاهما سواسية فيما لها من التآخي الدولي والخضوع لفكرة التعاضد بين افراد الطبقة الواحدة في الدول المتعددة ، لذلك يتحتم على الفاشستية ان تجتث هذه المجموعات من اصولها ، ولكن لا تتوصل الى ذلك ما لم يكن عندها ما يحل محلها ، ذلك لان المجتمع

(١) These Eventful Years, I. p. 636.

الحاضر يجب ان يزوَّد بهيئات منظمة تفصح عن حاجات العمال ومطالبها العادلة، وما لم يعترف بهذه الحاجات ويسلم بحقها فانها تتخذ شكلاً معادياً لمصالح الذين يريدون القضاء عليها . وفي الحق ان الفاشستية ما كانت لتستطيع الثبات وهي تحارب الاشتراكية هذه المحاربة القاسية لو لم تلتفت الى مصالح العمال الاساسية وتحول دون تدفق تلك الاجور الباهظة او الارباح الغزيرة الى جيوب بعض الطفيليات في المجتمع الايطالي

لاجرم ان الفاشستية بقضائها على طبقة العمال في ايطاليا اخذت في احلال نظام جديد محلها على الشكل الفاشستي ، فبدلاً من المتحدات التجارية الاشتراكية قامت متحدات فاشستية يديرها الانصار المقربون ولا يدخلها احد من اهل الخبث والعند . وخولت هذه المتحدات قوة عظيمة منها الحق في ضرب الاعانات على الاعضاء وغير الاعضاء وان تساوم هي وحدها المخدومين وان تنضم الى جمعياتهم فيتألف من المجموع — الخادمين والمخدومين — نقابة رسمية للاشراف على كل خدمة وكل صناعة برمتها، وان تجعل هذه المتحدات الفاشستية دوائر انتخابية بدلاً من الدوائر الجغرافية القديمة فينتاب منها الاعضاء للمجلس التشريعي الفاشستي الجديد

وتعارى القول ان الفاشستية بنت لكل جمعية حرة اساساً فاشستياً تقوم عليه وجعلتها اداة حكومية وحرصت على ان تكون ادارتها بيد الحزب الفاشستي وانصارها ؛ وليس من السهل ابداً ان نعرف مقدار استيلائها على طبقة العمال الايطاليين ودرجة اسمالهم الى جانبها ذلك لان الفاشستية وزميلتيها النازية والكمالية هي مثل الشيوعية الحمراء تكم افواه المعارضين ولا تسمح لاحد بالتلفظ بما يخالفها ، لكنها على كل حال لقد صمدت حتى الآن وحالت دون تجدد الاتصال بين العمال الايطاليين وبين حركة العمال المنظمة في الاقطار الاخرى وساعدها على ذلك معالجتها الناجعة لبعض شرور الرأسمالية وتخفيفها وطأة البطالة التي تئن منها الدول الاخرى

ولا تعد الدولة الفاشستية دولة مؤلفة من افراد بقدر ما هي مؤلفة من نقابات متنوعة تختلف باختلاف العمل الذي تقوم به ويتصل الفرد فيها بالدولة بواسطة النقابة التي ينتمي اليها، فالحكومة بهذا المعنى هي الرأس والنقابات — لا الافراد — هي الاعضاء ، ويطلق على هذا الوضع السياسي الحديث اسم «الحكومة النقابية او الدولة المندمجة Corporate » ، ويختلف في الفاشستية عنه في غيرها ان النقابة فيها خاضعة للدولة ومسخرة لاغراضها تسخيراً تاماً ، ذلك لأن الوطن الايطالي هو «العلي الاعلى» في حين تمنح النقابات في المناهج الاشتراكية استقلالاً كما هو الحال في المتحدات التي تدعى (جيلد) و (سنديكا) وغيرها من الانظمة التي تهتم بالحرية اكثر من اهتمامها بالخضوع والانقياد . اما الفاشستية فتسير على مذهب (هيجل) مؤسس الامبراطورية الجرمانية من حيث اهتمامها بالطاعة وتفضيلها النظام والتدريب، وهي تدعو افراد الرعية ان يحققوا حريتهم في حرية الدولة اكثر مما يحققونها في فرديتهم او في مجتمعهم النقابي

عدلي يكن باشا

قتيل نابت بك

رئيس تحرير المقطم

في موقف جليل كهذا الموقف يحار الكاتب في اختيار ما يستهلّ به قولهُ والخواطر تتزاحم والعواطف تتدافع فلا يرى أوجب من أن يبدأ الكلام بتعزية مصر عن خسارتها بفقد قطب كبير وخسارة ابن كريم وانهيار ركن متين فاذا كان الفقيد قد أتمّ ما قيض له القضاء من عمر في هذه الدنيا وذهب الى لقاء ربهِ يحمل بيديهِ سفر اعمالهِ فاطقاً بمحامده فان مصر الثكلى تنوح الراحل وتبكي الفقيد وقد كان من الذين تباهي بهم والذين تعدهم لتجدتها اذا تعقدت الامور وتشعبت المعضلات

وقد يسهل على الذين ألفوا الكتابة عن الاحياء والاموات أن يصيغوا عبارات التأبين من منثور ومنظوم ويصنعوا من يؤبنون عن تحفظه أقلامهم وما توحيهِ عواطفهم وشعورهم ولكن في ذكرى عظماء الرجال ما يسمو هذا لما فيهِ من العبرة النافعة والعظة البالغة واعطاء كل ذي حق حقهُ من عرفان الفضل وتقدير الجميل وتعيين مدى النهوض بالواجب ولا سيما الواجب القومي

فقد عاصر عدلي باشا نهضة مصر الحديثة وكتب في سفر هذه النهضة صفحات مجيدة تخلد اسمهُ وذكراه وتصلح لان تكون مثالاً يحتذى وقدوة يقتدي بها الذين يعجبون بما كان هذا المصري العظيم متصفاً بهِ وما ميزتهُ بهِ العناية

***

عاصر عدلي باشا هذه النهضة وشبَّ معها الى ان ابلغتهُ مواهبهُ ومناقبهُ الى مقام القابض على الدفة فكان شعارهُ واحداً في جميع الحالات ومقصده لا يتغير وكان لهُ من اخلاقهِ وسجاياه ما يساعدهُ وما يعينهُ على سلوك الطريق الذي سلكه الى ان صار الرجل الذي يشار اليهِ بالبنان والوزير الذي يعهد اليهِ في جلائل الامور ومعالجة الازمات

كان شمم عدلي يكن متجلياً في هيئتهِ ومنظرهِ ومشيتهِ ووقوفهِ وجلوسهِ ولكن هذا في الواقع ما كان سوى مظهر للروح التي كانت وراء حنايا الضلوع

عدلي يكن باشا

مقتطف دسمبر ١٩٣٣

امام صفحة ٥١٧

وهذه سجية عرف بها النقيد واشتهرت عنه وكان لها أعظم تأثير في حياته الادارية وحياته السياسية وسعيه لاستقلال بلاده بمثاله وفعاله ثم بمساعيه لما كان في الوزارة الرشدية ومباحثاته ومفاوضاته في لندن في اثناء وزارته ثم في ما عقب ذلك من انقسام ووئام وشقاق ووفاق ونهوض بعبء القضية المصرية في الحين الذي دجا فيه الجوّ السياسي وتلبدت فيه سحب الحيرة

وهذا الشمم تجلى فيه وهو موظف صغير ولازمهُ وهو مدير ومحافظ مقروناً بعنايته بالعمل ورعايته للعاملين ورغبته في العدل وحب الانصاف وقد كان من نتائجه ان اعتزّت فيه النزاهة السياسية والنزاهة الادارية فقضى عمراً طويلاً يتقلب في المناصب حتى بلغ أرفعها ولم يسمع عنهُ الاّ كل ما يزين التقي ويباهي به الموظف والسياسي وهو مع ذلك يمقت الظهور الاّ بما تقضي به الواجبات ومقتضى اللياقة وربما كان في ونرفه عند هذا الحد وعدم ميله الفطري الى مجاوزته ما حال دون نهوضه بمهمة الزعامة الحزبية وقد تولاها ثم تخلى عنها حتى قيضت له فعاله وصدق خدمته ان تقلد الزعامة الشعبية باجتماع القلوب حوله وشيوع الثقة به حتى عمت جميع الاحزاب فكانت في ساعات الشدة ترنو اليه بابصارها وترى فيه ابن بجدتها

***

وبعد الذي أوردته هنا لا يحتاج الكاتب الى كدّ الذهن ولا يحتاج القارىء الى حصر الفكر في استخراج العبرة التي يحسن استخراجها من حياة طفحت بأعمال عظيمة القدر وفي حقبة من سني هذا العصر الذي طرأ فيه من التحول على العالم ومصر في جملته ما لم يسبق له مثيل في اضعافها من قبل

ولا ابغي في هذا المقام خوض المباحث النفسية لتعليل ما اتصل بسيرة هذا السيد المصري الكريم — وهذا أقرب تعبير لما يريدهُ الانكليز بلفظة جنتلمان — فلست من المولعين بهذه المباحث النفسية ولا أرى من ينظر في سيرة عدلي يكن في حاجة اليها . فقد كانت حياته صفحة جلية اتاحت له العناية ان يخط فيها سطوراً من الاعمال النافعة المجيدة بحروف من نور تشهد لكاتبها بأنهُ عرف معنى الوطنية الحق وانه ألهم إلهاماً صحيحاً وانهُ وفق الى كثير مما أراد في خدمة قومه وتركهم أفراداً وجماعات ذكرى حافلة بما ينفع في مواصلة الجهاد

ولكن اذا كان ما رآه معظم الناس من فقيد مصر مرتبطاً بالعمل السياسي والخدمة الادارية فقد كان في سيرته وجهان آخران لها دلالتهما في بيان سجاياه ومزاجه وهما يؤيدان ما تجلى في اعماله العامة

فقد كان عدلي باشا شديد الوفاء لاخوانه وأصدقائه وكبير العطف على مرؤوسيه مع انتقاء صدق الخدمة منهم والتدقيق في تتبع اعمالهم وسعة الصدر في سماع شكواهم والعناية بانصافهم

***

والذين عاشروه في الاندية والمجتمعات وفي أحوال خاصة يعسر فيها ضبط النفس وحبس العواطف كانوا يعجبون اعجاباً شديداً برزانته ووقاره وكيف انهما ما كانا يفارقانه مهما تنوّعت الظروف . وقد قال لنا غير واحد منهم ان عدلي في جميع تلك المواقف كان كالطود الراسخ . وهذا الوصف يطابق ما كان يبدو في عدلي باشا في أثناء الازمات والشدائد وهذا ما اتصف به لما سمى مستر ميلنر المرحوم رشدي باشا لخدمة مصر سعياً قال رشدي باشا في وصفه انه لو عرفه الانكليز في حينه لشنقوه (اي رشدي باشا) والذين يعرفون تلك الحوادث يعلمون ان مصير عدلي ما كان ليختلف عن مصير رشدي من هذا القبيل لو افتضح الامر قبل اوانه

وربما كان من أبهى صحائف هذا الرجل العظيم ما متعه الله به في أخريات أيامه برؤية ذريته ولدي كريمته المأسوف عليها فقد كان عدلي باشا يجد السرور كله وبهجة الحياة جميعها في ما يقضيه من الوقت مع بنت وصي لا يزالان في سن الطفولة يلاعبهما كما يلاعب الصغار في هذه السن ويجني من المسرة ما يشرح صدره ويخفق له قلبه حبًّا وحناناً وله في ذلك اقوال مأثورة يتناقلها اصدقاؤه وعشراؤه

***

هذا بعض ما نقوله نحن الذين عاصروه وعرفوه واطلعوا على شيء من مناقبه ومواهبه وسجاياه وفعاله ونحن لا نزال قريبين منه ولم نبتعد عنه ما يكفي للاحاطة بالشيء كله كما يحيط به التاريخ بعد ما ينقضي ما يلزم من الزمان لاذاعة ما لم يذع بحكم الاعتبارات السياسية وينقشع الغبار الذي تثيره الخلافات الحزبية في اجواء البلدان وبعد ما تخمد العواصف ويزول الانفعال فتكون الاحكام اقرب الى الصواب بزيادة المعلومات والبينات وسلامة البحث من مؤثرات تقحم عليه وليس لها صلة حقيقية به

سيقول التاريخ كلمته وستجيء مطابقة لما يؤمن به ابناء هذا العصر وهو ان مصر فقدت بعدلي باشا ابناً من اكرم ابنائها خلقاً وأشرفهم طبعاً ومن أصدقهم وطنيةً ومن أكثرهم خدمةً صحيحةً للعرش والامة والوطن

رحمة الله عليه ونفعنا بفضله وخدمته وقدوته

انسان المستقبل

صفاته البيولوجية كما يراها اساطين العلم الحديث

المرجّح ان انسان المستقبل سوف يكون امدّ قامةً ، واذكى عقلاً ، واشدّ مناعة ضدّ الامراض من انسان اليوم . والمحتمل ان يضيف بضع سنوات الى مدى حياته بل قد يتمكن من ان يتحكم في مواليده من بنين وبنات

***

بهذه العبارات البسيطة يلخّص بحث طائفة من اشهر علماء الحياة في هذا العصر، الذين اثبتوا بتجارب تنطوي على براعة وابداع ، ان الشكل واللون والحجم والبناء والطبائع والمزايا الشقية (Sex) في بعض الحيوانات يمكن تغييرها ، بل يمكن ان يقلب اتجاهها قلباً تامًّا . وقد تمكنوا في افعال الحياة الاساسية في عالم الحيوان، حتى اصبحوا قادرين من ناحية سيطرتهم على افعال الوراثة ومزايا البيئة ان يحولوا السمندل Salamander من حيوان مائي الى حيوان برّي ، وان يشاعفوا حجم الفئران والجرذان والسمامك ، وان ينشئوا ضرباً من ذباب الفاكهة لا اجنحة لهُ ، وسمكاً من السمك لا عيون لهُ ، ويعكسوا الشقّ في الطيور والضفادع — اي يحوّلوا الذكر الى انثى والانثى الى ذكر —

فعالم الحياة بكواشفه الدقيقة ، ومكرسكوباته ، وجداوله ، يملك تحويل المستقبل . ان تجاربهُ قد اسفرت عن حقائق حيوية غريبة عن افعال الحياة الاساسية ، فردّ بها القول بالعداء والنزاع بين الوراثة والبيئة ، واثبت ان الكائن الحيّ نتيجة التفاعل بين الاثنتين

***

يعترف بعض البيولوجيين ان طبيعة الانسان ومصيرهُ يتغيران باحداث تحويل في عوامل الوراثة ، او انقلاب كبير في احوال البيئة. ولكن الامل الكبير في امكان السيطرة على خصائص الانسان ، من الناحية البيولوجية ، يقوم بالسيطرة على احوال معينة في خلال تكونه ونموّه . فالمشكلة التي امامهم، هي الكشف عن العوامل والوسائل التي تمكنهم من تطبيق ما عرفوه عن الحيوان ، على حياة الانسان

فقد ثبت لهم ان المادة الحية شديدة المرونة . وانها تنمو للعوامل التي توجهها اليها اذا عرفنا هذه العوامل وخصائصها معرفة دقيقة. وعليه فالتقدم البشري لا يكون بعد الحصول

على هذه المعرفة . عرضة لتصاريف الاقدار ، بل ان انسان المستقبل ، سوف يكون اشبه شيء بمثال بارع ، ينشىء الحياة على المثال الذي يراه بالتحكم في اغراض الحياة ومصيرها

***

في هذا العمل الباهر لا بدّ ان يكون للهرمونات (مفرزات الغدد الصمّ) مقام واي مقام فهي تسيطر على جرم الجسم ، هل تكون اسوياء او اقزاماً او مردة . بل هي تسيطر على طباعنا ، هل نكون شديدي النشاط او شديدي الكسل ، وهل تحوّل اجسامنا الطعام الذي نأكله اولا تحوّله ، هل نكون من الزعماء في جماعتنا او من الاتباع ، وهل تتصف عقولنا بصفات الرجل الاجتماعي الامثل او نكون من المجرمين

وقد استعمل بعض الاطباء خلاصة الغدة الدرقية في حقن الناس ولدوا ونشأوا صغار الجثة فصار القامة فكان من اثر هذه الخلاصة التي حقنوا بها ان اصبحوا مديدي القامة

وقد صرّح الدكتور رِدِل رئيس « جمعية درس المفرزات الداخلية » ان هرمون الغدة النخامية قد يستفرد مثل هرمون الغدة الدرقية قريباً . او قد تنقضي سنوات قبل استفراده . ولكنهُ اذا استفرد وعرفنا كلّ ما يجب ان نعرفه عنهُ امكن استعماله في خلال ادوار الطفولة في المواليد الذين يثبت ان غددهم النخامية ضامرة وينتظر ان ينشأوا اقزاماً فيحون الحَقَن بخلاصتها دون ذلك

ثم ان التقدّم في درس المناعة ، ووسائلها ، ينبىء بحلول يوم ، يستطيع فيهِ الاطباء من تحصين الطفل ضدّ امراض الطفولة ، وتحرير الكبار من قيود الادواء التي تصيب الجسوم والعقول فاذا تمّ للانسان ذلك تقدّم الى غزو الطبيعة بقدم ثابتة وعزيمة لا تعرف التردد والخوف

***

ولما سُئل الدكتور رِدِل عن مستقبل الذكاء الانساني ، قال من المتعذر ان نتنبأ بما قد يبلغه الذكاء الانساني من التقدم ، بالنظر في الحقائق المسلَّم بها الآن . ولكن عقل الانسان مرتبط ببناء جسمهِ ، ويستحيل علينا ان ننظر الى العقل والجسم ، كأنهما وحدتان منفصلتان . فاذا تمكن الانسان من ان يسيطر على نموّه الجسماني ، فلا يعقل ان يصرف العناية عن محاولة درس الاحوال والبواعث التي تمكنهُ من التأثير في قواه العقلية . والراجح ان يوجه الباحثون في المستقبل عنايتهم الى درس العوامل التي تجعل من الانسان الواحد ، سياسيًّا خطيراً ، او ماليًّا كبيراً ، او عالماً نابغاً ، او عاملاً بسيطاً ، والمحتمل ان يتمكنوا بعد ذلك من السيطرة بعض السيطرة عليها

هذه الاقوال العجيبة مبنية على احتمالات علمية أسفر عنها التقدم العظيم الذي تمّ في علوم الحياة في خلال نصف القرن الماضي . وتحقيقها متوقف الى مدى على السيطرة التي يستطيع

الانسان ان يعالجها في البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وعلى استعمال الغدد الصم ومفرزاتها ، وتطبيق القواعد التي كشفها البحث في الوراثة وارتقاء العلوم الطبيعية على اختلافها

***

ان كروموسومات الخلية اشبه شيء بعصي ، او حبيبات دقيقة منظومة في عقود ، والكروموسومات مؤلفة من عوامل الوراثة ، وفي هذه العوامل ترتدّ الصفات الانسانية الاساسية . هل الشخص ذكر او انثى ، هل هو ازرق العينين او اشهلهما . هل في تركيب جهازه العصبي خاصة الموسيقي المرهفة . ان الفرق بين بيتوفن العظيم ، والرجل الابله ليس الاّ فرقاً في انتظام عوامل الوراثة في الكروموسومات . فاذا تغيّر انتظام هذه العوامل في الخلايا ، ظهر في النسل تحوّل في الصفات الوراثية ، حتى ولو لم تتغيّر احوال البيئة التي يعيش فيها ذلك الكائن . وقد يكون التحوّل غير منتظر على الاطلاق ، في شق الكائن (ذكراً او انثى) او لون شعره ، او لون عينيه ، او مقدرته العقلية

خذ مثلاً على ذلك ذبابة الفاكهة الاميركية المعروفة بالدروسوفيلا . ان لون العين الاحمر في هذه الذبابة يرجع في الغالب الى انتظام خمسين زوجاً من عوامل الوراثة ، انتظاماً معيّناً . فاذا اتلفت عاملاً واحداً من هذه العوامل المائة ، كانت النتيجة ان عين الخلف لا تكون حمراء بل تكون بلا لون على الاطلاق . وكذلك ترى ان عاملاً وراثيًّا واحداً ، يحوّل صفة معينة ، اذا كان ناقصاً او اذا كان غير سوي . ولكن امامك خمسون زوجاً من العوامل ، تتجمع كلها لاحداث صفة لا خطر خاص لها في حياة الذبابة ، هو لون العينين . واذاً فالطرق امامك متعددة لاحداث تغيير في لون عينها

وكذلك في النسل الانساني . فعوامل الوراثة عديدة لا تحصى ، واحتمالات انتظامها في اشكال متباينة عديدة كذلك . واذاً فالنسل يختلف عن الابوين ، ويختلف افراده بعضهم عن بعض . وهذا يعلل لنا نجوب عبقري عظيم ، كنكسبير ، او لنكن او بيتوفن ، من والدين لم يمتازا بشيء من دلائل العبقرية . وهو يعلل لك كذلك ان اولاد نبوليون وجوته لم يكونوا عباقرة مثل والديهما

***

فاذا كنا نستطيع ان نسيطر على تفاعل هذه العوامل الوراثية في انتظامها ، فننظمها نحن كما نشاء ، ولا نترك انتظامها للمصادفة العمياء ، فان الدلائل تدلّ على اننا نستطيع ان نخلق الانسان الامثل ، بل نستطيع ان نعين الناحية التي يتفوق فيها هذا الانسان ، ايكون عالماً ، ام رياضيًّا ، ام مهندساً ، ام زعيماً سياسيًّا ، ام قطباً من اقطاب المال والاعمال

فما هو احتمال بلوغ الانسان هذا المدى من السيطرة على عوامل الوراثة ؟ يقول الاستاذ

هلدين (J. B. S. Haldane) ان امام علماء الحياة طريقين يسلكونهما ، لتغيير عامل واحد من عوامل الوراثة ، في احد الكروموسومات من دون ان يؤثروا في العوامل الوراثية الاخرى. اما الطريقة الاولى فابتداع او اكتشاف مادة كيائية تؤثر في عامل واحد دون العوامل الاخرى. واما الطريقة الثانية فاستنباط وسيلة يستطيع بها الباحث ان يوجه الاشعة التي فوق البنفسجي الى جزء صغير جداً من الكروموسوم من دون ان يتلف الخلية نفسها

ويقول الدكتور رديڤ انا لا نعلم الآن كيف يجب ان تنتظم عوامل الوراثة البشرية ، حتى يخرج من انتظامها الانسان الامثل . ولكن امامنا طريق علينا ان نسلكه وهو ان ندرس اثر تحوُّل عناصر البيئة في الكائنات الحية نفسها . ولكي نحدث تغييراً في الكائنات الحية ، يجب ان نحدث تغييراً في احوال خاصة في مراتب النمو الاولى . فلننظر الآن ما فعلهُ علماء الحياة في احداث هذا التغيير في الاحوال الخاصة ، وما اثرهُ في السيطرة على اجرام الكائنات وشقها ، وغيرها من وظائف اعضائها

***

فقد بيّن بعض علماء الالمان ان بيض الضفادع واجنّتها ، اذا عرّضت لحرارة اعلى من الحرارة العادية التي تتعرض لها ، تحوّلت الاناث ذكوراً . واثبتت الدكتور كتي بولس استاذة علم الحيوان التجريبي في جامعة جنيف انها تمكنت من تحويل عدد غير يسير من ذكور الضفادع الى اناث ، ثم زوجت هذه الاناث بذكور سوية ، فحملت وولدت . والظاهر من محاضرة لها انها ازالت اولاً الغدد الجنسية من الذكور اليالغين فتبع ذلك نموّ عضو صغير ضامر في الضفدع ، ولدى فحصه ، ثبت انهُ يحتوي على بيوض جاهزة للتلقيح . ولم تنفر الذكور من هذه الاناث بل اقبلت عليها . ومما يحير العقل ان نسل الاناث المحوّلة عن ذكور ، كان كلهُ ذكوراً . ثم ان الدكتور دُمّ Domm الاستاذ بجامعة شيكاغو تمكن من تحويل بعض ذكور الطيور اناثاً وبعض الاناث ذكوراً ، فانهُ ازال البيض الايسر من ١٧٥ من اناث العصافير وهو البيض الوحيد فيها ، لان البيض الايمن يضمر ويهزل. فلما ازيل البيض الايسر اشتدّ البيض الايمن ولكنهُ تحوّل خصيةً بدلاً من ان يبقى مبيضاً . اي ان هذا البيض الذي اصله غدة تناسلية انثوية ، تحول بعد ازالة البيض الايسر الى غدة جنسية ذكرية . وقد افرزت هذه الغدد لطناً للتلاقح . ومن الامور المشهورة ان انقلاب جنس الحيوان لدى فقد غدته يقع في الطبيعة من دون وساطة الانسان . فالحيوان المعروف بالسنديل الذكر اذا جاع بضعة شهور متوالية ، ضمرت غدتهُ الجنسية . فاذا وجد طعاماً بعد ذلك عادت الى النمو ولكنها تنقلب غدة انثوية . والدجاج يقع له ما هو شبيه بذلك اذا اصيب بالتدرّن

ومن غرائب ما يذكر في هذا الصدد ان الصفات التناسلية في فتاة تحوّلت من صفات انثوية الى صفات ذكرية على اثر ظهور خرّاج جعل مفرزات غددها الصمّ اكثر مما هي عادةً . وكان الدكتور آبل العلامة الاميركي وأحد اساتذة جامعة جونز هبكنز يعالجها فشهد بأن كل صفاتها الجنسية الثانوية الجسمية والنفسية كانت صفات ذكور . وقد عادت الى انوثتها على اثر عملية استؤصل فيها الخرّاج وارتدت الغدد الى حالتها السويّة

***

من الحيوانات التي تجرب بها هذه التجاوب حيوان السمندل وهو في موطنه الاصلي حيوان مائي يتنفس بخياشيم ويتصف في خلال ادوار حياته جميعها بصفات الحيوانات البحرية ولكنهُ اذا نقل الى مواطن اخرى معيّنة ، او اذا قُضي عليهِ في دور معيّن من تحوّله ان يعيش في الهواء او اذا غذّي بقطعة من نسيج الغدة الدرقية ، تحوّل الحيوان المائي الى حيوان برّي . ثم اذا غذي بقطعة من القمس الخلفي في الغدة النخامية ضخمت جثتهُ حتى ليصبح جرمها ضعف جرمها الاصلي اذ يقتصر في غذائهِ على طعامهِ المألوف . وقد وصل الباحثون الى النتيجة نفسها في الجرذان اذ حقنت بخلاصة الغدة النخامية

***

ويستطيع الباحث العلمي ان يربي سمكة ذات عين واحدة مع انها في الطبيعة ذات عينين باضافة احد المخدرات او احد املاح المغنيزيوم الى الماء الذي يقفس فيهِ بيض السمك

بل يستطيع الانسان ان يتدخل في دور معين من ادوار حياة دودة من الديدان ويتغير احوال البيئة يقرّر اي طرفٍ من طرفي الدود يكون رأسها واي طرف يكون ذنبها . ولا تقل عجائبهم في تغيير الوان الحيوانات عمّا تقدّم . فالدجاج الابيض الريش يحوّل الى دجاج اسود الريش

***

من المتعذّر الآن تطبيق هذه الحقائق على النوع الانساني وخصوصاً فيما يرتبط بالتناسل لان تجربة التجارب التناسلية بالانسان امر تعافهُ نفوسنا ولكن اذا تقدّم البحث في الوسائل الاخرى القائمة على احداث تغيير في الكائن الحيّ بتغيير احوال بيئتهِ في ادوار معيّنة من تحوّله وبوجه خاص فيما يتعلق بالغدد الصمّ فلا يبعد ان يصبح علماء الحياة عاملاً من عوامل الطبيعة في انشاء الانسان على أعلى مثال يتصورونهُ

الواحة المنسية

لحسن كامل الصيرفي

في ذِمَّةِ الفنِّ ألحانٌ تضيعُ ، وفي أعماقِها بَضَعٌ من قلبِ فنّانِ
تجرَّعَ الألمَ الدامي فحوَّلَهُ الى ترانيمَ عشّاقٍ والحانِ
يُستقى العذابَ ويَسقي الناسَ أكؤسهم مَسْرورةً من السُّورِ في ظلماءِ أشجانِ
مدامعُ الأنجمِ الحيرَى تشاركهُ تَسَلْسُلَ الدمعِ في أجفانِ حيرانِ
وظلمةُ الليلِ تستوحي كآبتَهُ همسَ السكونِ بإفصاحٍ وتبيانِ
ومطلعُ الفجرِ يسترحي ابتسامتَهُ نورَ الملائكِ في إشراقِ إنسانِ
أنَّاتُهُ من طِعانِ الدهرِ صادرةٌ وجُرْحُهُ من شظايا العالمِ الجاني
تضمّدُ الجُرْحَ كفّاهُ ويسترهُ بواضحٍ من ثنايا الثغرِ فتّانِ
فيهِ معانٍ ابتسامٍ وهي سخريةٌ بعالمٍ دائرٍ في كفِّ شيطانِ
يعيشُ في الأرضِ مأخوذاً بعالمِهِ ويهجرُ الأرضَ هيمانَ بأكوانِ
يبدو خلالَ ظلامِ الناسِ مؤتلقاً نورَ الخلودِ بهذا الكوكبِ الفاني
كواحةٍ ازهرت في القفرِ تائهةٍ عن الحضارةِ في أكنافِ نسيانِ
في ذِمَّةِ الفنِّ ما ردّدتهُ لمداً فضاعَ لحنيَ صَدًى في جَوِّ نكرانِ
طغى عليهِ ضجيجُ القومِ فالتطمتْ أصداؤهُ وفؤادي طيَّ ألحاني

فلسفة التحليل النفسي[1]

النفس لغز والتحليل النفسي مفتاحه

اخرج العلامة فرويد نظرية التحليل النفسي Psycho-analysis وطريقة تطبيقها من نحو ثلاثين سنة . واقترح علاجاً نفسيًّا لطائفة من الامراض العصبية . ولكن هذه النظرية على ما فتحتهُ من ابواب الامل في تمهيد سبل جديدة لكشف خفايا النفس ، خيّبت نظر النقاد الذين يحق لهم ان يحكموا في موضوعها ، وهي اليوم معرضة للاهمال بتهمة انها افتراض نظري ليس لهُ أساس علميٌّ سليم يستند اليهِ . بل يقولون انها تجربة خطرة كلَّ الخطر ، وان الشفاء الذي تمَّ بواسطة التحليل النفسي في الامراض العصبية ، لم يحقق من الوجهة الاحصائية ولا من وجهة الدليل السريريّ Clinical على انهُ قد تمَّ حقيقة ولا ما هي نسبة ما تمَّ منهُ الى ما لم يتمَّ

يضاف الى ذلك ان متخرجي مدرسة فرويد في التحليل النفسي الذين احرزوا الشهادة التي تخوّلهم ممارستهُ يعوزهم التعليم الطبي والمرانة ، اللذان يمكّنانهم من فهم الاضطرابات العصبية ، دع عنك تشخيصها ومعالجتها . ثم ان السماح لرجال لم يتعلموا التعليم الطبي في معالجة الادواء الجسدية والعقلية ، عرضة للمساوىء والمفاسد والتدجيل ، وهو خطر على الصحة العامة . وكثير من الاطباء الذين بحثوا في حسنات التحليل النفسي وامتحنوها يرون ان ما يدعيه رجال هذه المدرسة النفسية ، مغالىً فيهِ شديد المغالاة

ان منشأ النظرية الفرويدية هو ان الاضطرابات النفسية — من عقلية وعاطفية — والاضطرابات الجسدية كذلك ، تنشأ في كثير الاحوال ، من اسباب نفسية لا من اسباب جسدية . فقد كشف فرويد وهو يبحث ويجرّب التجارب بالتنويم المغناطيسي في عيادة الدكتور شاركو Charcot بباريس ان المرضى المصابين بالهستيريا ، اذا نوموا بفعل التنويم المغناطيسي ، كشفوا احياناً من تلقاء نفوسهم ، عن طبيعة اصابتهم واسبابها . ولما كان فرويد نفسهُ غير بارع في شؤون التنويم المغناطيسي ، شرع يحاول ان يكشف عن طرق ووسائل اخرى ، لينفذ بها الى العقل الباطن . وكان يعتقد انهُ يستطيع ان يشفي مصاباً من هذا القبيل بنقل سبب العلة من العقل غير الواعي الى العقل الواعي . لانهُ اذا ادرك المصاب طبيعة اصابتهِ واسبابها ، زال اولاً خوفهُ وقلقهُ واضطرابهُ ، فيزول النزاع بين الذات الواعية ، والذات غير الواعية وتنتصر الاولى على الثانية فتتم لمصابنا نعمة الشفاء . وقد اطلق على مجموعة الافكار المشتركة التي تسبب الداء او الاضطراب ، بالمركّب او العقدة . وهما تفيدان فيهما معنىً من معاني

(١) للدكتور فوكس من البسيحتك اميركان بتصرف قليل

اللفظ الاصلي Complex . وبعد بحث تجريبي في مصابين بالهستيريا وشديدي توتر الاعصاب، صرّح ان المركبات الباعثة على هذه الامراض العصبية سببها رغائب جنسية غير تامة النضوج، مكبوتة لا تبدو في مظهرها الطبيعي ، وان هذه الرغائب انفصلت عن تيار الوعي ، فالّفت شخصية او ذاتاً مستقلة عن ذات الانسان العامة ،وان هذه الذات المستقلة في حالة ثورة عنيفة على الذات العادية. وفرويد يعلق شأناً خطيراً على الرغائب الجنسية ويذهب الى ان الرغبة الجنسية التي يدعوها «ليبيدو Libido » هي اساس لكل مطامح الانسان. ثم هو يدعي ان هذه الحالة — اي حالة النزاع بين الذات المستقلة والذات العامة — يمكن ان تشفى ، بربط الذات الثائرة بالذات العامة ، ثم اعفاء الرغائب غير الواعية ، بتحويلها الى ناحية جديدة . ويعرف هذا العمل بالتحويل Transference فاذا قامت عقبة تحول دون تحويل الرغائب ، الى ناحية جديدة كانت العقبة بمثابة المقاومة في علم الكهربائية ، وكان لا بدّ من المثابرة والمحاولة والمداورة في محاولة تخطيها او التغلب عليها

يفتح التحليل طريقين الى درس العقل الباطن او النفس غير الواعية، طريق مجموعة الافكار المشتركة اشتراكاً حرّاً، وطريق تفسير الاحلام

والتنفيس عن الرغائب المكبوتة بطريقة اشتراك الافكار يعرف باسم «كاثاريس» Cathari: اي التطهير او التنصيف من اللفظ اليوناني كاثاروس اي نظف . والمقصود باشتراك الأفكار الحرّ، ما يأتي : ان تداعي الافكار Association of ideas عمل من أعمال الذاكرة. فلا نستطيع ان نذكر شيئاً الاّ ونربطه بشيء آخر او نقابلهُ به . ومعرفة كل انسان هي كل الحقائق التي يستطيع ان يذكرها مضافاً اليها الحقائق التي نسيها او لا يستطيع ان يتذكرها . فاذا حاول الانسان ان يجعل تداعي افكاره ، شعورياً اي خاضعاً لارادته : حاول ان يتذكر حقيقةً مخزونة في الذاكرة ، يربطها بحقيقة اخرى يسهل تذكرها . وفي هذا اللون من التفكير ، يكون توجيه الفكر ، شعورياً ومقصوداً ومسيطراً عليه

ونحن نعلم ان الأفكار والصور الذهنية واحلام اليقظة ، تطفو احياناً على تيار الوعي او الشعور ، من دون ان يبذل اي جهد خاص في ذلك . فاذا استوقفنا هذه الافكار والصور الشاردة ، لحظة من الزمان ، اكتشفنا ان كل فكر وكل صورة ذهنية، طفت على تيار الوعي من دون قصد منا ؛ هو في نفسه، او هي في نفسها،مسلك الى مخبوء من مخابىء العقل الباطن؛ فهي اذاً تلقي ضوءاً كشافاً على النواحي المظلمة من ذهن الانسان ، المنفصلة عن الذاكرة ، او المجهولة من الذات الشاعرة. وهذا هو المقصود، في مدرسة فرويد، باشتراك الافكار اشتراكاً حرّاً Free association ذلك ان غرضهُ استكشاف العقل الباطن بواسطة سلسلة حلقاتها الافكار الطافية على تيار الشعور ، ومعرفة صلتها بخفايا العقل الباطن

وتحليل النفس عمل لا يتعلمهُ الانسان تعلماً ، لانهُ عمل ذهنيّ طبيعي . فيشرع الانسان في استكشاف نفسهِ في مراحل سهلة الاجتياز . فيدوّن الحقائق المتفرقة التي يكشفها ثم يربط بينها ثم ينشئ منها صورة منسجمة الاجزاء ، تبين لهُ نشأة احوالهِ العاطفية وتاريخها . فالافكار الشاردة والصور الذهنية الطافية من دون ارادة او قصد على تيار الوعي ، واحلام اليقظة ، هي كلها كاحلام النوم ، فيض العقل الباطن الذي يعرب عن رغبة كامنة في الباطن او شعور او اضطراب داخلي . وكل صورة منها ، ككل جزو من الاحلام ، انما هي لفظ من اللغة الرمزية التي يتكلم بها العقل الباطن . وهي تختلف عن لغة العقل الواعي . فالشعور بالبرد ، يوقظ في العقل الواعي انواعاً من الفكر ، تأتلف وهذا الشعور ، مثل « فصل السنة » و « الملابس » و « الاماكن الباردة » و « الوسائل اللازمة لاتقاء البرد » . اما في الحلم — حلم النوم — فالحلم يجيء اولاً ثم يليهِ الشعور بالبرد . خذ مثلاً على ذلك ، رجلاً يأوي الى سريرهِ في غرفة باردة ، وفراش غير دافيء ، فيحلم انهُ متقطع عن العالم على جبل من جبال الجليد . والشعور بالخطر يوقظ النائم ، فيحملهُ شعورهُ بالبرد ، على البحث عن دثار يتدثر بهِ ليدفأ . ولكل انسان لغتهُ الرمزية الخاصة بهِ . ولا يتشابه اثنان . فمحاولة تفسير احلام الواحد برموز الآخر ، عمل لا بدَّ ان يفضي الى الخطاء . من هنا نرى ان محاولة رجل ان يقوم بتحليل نفسي دقيق لرجل آخر ، عمل متعذر . فالمختص بالتحليل النفسي يستطيع ان يرشد لا ان يعلم . انهُ لا يستطيع ان يهضم اكل غيره ، ولا ان يحلل نفس غيره . وثمة طرائق عديدة لتحليل النفس وكلها تبدأ بترك العقل الباطن يفيض بما يختلج فيهِ من المشاعر والافكار ، ويلي ذلك توجيه محبة الشخص الجنسية الى شخص معيّن . وهذه الناحية من التحليل النفسي ، هي الناحية التي يندّد بها رجال الدين وجماعة المدافعين عن آداب النفس ، لان المحللين النفسيين ، يوجهون هذه المحبة في الغالب الى اشخاصهم . والامر الذي لم يفهم بعد على صحتهِ ، هو هل يتمّ الشفاء باستكشاف العقل الباطن ، او باشباع المحبة الجنسية في شخص المحلّل النفسيّ ، او بكليهما ؟ !

واذن يرى القارىء ان هذه الدعاوى ، ليست على جانب من الدقة العلمية ، او الاخلاص ، او الادب . اذا كان التحليل النفسي يشفي ، فكيف يشفي ؟ اننا نعلم ان العواطف المضطربة تحدث اضطراباً وقلقاً في وظائف الجسم والعقل ، وان معظم هذه الاضطرابات ينشأ في العقل غير الواعي . والاعراض غامضة ، معظمها من نوع المخاوف الموهومة ، والنزاع الداخلي ، وكبت الشعور ، وشدة الاحساس ، والرغبات النابية ، والحب ، والخجل في الصلات الاجتماعية والعجز عن صبّ الفكر وتوجيههِ الى موضوع واحد

والمصاب يكون في الغالب ، كثير الاضطراب والهمّ ، لا يستطيع ان يصمد للصدمات التي تنتابهُ ولا ان يحتمل ما في الحياة من اخذ وردّ ، ومدّ وجزر . فهو كئيبٌ دائماً ، متجه

الى نفسه ، اقل شيء يحيّره ويقلقهُ . فاذا كانت الحادثة حادةً ، اصيب بالارق وضعف الشهية وانخفاض ضغط الدم وخفقان القلب واضطراب الغدد والهستيريا والعجز الجنسي والتوق الى تناول المخدرات وضعف النطق او اضطرابهُ وغيرها من الاعراض التي يسفر عنها اضطراب الجهاز العصبي . واسباب هذه الاضطرابات او مبعثها رغائب مكبوتة او محبوسة في العقل الباطن ، تنشىء نزاعاً او تناحراً بين اجزاء الشخصية الواحدة . اي ان الذات الباطنة تكون في حالة ثورة فتتفكك وحدة الذات العقلية والجسدية ، في آنٍ واحد

والشفاء من هذه الحالة ، الباعثة على التعس والشقاء، مشكلة صعبة شديدة التعقيد . ويجب الاقبال على حلّها في حوادة وحذر . فالغرض من كل علاج من هذا القبيل ، يجب ان يكون القضاء على التناحر الداخلي ، واطلاق العواطف المحبوسة المكبوتة، واستنباط الوسائل لتبديلة الرغبات غير المشبعة او تحويلها او تسكينها . وقد ذكرنا ان « الجرح » النفسي هو في العقل الباطن . واذاً فيجب ان يمدَّ رواق العقل الواعي الى ما وراء حدوده العادية ، حتى يضمّ تلك الاجزاء التي كانت مستقلة في العقل الباطن فيدمجها في وحدته الشاعرة . وهذه الخطوة هي الاولى نحو العلاج ، ويمكن خطوها بواسطة التنويم المغناطيسي ، واشتراك الافكار بالمعنى المقصود في مدرسة التحليل النفسي ، او حلّ رموز اللغة التي تتكلم بها النفس غير الواعية في اليقظة او في النوم. فاذا اكتشف المعالج الباعث الاساسي على حالته ، وفهم طبيعة الاضطرابات التي اصيب بها ، روّح ذلك عنهُ ، وحدَّ من الشك الملازم لمخاوفهِ ، فيعود اليهِ جانبٌ من ايمانهِ وثقته بنفسه . ويستيقظ الامل في صدره وما يسير مع الامل من حماسة تمكنهُ من السير نحو الشفاء التام بفضل الاستهواء الذاتي . واذ يشرع المصاب في معالجة نفسهِ ، يجب ان يتمرّن على تحليل النفس ، بتدوين العواطف والمخاوف والرغائب والنواهي والكوابح ، وما يحب وما يكره ، التي تطفو على تيار وعيهِ . ويفضَّل ان يختار غرفة هادئة حيث لا يقلقهُ قلق ، فيدوّن في ورقة امامهُ الاعراض والمخاوف والرغبات . فيأخذ مثلاً رغبة من الرغبات، ويرى ما يتصل بها من الصور الذهنية ، المتسلسلة في نفسه تسلسلاً حرًّا ، فيدوّن كل حلقة من حلقاتها . وقد يلتي تتابع هذه الصور احياناً ما يعيقهُ وما يقطعهُ بلفظة او صورة او فكرة . فليدوّن ذلك وليضع تحتهُ خطًّا احمر ؛ لان ما يقطع تسلسل الصور الذهنية، يشير الى الموانع او الكوابح في الحياة العقلية، اي ما يكبح النفس او يمنعها من الاستسلام الى رغبة من رغباتها

فاذا والى المصاب ذلك ساعة كل يوم مدة ثلاثة اسابيع اجتمعت لديهِ الحقائق الاساسية عن اعماق تلك الذات الباطنة، التي بينها وبين الذات العامة نزاع او تناحر هو منشأ الاضطراب. فاذا اتسعت معرفته بتلك الذات الخفية ، عادت اليهِ ثقتهُ في نفسهِ ؛ الناشئة عن المعرفة ؛ والثقة تجر في اثرها القدرة والسيطرة على النفس . وهذه اول مرتبة من مراتب الشفاء

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

للدكتور محمد مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

— ٢ —

استعرضت في المقال السابق[1] بعض نماذج عامة لمصطلحات علم النفس الانكليزية تبين للقارىء باجلى وضوح مبلغ ما يجده الاساتذة المصريون من الصعوبة في نقل هذه المصطلحات الى العربية اذا اعتمدوا على الاستعمال العادي وقواميس اللغة وموسوعاتها ، وكيف انهُ اصبح يتعذر وضع الفاظ لها تؤدي المعنى العلمي المقصود وتحدده تحديداً لا لبس فيهِ ولا غموض اذا لم نتتبع المعاني المختلفة التي خلعت على كل مصطلح في مختلف ادواره الفلسفية والسيكولوجية وآراء العلماء الذين وضعوها ان كانت حديثة والمذاهب التي تذهب اليها المدارس السيكولوجية المختلفة في تفسيرها واستخدامها . ولا استطيع ان افعل خيراً من ان اذكر ما قاله احد اساتذة علم النفس الاجلاء عند وضعه اول كتاب علمي في هذا الموضوع . « والله وحده يعلم ما كابدته من المشاق والاتعاب في تأليف هذا الكتاب وتحصيل معانيه . تارةً من اللغة الاجنبية وتارات من الاسفار العربية والتقاط الفاظه كلمة كلمة من كتب شتى . وما بذلتهُ من الجهد في وضع عباراته وسبكها بقدر ما في الامكان على ابسط صورة الخ » (كتاب علم النفس للمرحوم الشيخ محمد شريف سليم سنة ١٩١١ : ص ل مقدمة) وفي ص ١٠ « هذا وقد اعتبرنا في توضيح معاني هذه الكلمات مفاهيمها العامة الجارية على ألسنة العالم » وتواضع الاستاذان علي الجارم ومصطفى امين فقالا في مقدمة كتابهما (علم النفس وآثاره في التربية والتعليم) « وقد حافظنا على ما وضعهُ رجال العربية قبلنا من اصطلاحات العلم واوضاعه . اعترافاً بسبقهم وحبًّا في اتصال عملنا باعمالهم . ولكيلا يضيع الخلاف اللفظي شيئاً من وقت الباحث او يكون سبباً في اختلاط الامر عليهِ » . وعلى الرغم من ضيق دائرة علم النفس الذي يدرّس في مصر واقتصاره على علم النفس التعليمي لطلبة المعلمين والمعلمات وسهولة مصطلحات هذا الفرع وانتشارها فقد شعر الاساتذة الاجلاء المرحوم الشيخ شريف والاستاذ علي الجارم ومصطفى امين وامين مرسي قنديل الذين يرجع اليهم كل الفضل في ادخال علم النفس في مصر ونقله الى العربية وبذل الجهود

(١) راجع مقتطف اكتوبر ١٩٣٣

لجبارة في سبيل كشف مغلقه ونشره بين الناس ومن قبل على أرقم امثال الاساتذة حسنين عبد لرازق وحامد عبد القادر وعطية الابراشي وكامل هذه السطور في مصر وغيرهم في الشام والعراق كل هؤلاء لا اخالهم الا شاعرين بشدة حاجة المشتغلين بهذا العمل الى ضبط مصطلحاته وتعميمها قبل ان يترى سيل فروع علم النفس الاخرى عن طريق معهد التربية وكلية الحقوق وتتشعب المصطلحات ويتعذر الاتفاق

وسأذكر للقارىء بعض نماذج الترجمات العربية لأهم مصطلحات علم النفس التعليمي واكثرها استعمالاً مخيرتها من الكتب العربية الآتية التي ما زالت تستخدم كمراجع وكتب مدرسية في مدارس المعلمين والمعلمات وكليات الازهر ومعهد التربية

(١) علم النفس المرحوم الشيخ محمد شريف سليم
(٢) علم النفس وأثره في التربية والتعليم للاستاذين علي الجارم ومصطفى امين
(٣) اصول علم النفس للاستاذ امين مرسي قنديل — جزءان
(٤) في علم النفس — الجزء الاول — للاساتذة حامد عبد القادر وعطية الابراشي ومظهر سعيد
(٥) « « — « الثاني — للاستاذين « « « « «

وسأتناول علم النفس موضوعاً موضوعاً متدرجاً من الشعور ومظاهره الى الاحساس فالادراك وانواعه فالعمليات العقلية والغرائز

موضوع الشعور

أول مظهر من مظاهر الحياة العقلية وأقوى دليل على وجودها شعور الكائن بذاته ونفسه وما حواليه من اشياء وما يقوم به من افعال او على حد قول فلاسفة المسلمين « شعور الانسان بذاته وما يصدر عن هذه الذات وما هو خارج عنها » وبعبارة اخرى ادراكه لنفسه وما يظهر في ذهنه وما يشعر به في داخله وما يحيط به وافعاله التي يرمي بها الى غرض خاص وغير ذلك مما يحقق قول الفيلسوف ديكارت المأثور (أنا ادرك او افكر فأنا موجود Cogito ergo sum)

وقد يتدرج هذا الشعور من مجرد شعور الانسان بشيء يؤثر في حاسة من حواسه شعوراً غامضاً غير محدود يدرك به ان هناك شيئاً ولكن لا يستطيع ان يميزه ، الى شعور كامل بذلك الشيء وادراك لمميزاته وظروفه وأحواله يصل الى ما يسميه الفيلسوف الالماني (كانت) بالمعرفة . واللفظ الذي يتضمن كل هذا المعنى هو بالانكليزية Consciousness ومثله بالفرنسية Conscience . وقد اتفق المؤلفون على ترجمته بالشعور ولم يشذ عن هذا غير الاستاذ الابراشي فقد سماه في بعض الاحوال بالوعي (ص ٣١ . حالة الوعي واليقظة اي الشعور) ولكنهم اختلفوا في تعريفهم له فقد عرّفه المرحوم الشيخ شريف (ص ٨١) بتعرف النفس على نفسها وهي متلبسة بحال من أحوالها فهو الادراك العام للنفس وهو بذلك اخرج ادراك النفس

لغيرها وما تقوم به من افعال ليست في ذاتها من حالات النفس وقال الاستاذ الجارم (ص ٤١) معرفة الانسان ما يجري في نفسه من الوجدان والفكر والارادة

واتفقوا كذلك على ترجمة Focus (النقطة التي يتجمع او يتركز فيها الشعور) بالبؤرة و Margin (ما يخرج عن المركز ولكنهُ في مجال الشعور على كل حال) بالهامش نقلاً عن علم الضوء والشعور الناقص او الهامش Subconsciousness يشبه الشعور ما عدا الاستاذ عبد الرازق (ص ٢) فقد سماه الشعور الضعيف وهذه الترجمة في الواقع لا غبار عليها لولا انها تختلط بمعنى Anoetic consciousness وهي كلمة جديدة لم ترد بعد في الكتب العربية وضعها العلامة الانكليزي ستاوت للدلالة على الشعور الغامض الضعيف غير المحدود

وترجموا الشعور الباطن (Unconsciousness) الذي هو مظهر الحياة العقلية للعقل الباطن في النوم والسرحان باللاشعور وكنا نرجو ان لا تترجم هذه الكلمة حرفيًّا حتى نصلح عيب الكلمة الاوروبية التي يفهم منها الطلاب والمبتدئون حالة عدم الشعور او فقدانه (non—consciousness) في حالة الموت والتخدير والاغماء. اما الابراشي فقد ترجمها باللاوعي قياساً على ترجمته الشعور بالوعي

والشعور مظاهر سماها الأقدمون knowing, affection, volition او Will فترجمها من نقل عنهم بالمعرفة او الفكر والوجدان والارادة (الجارم ٤١)

ورأى المحدثون ما في التسمية من خطأ فظيع اذ ليس كل ادراك معرفة او فكر وليس كل عمل يقوم به الانسان بأرادة فسموها cognition و affection و conation فترجمها من نقل عنهم الادراك والوجدان والنزوع (ما عدا عبد الرازق فقد احتفظ للادراك بلفظه القديم وهو المعرفة وذكره كذلك هكذا ص ٢٨—مظهر المعرفة Cognition) وترجمها الشيخ شريف تارة معرفة وادراكاً وتارة علماً. ففي ص ٤٢ مثلاً يقول (الغرائز يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور فهي غير مشعور بها) والعلم فوق الادراك والمعرفة بمراحل

وفي حين ان بعضهم اخذ باللفظة الحديثة Affection الا انهم ادخلوا تحت مظهر الوجدان ما لم يقل به المحدثون فأدخل الجارم (ص ٤٧) الجوع والعطش وهما أمران عضويان فسيولوجيان وعرَّف الاستاذ قنديل الوجدان (ص ٥٠) بما نجده في نفسك من لذة وألم. من غير ان يفرق بين اللذة والألم المعنويين وهما آخر مراتب الارتياح وعدم الارتياح واللذة والألم المادين وهما عضويّان

موضوع الاحساس

كلمة Sensation الانكليزية والفرنسية بالمعنى السيكولوجي المحدود ومشتقاتها يقصد بها العملية الفيزيقية الفسيولوجية التي تستقبل بها الحواس آثار المؤثرات الخارجية كما هي وترسلها

عن طريق الاعصاب المرسلة او المصدرة الى المناطق الخاصة بالتصرف فيها في مراكز الجهاز العصبي. ولاشيء غير هذا المعنى مطلقاً. وقد اتفقوا على ترجمتها بالاحساس ولكنهم عند تفسير معناها ادخلوا تحتها عمليات عقلية ومظاهر شعورية ليست من الاحساس في شيء حتى انه ليصعب على الطالب والقارىء ان يفهم المعنى المحدود والفارق بين الاحساس وبين العمليات العقلية والحالات النفسية الاخرى. فالشيخ شريف يقول (ص ٤٦) الاحساس قوة طبيعية اودعها الله في النفس تجد بها لذة وألماً في اشياء (وهذا هو الوجدان) وفي (ص ٤٩) الاحساسات أثرية تظهر آثارها على وجه الانسان (وهذه ايضاً وجدانات) وفي (ص ٥٠) القوة الحسية هي الاحساس الذي تسبب من حصول ظاهرة من ظواهر القوة الطبيعية كألم الجوع — وفي (ص ٣٣) الظواهر الانفعالية تدخل تحت القوة الاحساسية. والسرور والخوف المعنويان القوة الوجدانية وهي ارقى قوى الاحساس. لكأنه فرّق بين الاحساس والوجدان ولكنه اعتبرهما مراتب للاحساس. وسبب هذا الخلط ما وقع فيه علماء الغرب انفسهم في القرن الماضي من الخطإ في الخلط بين كلتي Feeling و Sensation. اما الاستاذ قنديل فقد ادخل في الاحساس عناصر الادراك الحسي ووضع كلمة الحس (ولا نعرف لها مقابلاً في الافرنجية للدلالة على كتلة مدركاتنا الحسية وخبراتنا السابقة (Apperceiving mass) فيقول فيه (ص ٧ الجزء الثاني) الاحساس والادراك الحسي يكوّنان معاً كل خبراتنا الحسية او الحس

ونظرة واحدة الى تقسيم الاستاذ Watt لمظاهر الشعور في كتابه[1] وهو حجة في موضوع الاحساس تبين لنا وجوب فصل الاحساس والمظاهر الادراكية الحسية عن المظاهر الوجدانية

I Sensory – Cognitive System includes all Sensations

II Emotive System includes all non — sensory feelings, pleasure, displeasure & all emotions.

اما في تقسيم الحواس والاحساسات وترجمتها فقد اتبعوا اساساً لا يتفق الى حد ما مع الاساس المعمول به الآن في علم النفس الحديث والذي يجب ان يكون في ذاته دليلاً للترجمة فالاحساسات تنقسم الى اربعة اقسام رئيسية هي

I Exteroceptive (outer)	وتشمل الالم العضوي والحرارة كمؤثر خارجي
II Preperoceptive (inner)	كالنطق والاحساس العضلي
III Interoceptive (inner)	كالاحساس بالجوع والعطش
IV Exteroceptive complex	كالسمع والبصر

المراجع

(1) H. J. Watt "The Sensory Basis or Structure of Knowledge"
(2) Sir Percival "The Psychology of Perception"
(3) Haliburton "A Handbook of Physiology"

(1) The Sensory Basis or Structure of Knowledge

وقد اقتصر معظم المؤلفين على ذكر الحواس الخمس الرئيسية السمع والبصر الخ واضاف الاستاذ حامد عبد القادر (ص ٤٩ الجزء الثاني) المعدة فقال (عدد الحواس عند القدماء خمسة ... واضاف المحدثون المعدة) وذكر (ص ٤٨) الحس الخارجي (للاحساسات الجلدية) والباطني (للالم والسرور) والموضعي والحركي وذكرهما الاستاذ قنديل (ص ١٢ الجزء الثاني) كما يأتي

احساسات عضوية كالتنفس والدورة الدموية (ومنها الحشوية كالقلب والرئتين) ثم الحركية فالجلدية فالشمية والسمعية الخ

اما الاشياء المحسوسة ذاتها فقد سميت تارة بالمحسوسات (شريف ص٢٧) وتارة بالمحسات (شريف ص ٥٥) وهذه على كل حال ليس لها مقابل بالانكليزية بكلمة مجموعة Percept (للمدرك الحسي) و Concept (للمدرك الكلي) ولذلك اقترحنا ان تضاف كلمة Sencept (للمحسوس) اما كلمة Stout الجديدة Sensum التي تدل على مجموع الآثار الحسية التي تحل في العقل محل المؤثر الاصلي فيدركه العقل على مقتضاه ، فلم ترد بعد في المؤلفات العربية

موضوع الادراك الحسي

ذكرنا ان العقل في مرتبة الاحساس يستقبل الآثار الصادرة عن المؤثرات الخارجية ولكن لا يكون لهذه الآثار قيمة عقلية او شأن في الحياة العقلية الا اذا اعطاها العقل معنى محدوداً يربط هذا الموقف الحاضر بمواقف سابقة عن طريق التداعي والتذكر والاسترجاع والتعرف وغير ذلك من العمليات التي تساعدنا على ادراك المواقف الخارجية اي انه (كما يقول ساندفورد) يقوم بعملية التعبير عن الاحساسات وترجمتها بطريقة تشعرنا بوجود المحسوسات التي هي مصدر هذه الاحساسات (راجع كتاب علم النفس — النظري والتعليمي لكاتب هذه السطور) . وهذه العملية تعرف في الافرنجية بكلمة Perception وجمهرة الاساتذة تميل الى ترجمة هذا المصطلح بـ « الادراك الحسي » ولكنهم في مواطن كثيرة استخدموا له مرادفات تجعل المعنى غامضاً بعض الغموض . فالشيخ شريف سماه الادراك الذهني (ص ٣) والحسي (ص ٢٥) والانساني (ص ٦٩) وكذلك ذكر له مراتب لا نجد لها مثيلاً في الافرنجية الحديثة الى ادراك اولي (ص ٧٥) وهو ادراك الموجودات الخارجية والتمييز بينها وهذا بدوره ينقسم الى ادراك اولي حسي (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد الحس بها وادراك اولي وجداني (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد وجدانها (كذا) ثم ادراك اولي عقلي (ص ١١١) وهو معرفة المعاني العامة الضرورية البالغة الغاية في الوضوح ومن ناحية اخرى قسمه (ص ٩٨) الى ادراك طبيعي من طبيعة الحواس نفسها وكسبي بعد تمرين الحواس واشراك بعضها مع بعض . وفي بعض المواضع اعتبر الادراك من عمل الحواس

فقال (ص ٢٥) النظر ان يدرك كنه الاشياء . واشياء يستحيل ادراكها بالحس . والجارم (ص ٧٩) ذكر ولوع الطفل باحساس الشيء (اي ادراكه ادراكاً حسيًّا)

ولا يتعين في الادراك الحسي ان يعرف الانسان حقيقة ما يحس به ولو أنهُ يدركه ومن باب اولى لا يعلم بهِ علماً تامًّا فكثيراً ما يخطىء الادراك وتخدع الحواس ومع هذا يقول الاستاذ حامد (ص ٧٠ جزء ٢) الادراك الحسي يتضمن العلم بوجود شيء وفي (ص ٧٩) وظيفة الادراك الحسي هي ان تكون على علم تام بما هو واقع فهو العلم بالواقع وفي موضع آخر يشير الى بعض الادراكات الحسية (ص ١٣٦ جزء ٢) بأننا لا نشعر بهذه الاحساسات شعوراً محدوداً واضحاً وفي (ص ١٣٧) ومهما يكن من أمر هذه الاحساسات فانها غامضة يشعر بها عنصر وجداني يتغلب على العنصر الادراكي وهذا مناقض للتعريف الذي ينص على تمام العلم بالواقع عند الادراك الحسي . وأنا أرى ان ترجمة Perception بالادراك الحسي يجعل الحس صفة للادراك في حين ان التصور هو ادراك العقل لما يحس بهِ فالحس صفة للمدركات وليس للادراك ولذلك ارتاح الى ترجمتها «بادراك المحسوسات» . أما المدركات ذاتها Percepts فأفضل ترجمة لها المدركات الحسية تمييزاً لها عن المحسوسات التي لم تدرك بعد وسماها حامد (ص ١٣٦ — ٢) بالادراكات الحسية ولعله يقصد انواع الادراك من حيث تعدد المدركات ففي (ص ١٠٠ — ٢) يقول تنقسم الادراكات الى عليا ودنيا . فالعليا هي الابصار والسمع الخ والمعنى غامض على كل حال لان السمع والابصار ليسا ادراكات ولا مدركات وانما هما احساس

وبعد ادراك المحسوسات ترتبط هذه المعلومات الجديدة بما يماثلها في كتلة معلوماتنا القديمة حتى تصير منها وتسمى هذه العملية Apperception ولم يشر اليها واحد من المؤلفين الا الاستاذ حامد (ص ١٩٨ — ٢) فقد ترجمها الترابط وترجم Correlation وهي عملية ادراك العلاقات بين المواقف (على حد رأي العلامة الانكليزي Spearman) بالترابط وهما عمليتان مختلفان ولكنهُ عاد فترجم Appreciving mass بالكتل الربطية (يقصد الترابطية) وانا أميل الى ترجمة عملية Apperception بتثبيت المدركات الحسية للاسباب التي ذكرتها في المقال السابق

فاذا ازدادت المدركات الحسية المتشابهة في الذهن عمد العقل الى الاقتصاد في عملياته الادراكية فيجرد هذه المدركات من صفاتها العرضية وميزاتها الحسية وينتزع الصفات الجوهرية ويضع منها معنىً كليًّا يعممه على كل انواع هذه المدركات المتشابهة او المترابطة وتعرف هذه العملية في علم النفس والمنطق بكلمة Conception والمدرك الكلي Concept وقد ترجموها بادراك الكليات وتارة المعقوليات والمفهوميات واضاف حامد (ص ٢٥—٢) ادراك الكلي المعنوي وكذلك اضاف الى عمليات الادراك الثلاث السابقة او مستويات الادراك ما سماه (ص ٢٥ — ٢) المستوى الفلسفي

المطبوعات لاتقلّ نسبتها الآن عنها في ايام الحكومات القيصرية . فهي ثمانية اضعاف ما كانت عليه قبل الثورة . فتجد في ڤائمة المطبوعات الادبية آثار الروائيين الروس القدماء والمحدثين على السواء محاذية لآثار الروائيين الانكليز والاميركيين والالمان والفرنسيين وقد ترجمت كلها وطبع منها ألوف بل عشرات الالوف من النسخ . وقد أعلن عن اخراج جميع مؤلفات فلوبير وبلزاك الفرنسيين في سنة ١٩٣٣ فليس من الصواب ان يقال ان الادب الروسي او الادب المطبوع في روسيا كلهُ ادب دعاية للنظام السوفيتي

ولعلّ الامر الذي يدهش لهُ الزائر عدد النسخ التي تطبع من كل كتاب. فيسترعي نظرهُ اولاً عدد الرسائل الصغيرة التي يطبع منها عشرات الالوف فيحسب ان الرقم ٦٠٠ الف نسخة — وهو عدد النسخ التي بيعت من الكتب والرسائل الجديدة من دار موسكو — رقم مضلّل لان معظم ما يباع انما هو هذه الرسائل القصيرة . ولكن اذا حسبت ان عدد النسخ التي بيعت ٦٠٠ مليون نسخة فيها نحو ٣٠٠٠ مليون ملزمة — وان الرسائل الصغيرة تتراوح بين نصف ملزمة او ربع ملزمة وملزمتين — ادركت ان لا بدّ ان يكون بين هذه الكتب مجلّدات ضخمة. والواقع ان مؤلفات ماركس وجوته وداروِن ولنين ، تطبع وتنشر في مجموعات كل مجموعة منها تختلف من ثمانية مجلدات او عشرة الى عشرين مجلداً . ومتوسط الطبعة الاولى من كل المطبوعات الجديدة في سنة ١٩٢٩ سواء اكانت كتباً او رسائل او مجموعات كتب ، كان ١٠٧٠٠ نسخة فبلغ سنة ١٩٣١ خمسة وعشرين الف نسخة . فاذا فرقنا بين مؤلفات العامة — كالرسائل والموجزات وكتب الاطفال — ومؤلفات الخاصة ، وجدنا ان متوسط الطبعة الاولى من الطائفة الاولى كانت ١٦٥٠٠ نسخة سنة ١٩٢٩ فبلغت ٥٤٠٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ اما مؤلفات الخاصة فكان متوسط طبعتها الاولى سنة ١٩٢٩ نحو ٤٠٠٠ نسخة فبلغت ١١٦٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ واما كتب الاطفال فليس من النادر ان تكون الطبعة الاولى ٢٠٠ الف نسخة

وكل كتاب ، كتبهُ ماركس او لنين ، قديماً كان او جديداً ، مطبوعاً من قبل او مخطوطاً يطبع منهُ ١٠٠ الف نسخة في البدء . وقد يهم علماء الاقتصاد في مصر ، بل في دول الغرب ، ان يعلموا ان كتاباً في الاقتصاد لعالم اقتصادي روسي غير مشهور في اوربا واميركا ، طبع منهُ في سنة ١٩٣٢ مائة الف نسخة وان رسالة علمية عويصة اخرجت في طبعة من خمسة آلاف نسخة ، وان العالم پاڤلوف لما اخرج كتابهُ الجديد في « الافعال العكسية المحوّلة » طبع منهُ في دار موسكو عشرين الف نسخة وجعل ثمنهُ نحو ٧٠ قرشاً فنفدت الطبعة كلها في الحال

بل هناك ما هو اغرب من ذلك وابعث على الدهشة . ففي سنة ١٩٣٢ اخرج اول جزء من دائرة معارف الفيلسوف مجلّ ، وهو كتاب عويص في المنطق وكان المطبوع منهُ ٥٠٠٠ نسخة فنفدت في خلال خمسة أيام ، فطبع منهُ ثانية عشرة آلاف نسخة نفدت في شهر فطبع

منهُ ثالثة ١٥ الف نسخة ويعد ثلاثة اشهر من صدورها جاءت الانباء بأن الطلب عليها ما زال متوالياً . والراجح انها تنفد قبل نهاية السنة

والظاهر مما تقدّم ان ما يطبع من هذه الكتب على كثرته لا يكفي لسدّ الطلب فلما قيل لمدير «الاوجيس» في ذلك قال مديرها انهُ لا يستطيع الحصول على المقدار الكافي من الورق مع ان المصانع الروسية تخرج مقادير كبيرة منهُ . فلما طلب الى اللجنة التي تدير مشروع السنوات الخمس ان تزيد مقدار الورق للمصنوع قالت انها لا تستطيع الآن ان تزيد عدد العمال في مصانع الورق لانها تحتاج اليهم في الأعمال الاخرى التي لا بدَّ من انتاجها للتصدير تسديداً لثمن واردات لا غنى لروسيا عنها

اما توزيع هذا العدد الكبير من الكتب والرسائل فقد اصبح عملاً دقيقاً واسع النطاق ودار النشر في موسكو التي تخرج نحو ثلاثة ارباع الكتب التي تنشر وتباع في جمهورية روسيا لها الآن نحو سبعة آلاف فرع في طول البلاد وعرضها ، يديرها رجال ونساء يتناولون مرتباً معيناً مع مبلغ اضافي يختلف باختلاف الكميات التي يبيعونها من الكتب . وتكاد الدار لا تنشر اي اعلان عن كتبها مكتفية بالمراجعات التي تنشرها الصحف . ولكنها تنشر قوائم تحتوي على عناوين المطبوعات وتفصيلات عن حجمها وثمنها وترسلها الى المكتبات والاندية في موسكو وجوارها . ثم ان كتاب « تجارة الكتب السوفيتية » وهو عبارة عن كاتالوج وبيان للمطبوعات الجديدة يصدر مرة كل ١٥ يوماً ويطبع منهُ نحو ١٥ الف نسخة ترسل الى الذين تعرف عنهم رغبتهم في شراء الكتب . وهذا هو النظام الذي تجري عليهِ دور النشر في الجمهوريات السوفيتية الاخرى . ومما يبعث على الدهشة سرعة نفاد الكتب الغالية والعويصة من دون اعلان عنها . وتعليل ذلك اقبال الجماعات المنظمة على شرائها ، كالمكتبات والمعاهد العلمية والاندية والنقابات . فكل من هذه المنشآت تملك مجموعة من الكتب ولا تفتأ إضافة المؤلفات الحديثة اليها . فلا يكاد يظهر ذكر كتاب في القائمة التي توزعها دار النشر حتى تنهال الطلبات عليهِ من هذه الجماعات المنظمة . وهذا يعلل لك سرعة نفاد مجموعات الكتب العويصة او الغالية ، كمجموعة مؤلفات داروين او مجموعة مؤلفات بلزاك . ويشكو الاساتذة في جامعة كيف انهم اذا تأخروا ايلماً في طلب كتاب جديد في موضوعهم الخاص ، تعذّر عليهم اقتناؤه . يضاف الى ذلك نحو ١٠ آلاف استاذ ومحاضر في الجامعات ومعاهد التعليم العالي ، ونحو ٥٠٠ الف من المدرسين وملايين من الطلاب ، كلهم عطاش ظمأ للمطالعة . ومن وراء هؤلاء الصناع والعمال والفلاحون المنتظمون في دروس ليلية يقبلون على الكتب الجديدة التي تصلهم اقبال الظمآن على عذب الماء

والاقتصاد في توزيع الكتب يفسر لك كثرة الطلب عليها ورخص ثمنها . يضاف الى ذلك

انفجار الرغبة في المطالعة في نفوس الروسيين. فان الجانب الاكبر من خمسين او ستين مليوناً من السكان، الذين تتباين اعمارهم من ١٠ سنوات الى خمسين سنة قد احسوا فجأة برغبة شديدة في المطالعة ولست تجد في التاريخ ما هو شبيه بذلك

وقد يهم المشتغلين بصناعة القلم ، ان يعلموا ان صناعة المؤلف في روسيا ، هي احدى الاعمال من الناحية المالية . ويقال ان مؤلفاً في روسيا يجني من مؤلفاته نحو سبعة آلاف جنيه كل سنة . والغالب ان يتعاقد المؤلف مع دار النشر على مبلغ معين يدفع لقاء طبع عدد معين من النسخ من كتاب له . ويعين هذا المبلغ بالاتفاق مع المؤلف بعد النظر في مقامه وشهرته ، ومقدار العمل الذي اقتضاه تأليف الكتاب ، وعدد النسخ التي يتفق على طبعها منه . فاذا زيدت النسخ المطبوعة عن العدد المقرر في العقد ، او اذا ارادت دار النشر اخراج طبعة جديدة منهُ ، زيدت المكافأة التي يتناولها المؤلف . فاذا اقتضت الطبعة الجديدة جانباً كبيراً من التعديل والتنقيح ، عومل المؤلف كأنهُ يقدم كتاباً جديداً للطبع . واقل ما يدفع للمؤلف ، على ما قيل للورد باسفيلد ٣٠ جنيهاً للملزمة الواحدة من رواية او كتاب مدرسي ابتدائي ، وسبعة جنيهات الى عشرة جنيهات عن كل ملزمة من كتاب اجنبي ترجمة وتصحيحاً وثلاثين جنيهاً الى ٤٠ جنيهاً عن كل ملزمة من كتاب علمي

اما مؤلفو الروايات التمثيلية فدخلهم اكبر من دخل المؤلفين لانهم يتقاضون نصيبهم من دار النشر ومن المسارح التي تمثل فيها رواياتهم

تُقدَّم الكتب الجديدة على اختلاف موضوعاتها الى دور النشر فيقبل بعضها ويهمل البعض الآخر ، فاذا قبل احدها دعي المؤلف الى التعاقد مع الدار . وغالباً ما تختار الدار بعض الكتّاب المجهولين ، فتشجعهم على العمل وتعهد اليهم في وضع كتب معينة ، وتدفع لهم مقدماً ٢٥ في المائة من الاتعاب ، وعند تقديم الكتاب يدفع للمؤلف ٤٠ في المائة من المبلغ المتفق عليه اما يشترط عليه ان يصحح الكتاب وينقحهُ في خلال الطبع وعند نشره يدفع له الباقي

والمطبوعات كلها خاضعة لرقابة الحكومة . فلجنة المراقبة في موسكو (جلافليت) لها ممثل في دار من دور النشر ، هو في الغالب مدير الدار . وعليهِ ان يمنع طبع اي كتاب او رسالة قبل ان تنال الفرز بموافقة لجنة المراقبة . فاذا سألت عن الكتب التي تحظرها لجنة المراقبة قيل لك الكتب الفاسدة ، والتي تحتوي على قذف في الناس ، او تدعو الى اضطهاد الاقليات الشعبية او الدينية ، اوما تشمّ منهُ رائحة المقاومة لنظام السوفييت . فاذا رفض طبع الكتاب مرة كان ذلك في الغالب قاضياً عليهِ ، ولكن قد يستطيع المؤلف ان يسترعي العناية لهُ لاعادة النظر فيهِ بواسطة نقابتهِ او بطلب يقدّم الى ولاة الامر . ولا يندر ان تسفر اعادة النظر عن اقرار الكتاب وطبعهِ

تخطيط الفسطاط (١)

بزوغ نجم العمارة الاسلامية بمصر

كان عمرو بن العاص اداريًا حازماً وسياسيًا محنكاً بقدر ما كان قائداً عربياً . وكانت لهُ بمصر صلة تجارية مكنتهُ من درس احوالها درساً سياسيًا وحربيًا واقتصاديًا قبل قدومهِ اليها بجيشهِ لغزوها وانتزاعها من ايدي « الاغريق اوالبيزنطيين » الذين يقال لهم « الرومان » خطأ

هذا ولا يعرف بالتحقيق ان باحث الامير عمرو بن العاص امير المؤمنين « الفاروق » في امر اعداد حملة على مصر بل ولا تاريخ هذه المفاوضة . غير ان المظنون ان هذه المباحثة حدثت في فترة حصار « قيسارية » حيث كان الامير عمرو مشتركاً في هذا الحصار بينما كان امير المؤمنين « الفاروق » مقيماً في معسكره بالقرب من دمشق وكيفما كانت الحال فقد اسفرت المفاوضة بينهما عن الاتفاق مبدئيًا على فتح مصر بعد ما بسط ذلك الامير الداهية لسيده اسباب الحاجة الى هذا الفتح وضرورة الاستيلاء على مصر اعلاء لشوكة الاسلام ونشراً لرايته

وقد كان من اكبر الاسباب التي حملت عمرو على الاسراع في العمل والزحف على مصر ان « ارطابيون » حاكم اورشليم الاغريقي الذي ترك بيت المقدس قبل ان يضيق المسلمون الحصار عليهِ هرب الى مصر فأخذ يلم شعث جيشها وينظمهُ حتى يستطيع الثبات في وجه الجيش العربي ان حدثتهُ نفسه بالزحف على مصر

***

سار عمرو على رأس جيش مكون من ٤٠٠٠ جندي حتى بلغ رفح وبحيلتهِ المعروفة طاول رسول امير المؤمنين حتى بلغ العريش واجتاز حدود مصر الى ان بلغ « الفرما » ومنها سار الى القنطرة وواصل السير حتى بلغ العاصمة بلبيس فاحتلها

شخص عمرو ببصره فلاحت له (هليوبوليس) او (عين شمس) بعد مسيرة يوم كامل وسط المزارع والحقول لكنهُ كان يرنو الى نقطة اخرى على النيل هي قرية (ام دنين) التي كانت شمالي مدينة بابيون عاصمة مصر في ذلك العهد والتي يكاد يكون موقعها اليوم على التقريب محصوراً بين شارع كلوت بك شرقاً وجنوباً وبين شارع قنطرة الدكة غرباً وشارع اولاد عنان

---

(١) عن محاضرة القاها الاستاذ محمود احمد مدير قسم الآثار العربية بوزارة الاوقاف في نادي رابطة الادب الجديد بمصر

ونوبار باشا شمالاً . فقد كانت (ام دنين) ميناءً نهريًّا هامًّا ومرتعاً حربيًّا حصيناً وخط دفاع قوي عن ذلك الحصن المنيع المعروف بحصن (طريانوس) والذي نسميه اليوم (قصر الشمع) التائهة فوقهُ الآن (الكنيسة المعلقة) الغنية عن الذكر

لذلك كان لا بدَّ للجيش العربي لكي يستولي على عاصمة مصر حينذاك وعلى حصنها — من الاستيلاء اولاً على (ام دنين) وكان لا بدَّ للاروام لكي يحافظوا على العاصمة وحصنها من الاحتفاظ بام دنين وعدم تمكين العرب من الاستيلاء عليها . فدافعوا عنها دفاعاً شديداً اوقف جيش عمرو عن التقدم نحو بابليون فترة غير قصيرة . وجعل مصير المعركة معلقاً في ميزان القدر لا يعلم ايُّ الفريقين يكون النصر في جانبه يدلُّ على ذلك قول المقريزيُّ : —

ان القتال اشتدَّ عند ام دنين حتى تأخر النصر وقول ابي المحاسن حمي وطيس الحرب الى درجة جعلت معرفة اي الفريقين ينتصر متعذرةً فيها

واخيراً وبخدعة حربية قامت بها القيادة العربية بعد ما وصلتها امداد كافية تحت قيادة الامير الزبير بن العوام ثم بجبل (تيودور) قائد الجيش الروماني بخدعة عمرو الحربية ، انهزم الروم هزيمة تحوَّلت الى كارثة حيث ابيد جيشهم عن بكرة ابيه الاَّ ٣٠٠ جندي تقهقروا الى حصن بابليون فوجدوا ابوابه مغلقة استعداداً من حاميته للدفاع عنهُ

لكن الاخبار التي تسرَّبت الى حامية الحصن خاصة بشدة هول النضال وبشدة بأس العرب خلعت قلوب جانب من حماة الحصن فلجأوا الى الفرار بطريق النيل الى مختلف الجهات

وكذلك اذنت نتيجة معركة ام دنين بقرب زوال الحكم البيزنطي ووضع اول حجر في أساس الحكم العربي

***

تحصن الاروام داخل حصن بابليون واحاطوه بخندق عميق نشروا في قاعهِ حسك الحديد (الحديد الشائك) . لكن القدر كان قد بتَّ في مصير هذا الحصن فان انتصار العرب في ام دنين كان لهُ تأثير عظيم ومزايا لا تقدَّر . فان بابليون او (مصر) التي كان يحميها الجيش الروماني المرابط في هذه العاصمة . اصبحت تحت رحمة عمرو الذي ملكها بغير قتال ثم سيطر على شاطىء النيل شمالي الحصن وجنوبيهُ بعد ما نقل معسكره من هليوبوليس وحشد جيشهُ شمالي الحصن في فضاء من الارض ممتد على التقريب اليوم من جامع عمرو جنوباً الى مجرى العيون يقع الخليج شمالاً اطلق عليهِ الاروام اسم (فسلطوم) اي (المضرب) وسماه العرب بعد ذلك (الفسطاط) وفيهِ انشأ العرب بعد سقوط حصن بابليون في ايديهم تلك البيوت الساذجة التي كان قوامها الطين واللبن والتي تكوَّن من مجموعها حيٌّ من احياء العاصمة كان على بساطته مقرَّ الحكم

ودار الامارة . اما ما ذكره المؤرخون غير ذلك من اسباب تسمية الفسطاط فلا سند له ولا يصح الركون اليه

تمت الفسطاط واتسعت عاماً بعد عام وادمجت فيها بابليون العاصمة القديمة فتنازلت لها هذه عن السيادة الى الآن ورضيت مرغمة بمحو اسم (بابليون) من عالم الوجود الاَّ انها احتفظت باسمها الثاني اسمها الخالد وهو (مصر) فان الفسطاط مع سطوتها لم تستطع محوه بل ولا اخفاءهُ فرضيت بمشاركته وصارت فسطاط عمرو تعرف (بالفسطاط وبفسطاط مصر) و(مصر) فقط فلما انشئت القاهرة ونقل مركز الحكم اليها تغلب اسم (مصر) على الفسطاط فتوارت الفسطاط كثيراً وها نحن اليوم نناديه باسم (مصر العتيقة) وذلك على الرغم من ان هذا الحي الذي نناديه الآن بذلك الاسم كانت ارضه وقت انشاء الفسطاط جزءاً من مجرى النيل مغموراً بمائهِ لم ينحسر عنها الاَّ في اواخر القرن الرابع الهجري ولم تنشأ فيها ابنية الاَّ بعد ذلك التاريخ

وهنا نرى الفرصة سانحة الجهر بحقيقة يتعين علينا اثباتها خدمة للحق والتاريخ وهي ان الفسطاط دثرت ودرست معالمها من نحو خمسة قرون ودفنت انقاضها وآثارها واسمها تحت تلك الاطلال الممتدة من عين الصيرة جنوباً الى حي البغالة وابن طولون شمالاً الى ان كانت سنة ١٩١٨ حيث بعث اسمها من مرقده الاثري المؤرخ المرحوم « علي بك بهجت » مدير الآثار العربية الاسبق وبذل جهد الجبابرة حتى رفع التلال عن جزء من موقعها ثم عهد اليَّ في اعادة تخطيطه على اصله واصلاح ما امكن من بيوته ومصانعه التي ابقى الدهر على كثير من معالمها . وقد تفضل بعد ذلك جلالة مليكنا المعظم فشرَّفها بزيارته الكريمة وها هي اليوم يؤمها الفضلاء والعظماء من رجال الآثار ولا تزال تنادي ابناءها المهندسين المصريين ان تعالوا وابحثوا وتقصوا فني آثاري من مواد البناء ومونه وطرق تخطيطه ما انتم بحاجة شديدة الى درسه وتفهمه والوقوف على مكنون سره مما يساعدكم على النهوض باعباء أعمالكم الحاضرة وفي بيوتي من النظام والترتيب ما يهديكم الى الطراز الملائم لمناخ بلادكم وعاداتها وما يجعلكم توقنون حقًّا ان تلك المدارس الاسلامية المتعامدة انما اختطَّها المماليك على مثال ذلك البيت القديم المصري البديع

***

نعود الى حصن بابليون فنراهُ على الرغم من هروب بعض حاميته قويًّا منيعاً يعزُّ على المهاجم اقتحامه خصوصاً بعد ما تعزَّزت حاميته بالنجدات القوية التي جمعها قواد الروم من انحاء الوجه البحري ووضعوها تحت تصرف (سيروس) الذي سماه العرب (المقوقس) حاكم مصر ونائب الامبراطور (هرقل)

كذلك نرى جيش عمرو محدقاً بالحصن من جهتيه البحرية والشرقية فقط بخلاف الجهتين

الكتب والكتّاب والقرّاء

في جمهوريات روسيا

ما تنشرهُ المطابع وما يطالعهُ القرّاء

هل تصدق ايها القارىء الكريم انه طبع في روسيا في سنة ١٩٣٤ ترجمة كل مؤلفات الخلامة دارون فبيع منها في خلال سنة واحدة عشرة آلاف نسخة وان خمسة آلاف نسخة من منطق هيجل نفدت في خمسة ايام . وان مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة ؟ اقرأ اذن ما يقوله المورد باسفيلد (سدني وب) وهو من اعرض الكتاب على توخي الحقيقة وايرادها

كان لنين يرى ان الكتب والرسائل والمجلات ، ناحية خطيرة الشأن ، من بيئة الانسان الاجتماعية . فيجب ان لا تترك للصدفة تتصرّف فيها ، ولا لشركات المتموّلين يستغلّونها لفائدتهم الخاصة ، ويضلّون بما ينشرونهُ من المؤلفات اذهان الشعوب السوفيتية . لذلك جعل الحكومة السوفيتية المشرفة العليا على كل ما يطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكاً للامة كغيرها من المرافق العامة ، يضاف ما تجنيه من الربح في تجارتها الى ريع الدولة

وقد خطت الحكومة في هذه الناحية خطوات الجبارة ، في خلال ١٣ سنة من يوم انشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (وتعرف بالاوجيس Ogiz) سنة ١٩١٩ الى آخر السنة الماضية . ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة . وظلّ التقدم بطيئاً خلال السنوات العشر الاولى بعد الانقلاب (١٩١٧ – ١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جداً في خلال السنوات الاربع الاخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ ثلاثة اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ ويقدر ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ وقد ذكر المورد باسفيلد في مقالة له في مجلة التاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص ٧٩٧) ان دور الطبع والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كاوكرانيا ، التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) اخرجت وباعت في سنة ١٩٣٢ اكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ الفاً وان متوسط عدد الملازم (الملزمة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها يبلغ خمس ملازم

اي ان مجموع الصفحات التي اشتملت عليها الكتب والرسائل الجديدة بلغ ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ صفحة . وان مجموع الكتب والرسائل الجديدة التي نشرت في اتحاد الجمهوريات السوفيتية بلغ ٥٠ الفاً وعدد ما بيع منها من النسخ ٩٠ مليون . يضاف الى ذلك ان في هذا الاتحاد نحو ستة آلاف جريدة ومجلة مجموع النسخ التي توزع منها (يوميًّا او اسبوعيًّا او شهريًّا) اربعين مليون نسخة . فحركة النشر في اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعدل بحسب تقدير المورد باسفيلد ما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا معاً

والحكومة الروسية تجني من عملها هذا ربحاً جزيلاً . فقد بلغ دخل دار النشر في موسكو (اوجيس) سنة ١٩٣٢ اكثر من ٢٥٠ مليون روبل (٢٥ مليون جنيه ذهب) ولكن هذا المبلغ يشمل ما بيع في فروع الدار من الورق وادوات الكتابة ومطبوعات الدور الاخرى كذلك. وأما ثمن ما بيع من مطبوعات الدار نفسها فنحو نصف ذلك . وبلغ الربح الصافي الذي جنته الحكومة الروسية من هذه الدار في السنة الماضية نحو ثلاثة ملايين جنيه

على ان سعة انتشار الكتب، ووفرة ربح الحكومة، لا يهمّاننا في هذا المقام ، بقدر ما تهمّنا معرفة الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب، وكيف يعامل كتّابها، ووسائل طبعها ونشرها ومراقبتها

فاذا صرفنا النظر عن الصحف الدورية ، وجدنا ان الكتب والرسائل التي تخرجها مطابع السوفيت تتباين من كرّاس صغير ، لا يزيد على اربع صفحات ، ويحتوي على خطبة للرفيق ستالين (يطبع من كراس كهذا عادة نحو مليوني نسخة) الى ترجمة كاملة لكل مؤلفات دارون التي طبعت ونشرت سنة ١٩٣١ في ثمانية مجلدات. وقد طبع منها ١٠ آلاف نسخة كاملة فنفدت كلها قبل مايو سنة ١٩٣٢ . ثم اعيد طبعها في عشرة مجلدات وعشرة آلاف نسخة ولا يبعد ان تنفد قريباً. ولا ريب في ان الجانب الاكبر من المطبوعات الجديدة مؤلف من رسائل صغيرة ، ليس لها رونق خاص . ولكنك تجد كذلك مجلدات ضخمة مطبوعة على ورق من اجود اصناف الورق تحتوي على صور ملوّنة لاشهر الآثار المعلقة في دور السوفيت الفنية ؛ بل ان كثيراً من المطبوعات في المقام الاول من ناحية الفن والصناعة . والكتب تطبع في نحو خمسين لغة مختلفة من اللغات المستعملة في طول الاتحاد الروسي وعرضه من البلدان على شواطىء المحيط المتجمد الشمالي الى مضيق بيرنغ الفاصل بين آسيا واميركا الشمالية

ونجد الى جنب مؤلفات الكتّاب الروسيين والاوقرانيين ، مؤلفات الالمان والانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان والسويديين والتشكيين ، ومؤلفات الاجانب في الغالب علمية او صناعية . ولا تخلو من روايات وشعر وتاريخ . اما المطبوعات الموسيقية فكثيرة جدًّا ولا تقتصر على مؤلفات امة دون اخرى

وليس بالامر اليسير معرفة مقام المؤلفات الادبية معرفة مضبوطة ولكنها اذا قيست بسائر

الغربية والجنوبية فقد كانتا مشرفتين على النيل ثم ترى القتال يستأنف بين الطرفين من آن الى آن بغير جدوى للعرب لوفرة معدات الحرب عند الروم وقلتها عند اعدائهم، ودامت الحال على هذا المنوال نحو ثمانية شهور ساور القلق امير المؤمنين (الفاروق) في خلالها على جيوش المسلمين التي رأى قوادها ان الحيلة اجدى من القوة فعمدوا اليها ، وكان الامير « الزبير بن العوام » رئيس اركان حرب عمرو هو المنفذ لها . فأنه خدع الحامية وغافلها وتركها في احدى الليالي تنام هادئة مطمئنة الى ان ادبر النصف الأول من الليل ثم أتى بسلم صعد عليه حتى بلغ قمة سور الحصن ولحق به البعض من اتباعه ومن القمة انحدروا الى احد ابواب الحصن [1] فقتلوا حراسه ثم فتحوه فتدفقت منه بقية الجيش وتغلغلت في داخل الحصن واعملت سيوفها في رقاب الحامية التي اخذت على غرة فتسابق رجالها الى الفرار ووطد العرب اقدامهم فلم تكن الا هنيهة حتى علا التكبير والتهليل ونادى بشير العرب (نصر من الله وفتح قريب)

لم يكن المقوقس حاضراً تلك المناجأة التي اعقبتها الهزيمة الساحقة . بل كان قبلها قد نقل مركزه الى جزيرة الروضة هرباً من تلك الكارثة التي كان قد توقع حدوثها فاستعد من قبل لها فركب سفينة اقلته من داخل الحصن الى الجزيرة مجتازة ذلك الباب التاريخي المعروف بالباب الحديد والذي تعلو برجيه الكنيسة المعلقة حالاً [2]

***

ودارت مناظرة ظريفة بين المقوقس وبين رئيس الوفد العربي الذي ارسله عمرو بن العاص الى الاول اجابة لطلبه للمفاوضة في الصلح وذلك قبل سقوط الحصن وقد دل اختيار اعضاء الوفد ورئيسه على علو كعب في السياسة من جانب عمرو بقدر ما دلت لهجة « عبادة بن الصامت » رئيس الوفد في مخاطبة المقوقس على مبلغ علو النفس والاعتداد بها

ركب عبادة — وكان طوله عشرة اشبار — السفن الى المقوقس ودخل عليه مع اصحابه فهابه المقوقس لسواده فقال « تحدثوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني » فقالوا « ان هذا

---

(١) عدد (ابن دقاق) و (المقريزي) وغيرهما من المؤرخين على اختلاف بينهم ابواب الحصن وترر بعضهم ان العرب دخلوا الحصن من بابه الجنوبي الذي هرب المقوقس منه والذي تقوم الآن على برجيه الكنيسة المعلقة وذلك رغماً عن ان موقعه من النيل يحول دون الدخول منه والمرجح المعقول جداً ان العرب دخلوا الحصن من باب رئيسي مفتوح في جدار من الشرق كشفت آثاره لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٢٥ م وهذا الباب لم يعده احد من المؤرخين من ابواب الحصن المعروفة مع انهم ذكروا امثاله فهل لنا ان نستنتج من هذا ان ابن دقاق والمقريزي كانا يعتمدان في تدوين مؤلفاتهما على النقل دون المعاينة. هذا ما تدل قرائن الحال عليه لان هذا الباب الشرقي الضخم كان كغيره من ابواب الحصن ظاهراً للعيان في عهد المقريزي

(٢) هذا ما اجمع عليه المؤرخون غير ان المرجح ان خروج المقوقس كان من الباب الغربي للحصن الباقي هيكل برجه الجنوبي الى الآن . اما برجه الشمالي فتعلوه الآن كنيسة مر جرجس

الاسود افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدَّم علينا نرجع جميعاً الى رأيه وقوله وقد رأسه الامير علينا وامرنا ان لانخالف رأيه وقوله ». فقال المقوقس لعبادة «تقدم يا اسود كلبي برفق » فتقدَّم نحوه عبادة فقال ما ملخصه : —

قد سمعت مقالتك وان فيمن تركت من أصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً ولو رأيتهم لكنت ارهب لهم منك لي وانا وقد وليت وادبر شبابي ومع ذلك فأني بحمد الله ما اهاب مائة رجل من اعدائي لو استقبلوني جميعاً وكذلك اصحابي وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في سبيل الله لا رغبةً في الدنيا وما يباني احدنا اكان له قنطار من ذهب ام كان لايملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها لان نعيم الدنيا ليس بنعيم وانما النعيم والرخاء بالآخرة

فلما سمع المقوقس ذلك قال لاصحابه «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندي من منظره » ثم اقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك واخبرك انه قادم الينا لقتالكم جيش من الروم لا يحصى عدد رجاله معروفون بالنجدة والشدة لا يباني أحدهم من لقي ومن يقاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقتم بين اظهرنا شهوراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نعطف عليكم لقلة ما بايديكم وتطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نعطي كل رجل منكم دينارين واميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتتبعونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا طاقة لكم به »

فقال عبادة بن الصامت : — « يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. اما ما تخوفنا به من كثرة عدد الروم وشدتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون لنا في قتالكم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا أقدمنا عليه فان قتلنا عن آخرنا كان ذلك ممكن لنا في رضوانه وجنته ونكون منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، اوغنيمة الآخرة ان نقدم بناء وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجل قال لنا في كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجلٌ الاَّ وهو يدعو ربه صباحاً ومساء ان يُرزق الشهادة وان لا يردَّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وما هم الاَّ ما امامنا

« وأما قولك انا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة . ولو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر فيما تريد فليس بيننا وبينك

الاّ خصلة من ثلاث فاختر ايها شئت . ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبل الينا . اما ان اجبتم فالاسلام او الجزية فان ابيتم فليس بيننا وبينكم الاّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم فانظروا لانفسكم »

وبعد حوار طويل بين عبادة بن الصامت وبين المقوقس من ناحية ثم بين هذا الاخير وبين اتباعه من ناحية اخرى قطعت للمفاوضة واستؤنف القتال الذي انتهى بسقوط الحصن كما اسلفنا . وما حان صفر من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ يناير سنة ٦٤١م) حتى اعلن الامير عمرو ابن العاص فتح مصر فكان هذا الاعلان ايذاناً بضياع آخر وأثمن درّة في جبين الامبراطورية البيزنطية . واذا كان امبراطورهم عند ما طرده العرب من سوريا قال وهو ينظر اليها من فوق ظهر سفينته السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده فانا لا ندري ماذا قال قواده عند ما فارقوا الحصن نادمين على ملك افرطوا في التفريط فيه

***

كان اول ما عُني به عمرو لما اصبح امير مصر ان شيد جامعهُ ثم وزع ما حوله من الارض على الجماعات من القبائل المتنوعة التي تألف منها جيشه فاختطت كل قبيلة فيما اختست به خططاً تألف من مجموعها اول عاصمة اسلامية للديار المصرية وأول نواة للعمارة الاسلامية بها

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له وأخرى قريبا لابنه عبد الله عرفت «بالدار العتبى» تمييزاً لها عن دار ابيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً له بجوار دار عبد الله . وظلّ عمرو حاكماً لمصر الى ان عزل عنها سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م) ثم عاد اليها سنة ٣٨ هـ (٦٥٨م) وبقي حاكماً عليها الى ان توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣م)

***

اتسعت هذه المدينة رويداً رويداً وارتقت على عهد الخلفاء من بني امية وصارت مقرّاً للولاة من قبلهم وفيها ابتنى عبد العزيز بن مروان امير مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك الاموي (دار الامارة) تعلوها قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بنائهم حتى تبزّ البنايات البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الاقطار التي انتزعها العرب منهم

ولعلّ دار الامارة هذه كانت اول بناية اسلامية كبيرة في مصر وصل الينا نبأ زخرفها . وفي آخر لحظة من حياة الدولة الاموية قدم مصر مروان آخر خلفائها فارّاً امام جيوش العباسيين التي كانت تتعقبه حتى وصلت مصر فنزل القائدان صالح بن علي وأبو عون بعسكرهما في الشمال

الشرقي من الفسطاط وهناك شيدوا المساكن والقصور وتكوّن من مجموعها ضاحية جديدة للفسطاط سميت (العسكر) وفي وسطها بنى صالح بن علي « دار امارة » جديدة صارت مقرًّا للامراء بدلاً من دار عبد العزيز بالفسطاط . ثم بنى الفضل بن صالح جامعاً جديداً بجوارها سمي جامع «العسكر» . وبذلك انتقل مقر الحكم من فسطاط عمرو الى «العسكر» . ولما قدم احمد بن طولون والياً على مصر نزل بدار الامارة والعسكر. ولكن لما ضاقت بعسكره وحاشيته بنى له قصراً خاصًّا في الميدان الذي تحت قلعة الجبل الآن . وانشأ ميداناً بين هذا القصر وبين الجبل القائم عليه حيّ طولون الآن . وحول هذا الميدان بنى قواده وعساكره اخطاطاً كاملة لكل قائد بعساكره خطة خاصة ومن مجموع هذه الاخطاط تكوّنت مدينة ثالثة شمالي العسكر سميت «بالقطائع» وان تكن في الواقع ضاحية ثانية او امتداداً لمدينة الفسطاط. والى هذه المدينة الجديدة انتقل مركز الحكم والامارة

وقد تمّ بنو طولون بالاستقلال بمصر عن دولة العباسيين ببغداد الاّ ان دولتهم دالت سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فأمر الخليفة المعتضد بالله العباسي عماله الذين جاءوا بعد الطولونيين بهدم القطائع وقصور بني طولون كراهةً فيهم وانتقاماً منهم . فأكتفى هؤلاء العمال بهدم القصور وتركوا القطائع والجامع على حالتهما فبقيت عامرة زاهرة اكثر من قرن بعد زوال حكم مؤسسيها

ولما زال حكم الاخشيديين وامتلك الفاطميون مصر انشأوا القاهرة شمالي الفسطاط . واتخذها خلفاؤهم عاصمة جديدة لملكهم ومقرًّا لهم وحاشيتهم دون سواهم. اما طوائف العسكر والتجار والعمال فكانوا يسكنون الفسطاط . ثم اخذ الناس يفدون على القاهرة آناً بعد آن حتى كثفت الفسطاط . وفي الواقع ان قيام القاهرة افقد هذه العاصمة القديمة وقضى عليها تدريجاً فكانت القاهرة كلما تقدمت خطوة في سبيل الاتساع والعمران تقهقرت الفسطاط بجانبها خطوة الى الوراء في طريق التدهور والانحطاط حتى قال ابن سعيد (ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاختباط بها بعض الافراط)

ومما عجّل في خراب الفسطاط امران (اولهما) الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر ابتداء من سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) حيث ارتفعت اسعار الحاجيات واشتدّ الغلاء وكثر الوباء بالقاهرة والفسطاط والاقاليم مما سبب الفتنة الكبيرة التي خرب بسببها القطر بأكمله ومهاجرة جانب عظيم من سكان الفسطاط التي تخلى عنها اصحابها . فأخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من مواد البناء ونقلوه الى القاهرة حتى خرب معظم الفسطاط والعسكر والقطائع

والثاني — حريقها في وزارة شاور بن مجير السعدي لسبب التنافس على الوزارة بينه وبين ضرغام ثم تداخل امور دنيا لوزيرين منتصراً لشاور سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) واعتزاماً بعد ذلك

بسنتين غزو الفسطاط فصار اليها حتى بلغ بركة الحبش بعد ما استولى على بلبيس

وفي ذلك الوقت كان اكثر العسكر والقطائع خالياً من السكان بخلاف الفسطاط فانها وان لم تكن على عهدها الاول من القوة الا ان سكانها كانوا غير قليلين . ولم يسع شاور الدفاع عنها امر باخلائها وحرقها . وهنا ندع المقريزي يتكلم فيقول : —

(فنادى شاور بمصر ألا يقيم بها احد وازعج الناس في النقل منها فتركوا امواطم ونجوا بانفسهم واولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنهم خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده . ولا يلتفت اخ الى اخيه . وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر ديناراً . وكراء الجمل الى ثلاثين ديناراً . ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والازقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم واولادهم وقد سلموا سائر امرالهم . (الى ان قال) وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظراً مهولاً فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر

وبعد ان اوقد شاور النار في الفسطاط التجأ الى القاهرة . ولم يتمكن أموري من الاستيلاء على مصر لان صلاح الدين كان قد ظهر في عالم الوجود واضحى سيد مصر واستولى على الشام

***

وفي القرن التاسع الهجري لخص التلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط (الى ان قال) : —

(وبعد حريق شاور تزايد الخراب وكثر الخلل ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره (الفسطاط) الى ان كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالديار المصرية فصرف الناس همتهم الى هدم ما خلا من اخطاطه والبناء بانقاضه بساحل النيل بالفسطاط والقاهرة وتزايد الهدم فيه (الفسطاط) واستمر الى الآن حتى لم يبق من عماراته الا ما بساحل النيل وما جاوره الى مايلي الجامع العتيق (جامع عمرو) وما دانى ذلك ودثرت اكثر الخطط القديمة وعفى رسمها واضمحل ما بقي منها وتغيرت معالمه

واليوم ونحن في منتصف القرن الرابع عشر الهجري . لم يبق من الفسطاط الأصلية إلا كيانها القائم فيما بين النيل والمقطم وما نسميه اليوم مصر القديمة لا يمكن اعتباره من بقاياها فان المنطقة المحصورة بين خط سكة حديد حلوان شرقاً وضفة النيل الشرقية غرباً لم تظهر الى عالم الوجود الا في اواخر القرن الرابع الهجري بعد ما تحول النيل من مجراه الأصلي شرقاً الى مجراه الحالي غرباً . وسبحان من لا يتحول ! !

أدب الصومعة وأدب الحياة

مقدمة الصنّاجة(١)

بين دالية ابي العلاء (غير مجدٍ) ، و (رباعيات) الزهاوي ، و (مواكب) جبران ؛ و(صنّاجة)الرياشي نسب وعرق ستين. فهي على الجملة قنوط من العيش، وملل من السعي، وتضاحك بالناس . فكأن هذا الفرع من الأدب العربي شيء على حدة ؛ لا صلة بينه وبين الآخرين !

ويتلاقى على الفرع الجديد شعراء من كل صوب فسرب من ضفاف (دجلة) وسرب من شارف (المهجر) يضاف اليهم شعراء ما برحوا زغب الحواصل . فلم يعتلوا الجو بعد ، ولا تجاوبت الجهات بأصواتهم . بل تسمع لهم بين الفترة والفترة هتفات تجيء بها الريح وتذهب

وإنك لتعجب حين تدري ان ذلك الفرع العربي الذي نبت ــ او كأنهُ نبت ــ على جوانب (اللزوميات) لم يستقم ساقهُ في الماء ، ولا خرج شطؤه على عادة الشجر ، فهو غراس عجيب، طلع في (المعرة) ، واورق في (نيسابور) . فكأنما نبت في (دهابز) ابي العلاء ، ومال على (بساط) الخيام بالظل والزهر ! فقل في ذلك الفرع الاعوج: غراس نسقيه الماء عربيًّا، فيخرج الزهر فارسيًّا . كاحدى الشجرات في حقلك ، على الحد : عمها عليك ، وظلها على جارك . . .

***

وذلك الفرع لم يتبدّل على الازمنة . فهو منذ ما مدّ الخيام بساطه الى يومك الحاضر شيمة واحدة . فمت للناس كما رأيت ، وهزؤ بالحياة ، واطلاق النفس على الهوى ، وتباعد عن المعترك حتى لتحسب ان الدنيا خلقت لواحد : فبينا أنت من يومك حيث تعجُّ الدنيا العريضة بالغادين على العيش ، وتزحم المناكب المناكب، اذ الواحد من الجماعة يناديك من بعيد وهو في مثل كوة الصومعة . فتدهش لذلك المتخلف عن ركب الحياة ، تسائل نفسك ما شأنه ، وما تخلفهُ في آخر الخلائق ، وما يصنع بعمره ، ويُستنفع به ! !

فتجد صاحبنا تعبد الصومعة ، محلول العزيمة . همُّه من الدنيا بساط عشب ، وكأس خمر ، وساعة من حبيب — وعلى كل شيء بعد ذلك العفاء !

ولعمرك كيف يتبدّل (أدب الصومعة) هذا ، ويعد ساقيه على محبوحة ، ومجاله اضيق من قيد الشبر !! فهو أشبه ما يكون بمخيلة (مانه) على قول (زولا) :

— (مانه) عصفور صغير ، على غصن صغير ، في ربيع عمره خمس دقائق . . .

---

(١) الصنّاجة ديوان شعر للأديب اللبناني تبلال الرياشي والمقدمة للشاعر اللبناني امين نخله

وهكذا (أدب الصومعة) لفّ ودوران على غرض أيسر من ان يحسب في الهموم فلا غوص على النفس ، ولا تطلع الى محجّب من وجوه الحياة ، ولا كدح في صميد الفكر وراء الحق والجمال . فاذا جاد حبيب بساعة، وامتلأت كأس براح ، واخضرّ مطرح بمشب، قامت الدنيا في نظر الجماعة ، واستراحوا حيث تتعب العقول !

ولقد أشرفت الدنيا على آخرها . و (أدب الصومعة) في موضعه لا يتحوّل . فلا مدّ اذناً بعد (الطيام)، ولا اطرح عيناً، ولا سرح اصبعاً ؛ فالقصة ان شاعر الفرس بعد ان جاب فكره الأرض والسموات ، وأوفى على الامر ، برّح به الكد ، فاطلق في وجه الحياة رباعية حرى، عذره بها عذرة الغمرة التي تعم النفس بعض الاحايين ثم تنجلي . فتعلق اولئك على الرباعية (السوداء) . وحسبوا أن تلك النفثة غاية الرجل من الفلسفة ، وجماع رأيه . ومعاذ (ابي الفتح) عمر ، وهو نادرة فارس في الحكمة والطبيعيات والفقه والتكليف والتاريخ وعلوم النجوم ان يقصر العيش على هبوط الطبع ، وانتكاس النفس !

فأدب الأدب مستمر عليه بتلك النفثة الدانية . تتحوّل العقائد ، وتتراءى الأغراض، وتتسع شقة الفكر البشري ، وهو المعلق في مكانه !

***

و (أدب الصومعة) أدب الحب والطبيعة ، في زعم أهله . فاذا جئتهم تسأل لساناً واحداً يبحث الحب والطبيعة، كأن يذكر لك مثلاً علاقة الطبع بالحساسة، او رابطة النفس بالطبيعة في شيمة من شيم الخلقة فانك تطلب ريشة العنقاء !

فالجماعة كندامى (لجرس) يحتسون الخمر بالنظر ، وينشقون الزهر بأطراف الاصابع !

***

ان الادب الحق غير ذلك !

هذا (شكسبير) وهو نادرة الازمان ، تكاد العيون اليوم تتنافس على اوجه . ويكاد المتشددون يهمون بالقول ان « الشكسبيرية » على شفا . فسقوطها اقرب مما في الحسبان . ذلك ان الادب « المطنّب » الذي لا ينغمس في معمعان الحياة حتى الركبتين ، اصبح مزلزل القدم في جيل « التبسط » من هذا ! . وبوادر « الشعرية » الادبية الجديدة ما ترى في الادب الفرنسي مثلاً من تنكب عن الدرب، حتى ليستطيع امس كاتب ناشيء « كلودين » ان يضحك على انف « كورنايل » فيقول فيه « صنم الفضائل الاكمه » ؛ ولا تقوم القيامة ...

وكما يقال في الادب يقال في الموسيقى ، وفي التصوير ، وفي التمثيل ، وفي مختلف الفنون « فاغنر » آية الجيل الاول عند الفرنسويين ، لا يكاد يذكر بشفة في غير « الكيبزم » المنالح . ويكاد « وغنر » يخفت صيته في ضجة « الانطلاق » التي يثيرها « فان دونغن »

و « ريناندو هن » فلقد اعقب نسق الدقائق في الرسم نسق الجملة ،واعقب التبسط في الموسيقى التماسك . وبكلمة اخرى ، فالفنون اليوم تتنزل من رفرف التأله الى مستوى الناس ..

فاذا جاز ان يقال هكذا في « شكسبير » و« كورنيل » واضرابهما من اصحاب المتعات في فهرس الفكر البشري فكم يجاز — بالله عليك — ان يقال في زمرة « الخيّاميين» المساكين !!

***

قال « پول فاليري » يوم رفعت القبة على قبر الجندي المجهول في باريس .

« على اصحابنا — يعني اهل الادب — ان يستيقظوا ! فقبر الجندي المجهول قصيدة تخرجها الحياة على اتم ما يكون ، دون ان تفتقر الينا فتتلاقى تحت القبة قلوب الفرنسويين من كل حدب. ترف على البلاطة ، وتحوم بملايين الاغراض المتفرقة ، من الف المشاعر الى يأسها... فاذا اطلقت الحياة تخرج للناس في غيبة الادب وتقصيره امثال هذه القصائد الوافية ، فما حاجتهم الى الشعراء ! ! »

فعلى الادب ان ينزل الميدان . عليه ان يغشى الحياة ، ويدخل من الابواب ومن النوافذ ومن شقوق الحائط !

ان الادب مرآة الحياة . يحاطها بحاله . واطارها اطاره . فكل ادب لا يتراءى فيه وجه الحياة على تمامه ، فهو مرآة ناقصة . طرحها الخلق من الابقاء عليها وكما ان الحياة فسرة واعنات وتصعيد وتصويب ، كذلك يجب للادب . فيكون عليه غبار الكد . فمن المحصل ان الصعوبة لا تقذف اللؤلؤ ، ولا تشق الاصبع عباب اليم . ومن العيب ان لا يجعل الادب في تقليد الحياة ، حذوك الشيء بالشيء . فعظام « اوسكار وايلد » بليت في ترابه ، وبلي معهُ قوله «الحياة تقلد الادب ، والادب لا يقلد الحياة»

والادب تأدية رسالة . عهده في الله : الحق والجمال . في العهد ان تؤدي الرسالة وهي تقطر بدم القلب اكدّ على الحق ، حتى يشمئز بياض الصحيفة من البرهان . وهوى للجمال حتى تنفتق قصبة القلم من الوله ! !

هذا هو الادب . وذلك شأنه في الميدان . اما أن يظل المشي على الحافة ، في رباعيات (الخيّاميين) وخماسياتهم وسداسياتهم الى آخر الحساب ، ينظر من بعيد ولا يلتي قدماً ، فالحياة براءٌ منهُ

***

ذلك ، فضلاً عن ان « ادب الصومعة » غريب في عقر داره. فهو يتهالك في التباعد عنا ، تقرّباً الى ذوق الفرس القدماء من جيل الخيّام. تراهم يطبعون اذواقهم على النارسية العتيقة. يتخذون لها المقاطع مقطّعة من كل وزن ، وبياض الصحيفة صحراوات رحبة بين البيت

والبيت . حتى لقد كاد باعة الورق يدّعون انهم الصاف ادباء ، محتجّين بذلك علينا ...

وتراهم يخرجون الدواوين في طائفة من السور ، تقليداً « لأجيل الخيّاميين» فقد اجمع مترجموه الرباعيات » على انها وجدت في صور ترمز اليها . وتراهم يزرون بالاوضاع ، ويعبثون بالتقليد الكريم ، شأن الخيّام ،وقد ازرى بالفارسية وعبث بتقاليدها يوم الرباعيات

إن شرط الادب قبل اي شيء ، ان يكون ، في الاقل ، من نصيب الامة . تؤدّيه اليه بكلفة مرفوعة وسبيل ممهد . وان يغدو صورة صحيحة في تاريخها ومشاعرها وعقائدها

وشرط الصدق في الادب ان يصدر واحدنا عن ذات نفسه ، وعن بيئته ، فلا يكون منّا ، ولسانه مثلاً يلمع علينا من خلال (الرباعيات) الاجنبية !

وشرط التلاقي بين الادب والفن على صقيع واحد ، ان تكون الريشة في دورها والقلم في دوره . لا ان تطفّ الريشة على القلم . فيقصر الادب ، ويقوم الفن بالدورين . اذ الادب ادب لا يزيده الفن شيئاً على المحك ، ولو تولاه (ليوناردو دا فنسي)نفسه بالف (جوكوندا) ؟

وشرط الاجادة ان ترضي الاوضاع عن النتاج . فلا يقطع الواحد حبل الابد ، وينطلق على رأسه . ففي الادب سباق هو الحسن على كل جيل . شرط المضمار فيه ان تذهب الجياد في شوط واحد . لا ان يند الجواد عن فوجه ، وينفرط التسابق !

***

هذا من جهة الغرض . واما من جهة الصناعة ، فبيننا وبين الخيّاميين، خلاف تنادي به على السطوح ! فنقول نحن بالخاطر الشائع ، في الصنيع الفني ، من المسهّل الى المقطع . حتى تغدو القصيدة « قطعة » واحدة ملمومة الاطراف . لا افراط بها ولا تفريط . وبالمعنى الذي يسكن المبنى . فينصب الماء في ذوقنا ملء الاناء . معنى واحد في مبنى واحد ، لا الف اناء لقطرة ماء . . .

ونقول بالاداء السريّ . فالديباجة شرط مقدم . اذ ان الصنيع الفني ينهض بجناحين المعنى من جانب ، والمبنى من جانب . والادب بيان . فكيف يصلح الأصبحاً ظاهر البهجة مدقّق الرونق ، حتى لقد تشدد نفر من اصحابنا «فاحسّوا» انتفاضة الحياة في اللفظة الواحدة — ونعم التشدّد !

ونقول بالمليم المطبوع . فيكون على الصنيع الفني نفس صاحبه يكاد القارىء يتبيّنهُ من الرائحة . . . فتسلم الاعراض في الادب ، ويسبح لكل بنت من بنات الافكار والد !

ذلك رأينا في الصناعة . واما رأي الخيّاميين، فتقطيع الاوصال في « الوحدة » الفنية. وكيل الالفاظ في المعنى ، والعبث بالمبنى . والتقليد في اللهجة حتى ليقبل واحدهم ، على رشاش من ريق الف قائل . . . وعفا الله عن الباقي !

الزراعة المصرية القديمة

لمحة اجمالية

للدكتور حسن كمال

توطن قدماء المصريين وادي النيل منذ آلاف السنين . ومن ذلك الوقت والبلاد كانت عرضة لغزو الاجانب وفتح الفاتحين . ولما توثقت عرى التعامل مع البلدان المجاورة زاد الاختلاط وكثرت الهجرة بين الاقطار المتاخمة والمملكة المصرية على توالي الاجيال . لكن بالرغم من ذلك حافظ المصري على خصاله وعاداته واخلاقه . ولما كانت مصر « هدية النيل » جاز لنا ان نستنتج ان تأثير هذا النهر العظيم والمعيشة في واديه كانا عنصرين قويين في محافظة سكان تلك البقعة على طباعهم بل وفي صبغ كل من يقطنها بنفس الصبغة من حيث المعيشة والطباع والمعاملة او بعبارة اوجز من حيث «التمصر» . ولسنا نعرف قطراً في هذا العالم يعتمد في معيشته على نهر واحد الا القطر المصري . كذلك لا يوجد نهر في العالم له خواص وادوار طبيعية منتظمة مثل النيل . فاذا علمت ذلك ثم زدته فحصاً وتمحيصاً اتضح لك ان سكان القطر المصري لا بدّ ان يكونوا محافظين على مصريتهم حدّ المحافظة كما حافظ نيلهم على نظامه وحافظت تربتهم على طبيعتها

لذلك كان هذا الثبات في طباع القوم واخلاقهم ومعاملاتهم ثمرة وادي النيل وتربته . والمعروف ان كل عنصر اجنبي استوطن القطر المصري في الازمنة الغابرة تأثر تدريجاً بالمؤثرات المصرية حتى تمصّر الى حدّ بعيد . وليس هذا الامر بالمستغرب لان المعروف في اقطار العالم ان الطبائع الخاصة بسكان المعمورة هي وليدة الاقليم والتربة . وان مصر تمثل هذه الحقيقة اوضح تمثيل . فهي بعزلتها شمالاً بواسطة البحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً وجنوباً بالصحارى جاءت برهاناً ساطعاً على صدق هذا الرأي

ومن الطباع المصرية الغريزية ولعُ المصريين بالزراعة وفروعها المتباينة حتى جرى ذلك في نفوسهم جريان الدم في الجسد . فيجد الباحث في تاريخ مصر القديم ان اهلها كانوا مزارعين من اقدم الازمنة وان خبرتهم في الفلاحة ذاعت وصيتهم في طرق الريّ والمساحة علا وارتفع . فتمكنوا بمرور الزمن من التغلب على العقبات الناتجة من فيضان النيل وطبيعة الارض . وحصر القوم زراعتهم في حاجاتهم الاقتصادية . فابتكروا اولاً طريقة لقياس الزمن وتجزئته بما يتفق مع زراعتهم فأدخلوا السنة الشمسية ذات الثلاثمائة والخمسة والستين يوماً في حسابهم

البقرة المقدسة « حاتحور » من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

مقتطف دسمبر ١٩٣٣ أمام صفحة ٥٥٣

وكان ذلك عام ٤٢٤١ قبل الميلاد . ثم قسموا السنة الى ثلاثة فصول زراعية هي فصل البذر وفصل الحصاد وفصل الفيضان النيلي ثم جزّأوا كل فصل بعد ذلك الى اربعة اشهر فصارت سنتهم مقسّمة الى اثني عشر شهراً كما هي الحال عندنا الآن . ثم تغلبوا على صعوبة اختلاف ارتفاع الاراضي بان قسّموها الى عدة حياض وذلك باقامة الجسور وحفر الترع . ثم فرضوا الضرائب قياساً الى المساحة المزروعة وذلك بمعرفة الحد الاقصى لفيضان النيل السنوي . لان هذا الاخير يعطيهم فكرة عامة عما يمكن ان يكون عليه مقدار المحصول السنوي وقتئذٍ . وتفننوا في طرق الري فشادوا خزاناً بالفيوم وذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق.م .) وكان هذا الخزان يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل

وورد ت روايات كثيرة من المؤرخين عن مجرى النيل اهمها حكاية هيرودوتس الذي قال ان مينا اول ملك حكم مصر مجتمعة (حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م .) حفر مجرى آخر للنيل قبالة منف وحوّل هذا النهر العظيم الى مجراهُ الجديد (وهو الحالي) فربح بذلك منطقة كبيرة شاد عليها مدينة منف عاصمته الجديدة وقتئذٍ

ومنذ ما بدأ اهتمام المصريين بالشؤون الزراعية ينمو ويكبر (وهذا الاهتمام يرجع تاريخه الى اقدم العصور المعروفة) اخذت مصر تتقدم في فروع الزراعة على اختلاف انواعها بنفس الخطوات التي خطتها في مدنيتها وابتكاراتها حتى صارت في النهاية مملكة زراعية صناعية من الطبقة الاولى واشتهرت بصناعتها بين الامم فصار الكتان المصري المرتبة الاولى في الاسواق . كذلك مصنوعاتها الخزفية والزجاجية والخشبية

ولا ينحصر السبب في تقدم الزراعة المصرية في خصب التربة وحسب وما احدثهُ ذلك في نفوس الاهالي بل يشتمل ايضاً على اثر هذا الخصب في اخلاق القوم ومعلوماتهم النيّة بشكل لا يقلّ وضوحاً عن الحالة الاولى . كذا خصائص النيل الطبيعية ونتائج فيضانهِ السنوي يرجع اليها كثير من الفضل في معرفة المصريين لعلمي الهندسة والمساحة . فقد نسب كل من هيرودوتس وافلاطون وديودوروس واسترابون اصل علم الهندسة الى التغيرات الطبيعية التي تقع اثر الفيضان النيلي والى ضرورة ارجاع حدود الاراضي الى نصابها بعد الفيضان كما كانت عليهِ قبله . وهذا كله مما يعزز القول بان علم الهندسة ولد بالقطر المصري وترعرع فيهِ . وليس هذا الامر بالمستغرب فان زوال الفيضان كان تسبحهُ منازعات ومشاجرات بين اصحاب الاراضي لسببين . اولهما : ان حدود الاراضي لم تكن ثابتة ثبوتاً كافياً في كل الاحوال . وثانيهما: ان جسور النيل كانت عرضة في بعض الاحيان للتلف نتيجة ارتفاع النيل فيتغيّر كثير من معالم الارض الواقعة على شاطىء النيل . لذلك أصبح ضرورياً وضع نظام ثابت لمساحة الاراضي لمنع هذه المشاحنات وايضاً لجمع الاموال الاميرية . ولا نعلم بالضبط تاريخ ظهور

علم المساحة بالقطر المصري والغالب انهُ قديم العهد جدًّا

عمل هذه الطرق وسواها تمكنت الحكومة وقتئذٍ من الاشراف على كل زراعة القطر وتقدمها فنجم عن ذلك زيادة عدد السكان . لكن هناك عوامل اخرى ساعدت على تقدم الزراعة في وادي النيل خلاف خصب التربة هي عظم فيضان النيل ونشاط العنصر المصري وعدم تغير الطقس وقلة المطر وعزلة الوادي . هذه الاحوال كلها هيأت مصر لان تكون مزرعة العالم القديم تصدّر حاصلاتها الى سوريا وجنوب اوربا في مقادير كالتي كانت تغذّي بها روما في العصور الاخيرة

والرسوم الزراعية العديدة المنقوشة على الآثار المصرية تظهر بوضوح عظيم اهتمام المصريين بالفلاحة . ويستدل منها ان محاصيل القطر وتنذاك لم تختلف كثيراً عن محاصيله الحالية . اما خبزهم فكان يصنع غالباً من القمح . وقد عثر في المقابر على مقادير كبيرة من القمح الفرعوني كما عثر أيضاً على مقادير لا بأس بها من الخبز ويجد الباحث الآن كثيراً من هذه الاخيرة في جميع متاحف العالم تقريباً . ولا حاجة بنا الى ان نذكر هنا ان القمح المذكور لا يمكن انباته الآن لان جنين الحبّة لا يعيش طويلاً ، وعلى ذلك فكل ما قيل عن امكان انباته لا يدل الاّ على ان بعضاً من القمح الحديث تسرّب الى القديم وان ما نبت هو الحديث

وصنع القوم الجعة العذبة (البوظة) من الشعير والنبيذ من العنب الذي كان كثير النمو في القطر . واشتهر اقليم مريوط والواحات بالعنب والنبيذ . اما الغرقي فكانوا يصنعون منهُ مقادير وافرة . واما اشجار النخيل فكانت كثيرة . واهتم القوم بتربية النحل حتى لقبوا مليكهم بالنحلة . وعلى ذلك فكان الشهد كثير الاستعمال . اما قصب السكر فلم يكن معروفاً

اما الحيوانات الداجنة والوحشية فكانت وافرة بالقطر . فمن الفريق الأول الحمير والثيران والغنم والماعز والخنازير والكلاب والهرر والاوز والبط . وكان هناك نوع من الغنم له قرون حلزونية الشكل انقرض منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) لكنهُ بقي في الديانة القديمة يرمز به الى المعبود (خنوم) . اما الكبش ذو القرنين المُلالين فكان يرمز به الى المعبود أمون . واستأنس القوم الكلاب منذ اقدم العصور وتولّد منها لديهم عدة اصناف . واما الهرّ فحيوان مصري قديم اعتبرهُ القوم وقتئذٍ رمزاً للمعبودة (باستت) وادخلت الخيل القطر المصري مع الهيكسوس او ملوك الرعاة الذين حكموا مصر من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٥٥ ق . م . تقريباً وحضرت معها وقتئذٍ العجلات الحربية . اما الدجاج فلم يدخل مصر الاّ في زمن الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) ولم يقدس المصريون الخيل ولا الدجاج . واشتهرت الخيل المصرية بجودة نوعها حتى ورد ذكرها في التوراة وذلك في الاصحاح العاشر في الملوك الاول آية ٢٨ وهي « وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر » . ولم يعتنِ

المعبود اوزريس من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

مقتطف دسمبر ١٩٣٣ — امام صفحة ٥٥٥

القوم الجواد الاّ في العهد الصاوي (٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .) ولم يستعملوا الجمل في فلاحتهم بل بقي استعماله مقتصراً في الصحراء . ولم يرد رسمه على الآثار الاّ في العصور الاخيرة بالرغم من ان بعضهم يدعي انه وجده منقوشاً على آثار يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الاسر المصرية . وكان النيل معروفاً قبل عهد القراءة بالقطر المصري (اي قبل حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م .) . ثم انقرض تدريجاً الى ان اصبح وجوده بمصر ضمن جزية البلاد الاسيوية

وولع القوم بالصيد والقنص في المستنقعات والصحاري والمستعمرات الاسيوية فكانوا يصطادون الثيران الوحشية والوعول والقطط الكبيرة بالقوس والرمح او بعصاة الصيد الملتوية . وهذه الاخيرة كانت تستعمل بكثرة في صيد الطير في المستنقعات واستعمل القوم العجلات في صيد الصحاري والشباك في صيد الاسماك

وكان لشدة ولعهم بالزراعة اثر كبير في احوالهم المعاشية . فعبدوا النيل منذ اقدم العصور . وألّهوا الثور (إبيس) (شكل ١) والبقرة حاتحور (شكل ٢) والطائر (إبيس) واعتقدوا ان (ازوريس) (شكل ٣) هو الذي علمهم الفلاحة ونقشوا اسمه داخل طغراء ملكية . اما الكهنة فعلّموا الاهالي ان (ازوريس) هو رمز الماء وهو ايضاً رمز للحياة التي تمنى لتعود بعد ذلك في شكل أزليّ ومثلوه بالنبات الذي ينمو بعد قطعه . قال (فلوطرخوس) ان الآلهة لما زارت مصر اوجدت المعبردة (ازيس) (شكل ٤) القمح وخلق (ازوريس) ادوات الزراعة وكان اول من ربط الثور الى المحراث وعلم الخلق انواع النبات . ولما اغتيل (ازوريس) العرش انقذ الخلق من الفاقة وعلمهم الفلاحة وسنّ لهم القوانين

وعبد القوم عدة اشجار مثل النبخ والجميز والسنط ، كما انهم قدّسوا بعض الاسماك مثل سمك (العبيدي Oxyrhynchus) و (ثعبان الماء Phagrus) و(البني Lepidotus) ثم خصصوا للقمح معبوداً سموه (نبرو) ولفيضان النيل في الصعيد معبودة سموها (مرتى قمح) ولفيضان الوجه البحري معبودة سموها (مرتى محت) . وهناك معبودة يقال لها (رننت) رمزوا بها الى الحصاد ومعبود سموه (من) كنوا به عن الخصب . ولم يقتصر الحال على ذلك فتخيلوا ان في الآخرة حقولاً كثيرة القمح وان قمحها يفوق قمح النيل طولاً وسيأتي ذكرها

وتأثرت الصناعات والفنون الجميلة بأحوالهم الزراعية . فصنعوا عمدهم على شكل النخيل وزهر اللوطس (البشنين) وميقات البردي . وجعلوا ارجل مقاعدهم بهيئة ارجل الحيوانات . حتى ادوات الزينة صنعوها على شكل حيوانات وحشرات كالجراد مثلاً . وأثرت الزراعة ايضاً في معلوماتهم ومعارفهم فكوّنت عدداً كبيراً من احرف الخط الهيرغليفي يعدّ بالمئات منها الطيور والحيوانات الوحشية والداجنة والحشرات والنباتات واجزاء النباتات مما هو معلوم عند علماء تلك اللغة

وتأصلت المعيشة الزراعية في حكومة البلاد فسبقوا اسم الملك برسم فرع البردي (وهو رمز الوجه القبلي) وبرسم النحلة (وهو رمز الوجه البحري) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له. ويصحب هذه الرسوم غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز «نخبت» معبودة مدينة الكاب حامية الوجه القبلي) والنسر (وهو رمز «بوتو» معبودة حامية الوجه البحري المسماة بوتو ايضاً). ويشاهد النسر على رؤوس التماثيل الملكية ليحميهم من الاذى كما هو الحال في تمثال الملك (خفرع) المحفوظ بدار تحف القاهرة

كل هذه المعلومات تظهر للقارىء شأن الزراعة المصرية القديمة وكيف تدوجت من اقدم العصور الى زمننا هذا. ولاستقصاء ذلك يجب الرجوع الى ما كتبه المؤرخون مثل هيرودوتس وبلنيوس والى الرسوم الزراعية الواردة على الآثار والى الاوراق البردية والى النباتات والزهور التي وصلت الينا محفوظة مع ادوات الموتى ومومياتهم والى الحيوانات المحنطة

اما أهم النقوش الزراعية القديمة فهي الواردة في مقابر اكابر القوم. وهذه توجد عادة في مختلف جهات القطر بحسب عصرها. فمقابر المملكة القديمة (٢٩٠٠ — ٢٤٧٥ ق. م.) تكثر في منطقة الاهرام كأبي صير وسقارة وميدوم والجيزة. ونقوش هذه المقابر متقنة الصنع عادة وتحوي مناظر حامية لطرق المعيشة الزراعية وقتئذٍ. وكان رائد الحفار حينذاك اثبات الحقائق فجاءت رسومه قريبة جداً من الحقيقة. ولما دخلت مصر في عهد الاقطاع (٢٤٧٥ — ٢٠٠٠ ق. م.) تفرقت المراجع الزراعية الى عدة جهات بالقطر مثل بني حسن ودير الجبراوي واسيوط وسير. لكن يلاحظ ان الحفار في تلك العصور كان رائده اثبات ما يمكن ان يؤثر في نفوس الزائرين دون توخي الحقيقة بقدر الامكان. اما مقابر اسوان التي يرجع تاريخها الى هذا العهد فتكاد تكون معدومة النقوش اللهم الا القليل منها وذلك حول مدخلها الخارجي. ومقابر عصر المملكة الوسطى (٢٠٠٠—١٧٨٨ ق.م.) ليست دائماً حافلة بالنقوش. ولما جاء عهد الامبراطورية (١٥٨٠— ١٢٠٠ ق.م.) كان همّ القوم اثبات ما كان يهم المملكة القديمة اثباته وذلك بقصد الزخرفة والزينة في معظم الاحوال

ولقد ساعدتنا رسوم المقابر المذكورة على تفهم الشيء الكثير من الحياة الزراعية والريفية بالقطر المصري لان الغرض من اثباتها في المقابر كان يقصد به انقلابها بصورة حقيقية في الدار الآخرة كي يجد الميت في اخراه ما كان يتمناه في دنياه. وكثيراً ما يشاهد منقوشاً على الواح المقابر القديمة دعوات محررة «لاعطاء المتوفى آلافاً من ارغفة الخبز وقوارير الجعة والثيران والاوز واقشة الكتان وكل الاشياء الجيدة النقية بكميات لا تحصى ...»

وزيادة في اثبات رغبتهم في الحصول على الغذاء في الدار الآخرة اهتم القوم بنقش كل الاجراءات التي تعمل في الدنيا للحصول على الخبز وذلك على جدران مقابرهم. فنقشوا طرق

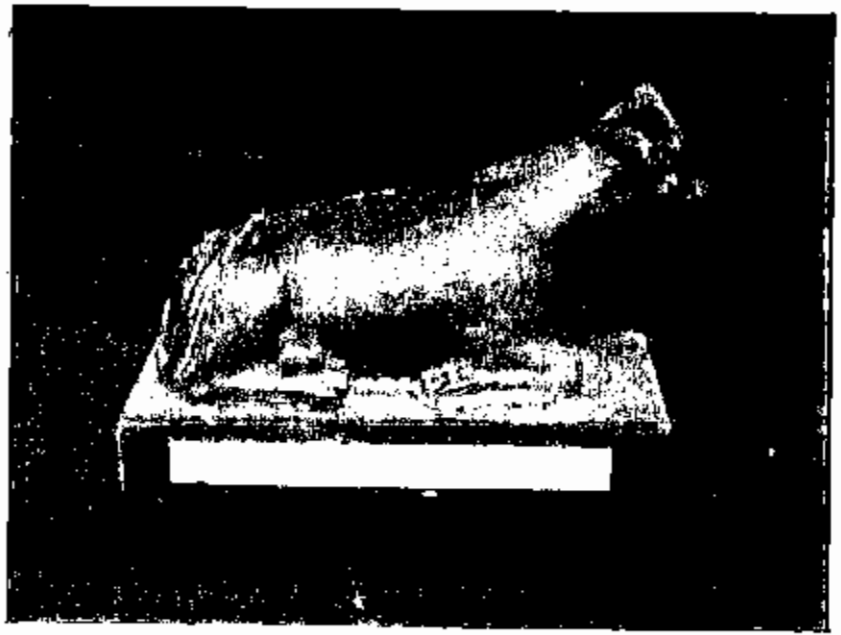

الثور المقدّس أبيس
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

امام صفحة ٥٥٧

الحرث والبذر وحفر الارافي وضم المحاصيل وذرّ الحبوب ودرسها وخزنها في الاهراءات بل وحتى طريقة طحن القمح وعمل الخبز . وكان من اثر الزراعة في اذهانهم انهم تخيلوا ثم رسموا الجنة التي كانوا يمنون انفسهم بالمعيشة فيها بعد الممات . واهم هذه المناظر هي الخاصة بالزراعة والنزهة في الحقول والمستنقعات واعتبروا ان قيام الميت بأعمال الزراعة في آخرته من الامور المسلّية الشوّقة

ومن القصص القديمة التي يرجع تاريخها الى عصر رمسيس الثاني ما تناولت امور الفلاحة وهي تعرف بقصّة الاخوين تتلخص في ان اخوين عاشا معاً في كوخ في أحد الحقول وكان اكبرهما متزوجاً وقابعاً على زمام البيت . اما الاصغر فكان عائشاً معه كابن له . فصيت نفس زوجة الكبير الى الصغير فردّها . عندئذ ارادت ان تكيد له فوشت في حقه عند اخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من اخيه واراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الاخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الامر وأسرّت الى راعيها بما يضمر له اخوه الكبير . فما علم ذلك فرّ هارباً خوفاً من القتل . ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتمشى مع ماجاء اولاً من مطابقتها للواقع . والتأمل في هذه الحكاية يجد القارىء في جزئها الاول شبهاً بقصة سيدنا يوسف النرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل وجاء شرحها في الذكر الحكيم

ونذكر للقارىء هنا بياناً موجزاً للنباتات المصرية القديمة بعضها مصري الاصل والبعض الآخر اجنبي دخل القطر المصري من البلدان المجاورة . وتنقسم هذه النباتات الى قسمين : —

القسم الاول : وهو النباتات الكثيرة الانتشار في القطر قديماً حتى لم يهتم المصريون كثيراً بزراعتها لوفرتها وهذه اما (نباتات خشبية) اي التي استعملوا خشبها في الادوات المعاشية مثل النخيل والدوم والجميز والتبخ والسنط او (نباتات ذات فاكهة) مثل التين او (نباتات ليفية) مثل البردي والاعشاب والقنب او (نباتات برية) مثل البشنين الازرق والابيض او (نباتات طبية) مثل الينسون والشبت والنعناع والحلبان وابر النوم والكمون والعرعر

القسم الثاني : ويشمل النباتات التي اعتنى القوم بزراعتها وهذه تتلخص في (الحبوب) مثل القمح والشعير و(الخضراوات) مثل الفول والعدس والبصلة والبامية والملوخية والخيار والبطيخ والثوم والكرفس والخس والكرنب والجرجير والعجل والبصل و(التوابل) مثل السمسم والكزبرة و(النباتات الزاحفة) كالعنب و(النباتات الصناعية) كالكتّان و(نباتات الصباغة) كالقرطم والنيلة والحنا و(النباتات الزيتية) كالزيتون و(نباتات الزينة والعطريات) كالورد والاراولة والنرجس

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر بالايجاز شيئاً عن جغرافية مصر القديمة وطريقة تقسيمها لخطر ذلك من الوجهة الزراعية . والمعروف ان جغرافية الجزء الواقع بين منطقة الشلالات والقاهرة لم تتغير تغيراً يذكر منذ أقدم العصور التاريخية . اما الجزء المعروف

الآن بالدلتا فكان عرضة لكثير من التغير . ففروع النيل بلغ عددها في اكثر الازمنة سبعة وكانت تعرف وقتئذٍ بالاشاتيم وهذه كانت تسمى بالاقاليم التي كانت تمرّ بها فكان يطلق عليها مثلاً « البلوزي والتنيسي والمنديسي والسمنودي والدمنوبي الخ » . اما الآن فلم يبق منها الاّ فرعا دمياط ورشيد

وكانت مصر مقسمة قديماً الى قسمين الوجه القبلي وابتداؤه من اسوان الى دهشور وتاج ملكه ابيض والوجه البحري ويبتدىء من دهشور الى البحر الابيض المتوسط وتاج ملكه احمر . فلما ضمّ هذان القسمان لملك واحد تحت هذا الملك بسيد القطرين . ومن مجموع هذين القسمين تكوّنت مملكة الفراعنة . فمتى حكم ملك على مصر قاطبة جاز له ان يجلس على كرسي مرسوم عليه البردي واللوطس حول اشارة دالة على اجتماع الوجه البحري والقبلي معاً

ثم انقسمت مصر بعد ذلك الى ثلاثة أقسام . الاول مصر العليا اي الصعيد الأعلى وهو المحصور بين سلسلتين من الجبال غير مرتفعتين يمتد من اسوان جنوباً الى العرابة المدفونة (قرب البلينا) شمالاً . والثاني مصر الوسطى ويسمى عند اليونان تابيد يمتد من العرابة المدفونة الى القاهرة . والثالث الوجه البحري ويقال له باليونانية الدلتا لشبهه بهذا الحرف عندهم ويمتد من القاهرة جنوباً الى البحر الابيض المتوسط شمالاً . وكان هذا القسم منذ حوالي سبعة آلاف سنة بحيرة من الماء تمتد الى بحيرة موريس جهة الفيوم خوّطها النيل للارض خصبة

اما اقسام مصر القديمة (وهي اشبه كثيراً بمديرياتنا) فكان عددها يختلف باختلاف الدول وكانت احداها تارة في الزيادة وتارة في النقص في العهد الفرعوني والبطالسي والروماني والاسلامي حتى انتهى الأمر بتقسيمها الحالي . فالآثار ومؤرخو اليونان أثبتوا انقسامها تارة الى ٣٦ قسماً وتارة الى ٤٠ او الى ٤٤ وطوراً الى خمسين قسماً . والسبب في ذلك ما كان من التنازع بين الأمم والأمراء المالكين للأقسام او من الحروب الاهلية او الزواج او الفتوحات او غيرها مما يستوجب انتقال الملكية من يد الى اخرى وقد نقشت اسماء الاقسام في معبد كلابشة والكرنك ودندرة والعرابة المدفونة ورسمت لها صور على حيطان المعابد بهيئة صور النيل تقدم للملك الحاكم محصولات الأرض . ثم حددت هذه الاقسام (وكان يقال لكل منها حبت) بأحجار مكتوبة وكان كل قسم يحوي قاعدة (وتسمى نويت) وبندر ومركز المدينة ومركز الديانة واراضي الزراعة واراضي المستنقعات التي كانت تستعمل مرعى وزراعة البردي واللوطس وصيد الطيور ثم الترع الخارجة من النيل لري الأراضي وللملاحة . وكان يعين لكل قسم حاكم من بيت الملك يقال له (حق) وعلى سكان كل قسم ان يدفعوا للملك الاتاوات المقررة عليهم من محصول الارض حسب الايراد كما كان عليهم ان يوردوا رجال العسكرية والسخرة لانجاز الأعمال اللازمة للمنافع العمومية مثل اصلاح معبد او بناء قلعة او جسر او مد طريق او شق ترعة

نافذة

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث تمخر السفن متجهة الى اقاصي الارض او عائدة منها
حيث الأشرعة للتنفخة ودخان البواخر تشير اليّ
بأن اترك غرفتي للبحث في تيهِ الاشكال الدائمة التغيُّر
تبدعها الشمس والغيوم والرياح والامواج
وتدعوني الاجواء القصية الى المغامرة في بلدان اجهلها

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث استطيع ان اقف : فأراقب العاصفة المجتاحة
واشعر برعد الموج مصطدماً بالياسة
واحسُّ في الليلة الهادئة بالمدِّ مرتفعاً تحت النجوم
واسمع في همس الماء المترمل ، الصوت الضئيل الهادئ
صوتَ مَن في كفهِ المحيطات

يا ليت لي نافذة تطلُّ منها نفسي على البحر
فتتعرَّف معنى الاشياء التي من وراء البصر الانساني
تلك العجائب التي قد تغريني بالخروج من غرفتي الارضية
للبحث في تيهِ الله الحافل بالاسرار
فأذهب مغامراً في عوالم لا يعرفها انسان

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر

٢ – استدراك على معجم الحيوان

لتفريق الدكتور امين باشا المعلوف

اوردت في الجزء الماضي من المقتطف بعض انواع السمك التي ذكرها المسيو غريفل وفي ما يلي انواع غيرها ذكرها في كتابه

فصيلة الإسفرني Sphyrénidés. E. Shyraenidae

قال ليس منها في سواحل الشام الاَّ النوع الآتي

الإسفيرني Le Spet ou Sphyrène Spet. E. Spet or Barracuda. (Sphyraena Spet, Lacep. = S. vulgaris, C. V.)

قال هو كثير في سواحل الشام والاهلون[1] يسمونهُ الاسفرني . قلت ذكرته في ص ٢٩ وص٢٣٣ من معجم الحيوان واغا لم اذكر اسمهُ النوعي وهو على ما اورده المسيو غريفل كما تقدم

فصيلة الصير او المانرن Menidés. Les Menides ou Mendoles ou Picarels. E. Maenidae

سمك صغار دقاق لا تزيد الواحدة منها على ١٥ او ٢٠ سنتيمتراً قال ميّزنا نوعين منها

السمارس المعروف Picarel vulgaire (Smaris vulgaris, C. V.)

سمارس القيرلي او صياد السمك Picarel martin-pecheur (Smaris alcedo, C. V.)

لم يذكر المسيو غريفل اسماً عربيًّا للفصيلة المتقدمة ولا لهذين النوعين واغا ذكرت السمارس في المقتطف ٣٩ : ٣٤٢ وهاتين ذكره في معجم الحيوان . اما المانرن فذكره لكلير في المادة ٢٠٧٥ من مفردات ابن البيطار واللفظة لاتينية من اصل يوناني . واما الصير فمن دد سامي كما ذكرت في المقتطف وفي معجم الحيوان ص ١٠

فصيلة الاسبور او الاسبوريات Sparidés. E. Sparidae

قال هي كثيرة في سواحل الشام وذكر انواعاً منها ما يأتي

السرغوس Sar ou Sargue. E. Sargo (Sargus Rondeletti, C. V.)

قال هو كثير في البحر المتوسط لاسيما في اسواق الاسكندرية وبورت سعيد وبيروت والاهلون يسمونهُ السرغوس . قلت ذكرت هذا النوع من السمك في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص٨٤ وص٢١٢ اما الاسم العلمي الذي اعتمده المسيو غريفل فكما تقدم

السَّرب Le Bogue saupe ou Saupe. E. Boce or Bogue or Bogue salpa (Box Salpa, Cuv.)

لم يذكر له المسيو غريفل اسماً عربيًّا واغا ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ٦٣ وكلاهما باسم عمي غير هذا والصواب ما ذكره المسيو غريفل

---

(١) ترجمت اللفظة التي استعملها المسيو غريفل اي Indigénes باللفظة المتقدمة اي الاهلون ولم أقل « الوطنيون » وكنت اود لو اجتنب المسيو غريفل ما يجرح شواعر السوريين باستعمال هذه اللفظة وعسى انه اذا عاد الى سورية وكتب عنها وعن السوريين يقول « السوريون » كما اعتاد الانكليز ان يقولوا عن العراقيين Natives واغا البحث هنا بحث علمي لا بحث سياسي وربما كتبت في ذلك مقالة في جريدة يومية

السرب المعروف Le Bogue Commun. E. Common boce or Bogue (Box vulgaris, C. V. = Box boops, L.)

اما في شركة المعايف فهو سمك موسى ولكن سمك موسى سمك مشهور هو غير هذا ولعلّ السرب الذي ذكره ده ساسي على ما قلت في المقتطف هو هذا والذي قبله فانهُ سمع لفظة شَرْب بالمعجمة عن جفروي وكلاهما تتة يعوّل عليه . اما لفظة شرب التي قال جفروي انها اسم هذا السمك في الاسكندرية ولفظة السرب على ما جاء في كتاب الافادة والاعتبار واللفظة اللاتينية المتقدمة من اصل واحد قديم في البحر المتوسط

قَجَاج . نجار . دجاج البحر Le Pagre vulgaire. E. Red porgy, Braize or Becker. (Pagrus vulgaris, Cuv.)

ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ١٨١ و٢٣٢ وقلت من اسمائه ما تقدم. وذكر المسيو غريفل القجاج اي ان اهل بيروت يقولون كما يقول اهل دمياط . ثم ان ارسطو ذكر هذا النوع من السمك وقال مترجم كتاب ارسطو في حاشية له انه نقل عن ابستوليدس ان اسمه مرجان في استانبول اي يسمونه باسم الفريدي المعروف بالمرجان في الاسكندرية وسيأتي ذكره اي ان المرجان يطلق على هذا النوع من السمك وعلى الفريدي

فريدي في سواحل الشام Le Pageau ou Pagel Commun. (Pagellus erythrinus, L.)

مرجان في الاسكندرية . فالفريدي عن المسيو غريفل والمرجان مما اعرفه في مصر والاسكندرية

جَربيديّ في سواحل الشام . Le Rousseau (Pagellus centrodontus, Delar)

كحلاء في الاسكندرية . الجربيدي عن المسيو غريفل والكحلاء مما اعرفه في الاسكندرية

حفّار . مُرْمار Le Mormyre (Pagellus mormyrus, L.)

ذكرته في ص ٦٣ من معجم الحيوان باسم علي آخر والصواب هو هذا . ولم يذكر المسيو غريفل الحفّار وقد اخذتهُ عن فورسكال وكلوزنجر . واما المرمار فعن جفروي

ثم ان اسم الجنس في هذه الانواع الثلاثة يرتاني الاصل اي تصغير Pagros وهو اسم القجاج الذي تقدم ذكره. اما الاسم النوعي للفريدي او المرجان فمعناه الاحمر . ثم ان هذا الجنس اي Pagellus متحجر في سواحل لبنان وهو كثير في المعاملتين من اعمال كسروان ولكنني لا اعلم اي نوع منهُ هل هو الفريدي اي الاول او الجربيدي اي الثاني او الحفّار اي الثالث وارجح انهُ الثالث اي الحفّار

مَرْجان La Daurade vulgaire ou Dorée. E. Gilthead (Chrysophris aurata, C.V.)

او مرجان ذهبي الرأس : لم يذكر له اسماً عربيًّا ولا اعرف له اسماً غير المرجان ولعلّ اصلح اسم له هو المرجان المذهب او المرجان الذهبي الرأس . اما اسمه الجنسي فمعناه الذهبي الحليب

نقّار . قر Le Denté (Dentex vulgaris, Cuv.)

لم يذكر له اسماً عربيًّا اما النقّار والقمّر فعن كلوزنجر فقد ذكر انواعاً كثيرة من هذا الجنس وسماها بهذين الاسمين وهما معروفان في البحر الاحمر

ابن خلدون والنقد الحديث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عن كتابه « ابن خلدون : حياتهُ وتراثهُ الفكري »

ابن خلدون كما تصورهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم اجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لانهم ظهروا في عصور الاسلام الفتية الزاهرة او لأنهم تناولوا نواحي عني بها التفكير الغربي [1] . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر سرى فيهِ الانحلال الى صولة الاسلام وسيادته ، وانسحلَ التفكير الاسلامي ، فلم يكن اجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغموراً في

---

(١) عرف العرب مؤرخين مثل المسعودي وابي الفدا وابن العبري وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) في انكلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر

الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفي سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو » الشرقية اول ترجمة غربية . وهي ترجمة موجزة قياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك اكثر من قرن قبل ان يعنى التفكير الغربي بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسي سلفستردي ساسي سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة في قاموسه Chrestomathie Arabe ثم نشر بعد ذلك باعوام ترجمة لمقتطفات اخرى من المقدمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة اوفى لابن خلدون في قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدمة ابن خلدون. وفي نفس الوقت نشر المستشرق النمسوي فون هامار رسالة بالالمانية عن « اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة »، تعرض فيها لبعض نظريات ابن خلدون في انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة المانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض اجزاء المقدمة في « المجلة الاسيوية[1] ». واستمر دي ساسي وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون او تاريخه ، والبحث الغربي فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨ ، ونشر دي سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة ، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصور

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان اعجب ما في هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي الا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . اجل اكتشف النقد الغربي لدهشته واعجابه في تراث ابن خلدون كثيراً مما رددته مكيافيللي بعده بقرون ، وما رددته ڤيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث . واوجست كونت[2] بعده بقرون . وكان المعتقد ان البحث الغربي اول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الاجتماع ، واصول الاقتصاد السياسي ، فاذا ابن خلدون يسبقه بعصور ويفزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيراً

(١) « المقتطف » — على من شاء معرفة المراجع التي اعتمد عليها المؤلف ان يراجعها في كتابه

(٢) مكيافللي مؤرخ وسياسي ايطالي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وڤيكو مؤرخ وفيلسوف ايطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعي فرنسي (١٦٨٩ — ١٧٥٥) وآدم سمث اقتصادي انكليزي (١٧٢٣ — ١٧٩٠) واوجست كونت فيلسوف فرنسي وهو واضع اصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة. ومن ثمَّ فانا نرى النقد الغربي ، بعد ان اكتشفهُ ودرسه، يرتفع بتراثه الى اسمى مكانة ، وينظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي ، بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون اول ما عنى النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت ان لفتت انظار طائفة من علماء الاجتماع ، واخذت تتفوّق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً في النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوي الكبير البارون فون كريمر، فكتب عنه بالالمانية رسالته الشهيرة «ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية» وقدمها لاكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistriker يؤرخ حضارة الشعوب الاسلامية ، لانه من بين المؤرخين المسلمين اول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وانواع الحكم، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطورها في الدول الاسلامية ؛ وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب والمعاش، ثم عن العلوم والفنون والآداب واصنافها واحوالها وتطورها في العالم الاسلامي وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لان ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة او لذاتها وانما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

.....

ويعتبر دي بوير (الهولندي) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعهُ في ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن الطفيل ، وينوّه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ويصفه بانه مفكر متزن ، فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية ، بمبادىء الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصي او لاعتبار سياسي . بيد ان الدين لم يؤثر في آرائه العلمية بقدر ما اثرت الارسطوطالية الافلاطونية. وقد اثرت في تكوين ذهنيته جمهورية افلاطون وفلسفة فيثاغورس الافلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية لاسلافه المشارقة ولاسيما المسعودي ، ايما تأثير . وقد حاول ابن خلدون ان يؤسس نظاماً سياسياً جديداً لم يجل بذهن ارسطو ، وان يجعل من التاريخ نظاماً فلسفياً ، وهو يقول لنا

ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع كلها وتفاعله الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحققون اقوالهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يُلهمون اخيراً في ظل حياة الحضر رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دي بوير ان ابن خلدون هو بلا ريب اول من حاول ان يشرح بدقة تطور المجتمع وتقدمه لاسباب وعلل معينة ، وان يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها ، وأثرها في تكوين ذهن الانسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختتم دي بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار امل ابن خلدون في ان يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الاسلام ، فكما انهُ كان دون سلف ، فكذلك بقي دون خلف »

— ٢ —

بيد ان النقد الغربي كان اكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الاعجاب والتقدير ، وعني كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات اقطاب المحدثين

ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعي لدفيج جمبلوفتش ، فهو يخصص لابن خلدون في مباحثه الاجتماعية فصلاً كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعي او من علماء الاجتماع . ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين انه قد سبق في كثير من هذه الآراء اقطاب الاجتماع المحدثين ، فهو مثلاً قد اهتدى الى نظرية الاجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الاسر وانحلالها قبل ان يعرضها اوغوكار لورنتس في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته من تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف ان هذه الجماعات نفسها انما هي ثمرة الوسط . وآراؤه في هذا المقام عن الاجناس الغالبة في منتهى الخطر . وفي اقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على انه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل ان يعرفه داروين بخمسة قرون ، وفي يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ما يدل على انه عرف مبدأ « وحدة المادة» قبل ان يعرفه هيكيل [1] . ومن المدهش ان نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي اثبت البحث التاريخي الحديث ان مؤسسي الدول الاوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه الدعائم التي

(١) ارنست هيكيل علامة بيولوجي وطبيعي الماني (١٨٣٤ — ١٩١٩)

أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرن الى الحكام في كتابه « الامير » . وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفي صيغتها الرقمية الخشنة ، كان من المستطاع ان يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب. هذا وقد استطاع ابن خلدون ان يقرر منذ خمسة قرون اصل السلطتين الروحية والزمنية، كما يقررها اساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي

واخيراً يقول جيلوفتش : « لقد أردنا ان ندلل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منه اول اجتماعي اوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وآتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع »

وفي نفس الوقت الذي أدلى فيه جيلوفتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعي ايطالي هو فريرو فأيد وصف جيلوفتش لابن خلدون بأنه « اجتماعي » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان . ويوافقهما في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليڤين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً «اجتماعياً»

ودرس مسيو موتيه استاذنا السابق بكلية الحقوق، ابن خلدون من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحثين قويين ، يتناول في اولهما آراء ابن خلدون الاقتصادية وفي الثاني آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية، وموسوعة لعلوم العصر، وتحتوي على اجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع. وطريقتها بالاخص بديعة تدل على ذهن علمي حق. واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى، فهي مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث، وهي مرآة الواقع. وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » ثم يحلل مسيو موتيه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ، ويصفها بقوله : « واذا فان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس الا حلقة في مجرى الاشياء الكوني ، وهو يفنى كما يفنى كل شيء . والحياة كالرّوي ، وكل تغير يقتضي عكسهُ ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط . . . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وانما يشاهد . وهو بذلك يدلُّ على ذهنية عالية حقة . وبذا يجب ان يفسح لهُ مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »

ويتوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر ان ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود بعيدة ، ويقارنهُ في ذلك بأبي العلاء المعري. ويعتقد ان مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الاسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن

خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون وما بثّت في نفسه من مرارة وخيبة امل. على ان كثيراً من الناحية الوقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة . ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة في اخلاقه، ولكنهُ صفة التفكيره فقط . ونتيجة للبحث والدرس . اما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدلُّ حوادث حياته اكثر ميلاً الى الثقة والابتهاج والتفاؤل

ويدرس الكاتب الالماني فون قيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها ويرى فيهِ ذهناً وافر الابتكار ، ومثلاً اعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير الاسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ، ويرى فيهِ بحق إماماً لمدرستي مكيافيللي وفيكو ، ويحاول ان يطبق نظرياته في سقوط الدول والاسر على الامبراطورية الالمانية والدول الاوربية فيقول : « وقد يلوح للالماني في الوقت الحاضر ان هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر اجنبي ، فان الامبراطورية الالمانية لم تعمر طويلاً ثم ذوى غصنها غضًّا الى عالم الفناء بسرعة خارقة ، فهل يجب ان نبحث لتلك المأساة عن اسباب غير تلك التي اوردها الكاتب العربي عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ويطبق ما كان يشعر بهِ او يدعو اليهِ على اوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه. وتدوي ميول المفكر والسياسي الافريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دويًّا يتردد صداه في عالم افكار عصرنا »

— ٣ —

درس الاستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية اخرى هي الناحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادىء بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمي اليها ، يمكن ان يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوَّأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجاري مكيافللي كمؤرخ ، لانه لم يعرف او لم يرد ان يطبّق المبادىء التي عرضها في مقدمته ليشرح اسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكيافللي ومونتسكيو وفيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوَّه بها أمارى المستشرق والمؤرخ الايطالي الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب في العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الجبر الاجتماعي » ويرى انها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن اجيال البدو والحضر وهي: « ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش »

على ان كلوزيو ينوه بالاخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربري العظيم استطاع في العصور الوسطى ان يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كوندسيدران وماركس وباكونين» (١) ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وانواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله ان ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل ان يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة ، ويختم بحثه بما يأتي : « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعهُ في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمهُ للدور الذي يؤديه العمل والملكية والاجور يضعهُ في مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين

— ٤ —

ومن احدث البحوث النقدية في دراسة ابن خلدون رسالة للاستاذ ناثانيل شميت الاستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ، درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي . ويرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون كمؤرخ يمكن ان يوضع في صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلي ، وفلاوس الدمشقي او تروجوس پومپيوس ممن كتبوا في القرن الاول الميلادي ، او مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جانيرو وشيلينسر ، وهذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الاتقان بالمصادر القديمة او في الرواية الاصلية ، ولو ان ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسي ، لكان أثراً يقيء عن همة لا تنفد ، وغزارة في المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ، بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الاثير . على ان حق ابن خلدون في الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الاثر المدهش الذي كتبهُ مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته في روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين ندديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعتهُ ، وهو بلا ريب صادق حين يقول ان احداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، واذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء اعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم ان نقول ان ابن خلدون كان بحق اول كاتب استطاع ان يعرّف موضوع التاريخ

(١) كوندسيدران اشتراكي فرنسي له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادي واشتراكي الماني كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ومؤلف اعظم كتاب في الاشتراكية (رأس المال) ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعي واقتصادي روسي ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦)

بهذه الصورة ، وان ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . بل لم يقل احد غير ابن خلدون ان التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية في حياة الانسان . فاذا كان يجدر بنا ان نتوسع في فهم التاريخ الى هذا الحد ، واذا كان التاريخ علماً ، فان التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنهُ ليس له سلف فيما يظهر . ومن حقه ان يعتبر انهُ المكتشف . وهنا بلا ريب اروع ابتكاراته واكثرها طرافة ، وان كان ذهنه الناقد قد شقَّ طرقاً جديدة في نواحٍ كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والاطماع ، والى الاغراض والغايات ، والى قوة الارادة ، وقوة الذهن لدى الافراد ، ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ، ولكنها تخضع ايضاً للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على ان يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى انها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ ايضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . واذاً فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي ، ان ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولكي نفهم هذه يجب ان نحسب حساباً للعوامل الطبيعية . ومن ثمَّ كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الانساني : واذاً فهو علم الاجتماع . ثم يقول الاستاذ شميت ان ابن خلدون رغم طابعه الاسلامي انما هو فيلسوف مثل اوجست كونت ، وتوماس بكل ، وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هجل [1] تحليلاً للقضاء والقدر . واذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فان الاستاذ شميت يرى مع معظم النقدة ان ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالاخص مع جمبلوفتش ان الاجتماع وجد قبل اوجست كونت بعصور طويلة ، وان ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وانه فيما عالج من خواص العادة والاقليم ، والارض ، والغذاء ، قد سبق موتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم

وينقل الاستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الاسباني التاميرا : « كفى انهُ في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الاوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كتب كتاب كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التي غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين »

---

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعي انكليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهجل فيلسوف المانى كبير . درس فلسفة الدين والروحيات والالهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١) —

المعجم المحرَّر

في حاجة الى المباني والتخريج

حقَّق الله الأمل المنشود . فأصدر صاحب الجلالة احمد فؤاد ملك مصر المعظم ايَّده الله امره المطاع بتأليف « مجمع اللغة العربية الملكي » ليلي إنشاء معجم صحيح الوضع يأتي على مباني موادّ اللغة من المباني والمعاني معيداً الفروع الى اصولها فلا يأتي بصيغ الجموع ولا مفرَدَ لها كما ورد في القاموس والمعاجم التي تلتها عنهُ ولا بصيغ المفرد ولا جموع لها او بغير استيفاء صيغ جموعها ويزيل ما في المعاجم من الخلل ويكشف النقاب عن وجوه لا يهتدى اليها لغموضها ويقف موقف الحكم العدل في القضايا التي جاءت نصوص المعاجم فيها متعارضة . فهذا العمل الشاقُّ لا غنى له عن الاستعانة بعلم المباني والتخريج . فما المباني . وما التخريج

المبانى

يورد التصريف للفعل الثلاثي ستة اوزان عن تحريك عين الفعل بالفتح والضم والكسر ماضياً معلوماً ومضارعاً ثم ينصرف الى الامر فالمصادر فالمشتقات فالمزيدات فمشتقاتها فالاعلال فالادغام فما الى هنالك من نسبة وتصغير ومثنى وجمع

فيأتي المباني وينظر في الاوزان الستة ثم يوزّع كل وزن طوائف وهذه الطوائف منها اصول ومنها ملحقات ولكل طائفة مصادرها ومشتقاتها . فلكل طائفة معنىً خاصٌّ له معنىً خاص فاذا اختلفت المباني اختلفت المعاني واذا تعدَّدت المعاني تعدَّدت الطوائف . فيكون للمبنى الواحد معانٍ متعددة فيأتي كل معنىً من طائفة وكل طائفة تعود الى وزن

وهذا كلامٌ مجمل لا يخلو من غموض فأوضحه بالتمثيل هكذا اولاً جاء في مادة « ك م ل » في احد المعاجم « كَمَل يَكْمُل وكَمِل يَكْمَل وكَمُل يَكْمُل كمالاً وكُمُولاً من باب نَصَر وهي أفصح ومن باب علم وهي اردأها ومن باب كرُم او الكمال اسم تمّ »

فمضمون هذا القول ان مادة « ك م ل » وردت على ثلاثة اوزان والمعنى واحد والاتفاق واقع على ان المصدر هو الكَمُول واما الكمال فمختلف فيه بين انهُ مصدر او اسم مصدر . فلدى هذا النصّ لنا ما يأتي

ا — للأئمة مذهبان في المصدر والفعل الماضي فذهب بأصالة المصدر ومجيء الفعل عنهُ ومذهب بأصالة الفعل ومجيء المصدر عنهُ . فان كان الفعلُ الاصلَ فهنا ثلاثة اوزان لها مصدر على قول او مصدران على قول آخر . فهل كل وزن له المصدران اوالكميل مصدر والكمَل مصدر وان كان المصدرُ الاصلَ فكيف جاءت الافعال الثلاثة لمصدرين او لمصدر واحد . .

ب — ما الدليل على أن كَمُولاً اعرق من كامل في المصدرية ولماذا يمتنع ان يكون كامل اعرق من كمول ولماذا وقع الخلاف في كمال بين انهُ مصدر او اسم مصدر وابن الدليل على انهُ اسم او مصدر . ولماذا تعذر البتُّ في حقيقة كمال

ت — لم تتعدد الاوزان في « ك م ل » الاَّ عن تعدُّد المعاني في هذه المادة فلكَمِل معنى لا يؤدّيهِ كَمَل ولا كَمُل . وكَمَل في معناها الخاص بها هي الفصحى وما سواها ليس فصيحاً فالقول فيها انها « اردأها » ليس لهُ مستند ولا دليل بل الدليل ينقضهُ

ث — لنميز بين معاني كَمَل وكَمِل وكَمُل اورد قول الشاعر

فتىً كملت أخلاقُهُ غير انهُ جوادٌ فلا يُبقي على المالِ باقيا

واسأل هكذا ما الفرق بين ضبط كمل بالفتح او بالكسر او بالضمّ وأيٌّ منها يظهر ان الشاعر أراده . ثانياً « حرص على الشيء حرْصاً (بكسر وسكون في المصدر) من بابي علم وضرب بمعنى جشع » فكيف جاء للوزنين مصدر واحدٌ . وكيف تضبط قول الشاعر

إحرصْ على الشيَم التي كرمت آثارها في الأعصُر الأُوَلِ

وقول الآخر

إحرصْ على نشَبٍ تجمّعُهُ بالجهدِ او ما أورث الولَدُ

أمن وزنٍ واحد هما او من وزنين وأين الضبط بكسر الراء لا بالفتح او بالفتح لا بالكسر فان الصرف ومتن اللغة يوردان حرَص وحرِص معاً

ثالثاً — جاءت الآية « ويأبى الله الاَّ ان يتمَّ نورهُ » فما الفرق في المعنى بين ضبط يأبي كيرمي مضارع رمى ويأبَى كيرضى مضارع رَضيَ وأي المعنيين اولى بالآية

***

هذه الدقائق لعلم المباني ولا يقتصر عليها فهو يبحث المصادر والمشتقات والجموع. فقد ورد في جمع فاعل فَعَل وفُعُل وفِعِل كصَحْب لصاحب وحُجّ لحاج وولَد لوالد فعلام جاء صَحْب بالفتح لا بالضم وحُجّ بالضم لا بالكسر وولد بالكسر لا بالفتح

وجاء في غازٍ غازونَ وغزوٌ وغازية وغزاة وغُزِيٌّ (بفتح فكسر) وغُزيٌّ (بضم فكسر)

وغُزَّى (بضم فشدة فألف مقصورة) فغزّاء (بضم فشدة فألف ممدودة فهمزة) ولم تأتِ هذه الصيغ الا عن تفاوت في معانيها وليس في التصريف ولا متن اللغة جلاء عن هذا التفاوت

وذكرت المعاجم شاب فهو اشيب ج شِيبٌ وشُيَّب وشُيُب وروى معجم البلدان في مادة مسكن قتلتُ به من حي فهد بن مالك . ثمانين منهم ناشئون وأشيبُ

فما ضبط اشيب. أبفتح الياء على انهُ مفرد او بالضمّ على انهُ جمع او هو تحريف عن شُيَّب وما شأن اشيُب لو ثبت انهُ جمع . وما الفرق بين شيب وشُيَّب وشُيُب . وهل من جموع القبيل صيغة فَعَل فتأتي لفاعل ولغيره او لفاعلٍ دون سواه كهُجَّد وزُوَّر وعُوَّد وان خُرَّداً لجاردة لا لخريدة هذه شؤون يبحثها علم المباني فهو من التصريف كالمعاني من النحو وقد اهتدى اليه المرحوم ظاهر خيرّ الله والدي ولم يتسنَّ له نشرهُ فهو مطويٌّ في اوراقه

التخريج

هو من المباني كالاعراب من النحو وكما يسمح لك ان تعرب برز زيد فجأة فهو نائب مناب مفعول مطلق تقول في صحاب انهُ جمع صاحب كقيام جمع قائم او جمع صَحيب مثل رِفاق جمع رفيق وكما يرجح في النحو مذهب على مذهب يرجح في المباني ايضاً

فمن التخريج الفرق بين جُدُد بضمتين وجُدَد بضم ففتح في جمع جديد وكيف جاء شجاع بكسر الاول في جموع شُجاع بضم الاول وسُرّى في جمع سريٍّ وكيف يحلّ الخلاف في كماة أجمعُ كام هو او جمع كميّ وان سراة جمع لسار لا اسم جمع لسَريٍّ . وقد اوردت في كتابي الرأي الخامس نقد صيَغ جمع سوار بمعنى قُلُب وهي أسورة وأساور وأساورة وسُوُر وسُؤور فاستغرق النقد ١٠ صفحات . وأبنت ان المعجم أغفل ثلاث صيغ جمع واقول ان فِعالاً لا يجمَع على أفاعل بل على فعائل مثل شمال وشمائل وإثالوأثائل وعيال وعيائل (وقيل عيائل) وفعال يجمَع على أفعُل كأكُلُن وأذرُع وأشهُب في لسان وذراع وشهاب ويجمَع أفعُل على افاعيل كأوهُط (جمع رهط) على أراهط. وأطرُق (جمع طريق) على اطارق اذ سوار يجمَع على أسوُر (لم ترد في القاموس) وجمع أساور فقد اهمل القاموس صيغة جمع فلم يحسن الضبط وأخلّ بالقياس

فهذه الكلمة الوجيزة يبدو بها ما للمباني والتخريج من الفائدة في إنشاء المعجم فاذا رأت وزارة المعارف المصرية الجليلة الاستعانة بمن اتفق من عمره فسحة في استقرائهما فسته ان ذلك المجمع الجليل واخذت الدرَّة من حيث وجدت

دمشق : البطريركية الارثوذكسية امين ظاهر خير الله

اصل الحياة

لمصطفى عراد

ما لسرّ الحياةِ ظلَّ مُعمَّى بين هذي العلومِ ذاتِ الضياء؟
أتراها من الطبيعة أمْ ما ذا تُرانا مِنْ نسلِ هذا الهباء؟
ما الذي كانَ للطبيعة أمّا كيف صار الهباءُ ذا إحياء؟

قال لي بلبل على الغصن يشدو في جمال الربيع سرّ الحياةِ
بسمة الزهرِ للملاحظ تبدو بنشوء الحياةِ قبل الممات (١)
إنّ هذا الربيع جاءك يعدو فتمتّعْ فأنتَ مثل النباتِ

بلبلَ الروض ، انتَ سكرانُ من أنْـ ـوان زهرٍ أريجُهُ فوّاحُ
انني ما عَنَ الخمائل اسألْ لا ولا شافني بها القدّاح (٢)
انت ترجو دفع الشتاء ودرأ الـ ـحزنِ منهُ فسبكَ الافراحُ

قال هلاّ شُغلتَ عن بحث سرّ بمناه الحياةِ يا انسانُ !
تتعبُ العقلَ بينَ دَرْسٍ وخبرٍ واضطراب يثيرُه البرهانُ !
يا بني آدمٍ شُغفتمْ بأمرٍ كلُّ ما فيه انهُ خسرانُ

قلتُ للزهرةِ المفيضةِ حُسناً منْ أسالَ الحياةَ في الأشجار؟
من كسا هذه الوُريقات لوناً مستمدّاً من ريعك البسّار؟
ولماذا تصوّرين أحُزناً ام بحكمٍ مِنْ دَهرك القهّار؟

قالت الزهرةُ الخجولُ : حياتي ومماتي سرّان مكنونان
أتغذّى من الثرى والرقات وبنشق الهواء أقضي زماني

---

(١) هذه هي الفكرة الفلسفية (٢) القداح نور النبات قبل تفتحه ويطلق في العراق على نور الليمون والنارنج ونوعها

أرتوي مثلكم بماء فآتي بجمال محبَّبٍ فتّانِ

قلتُ يا زهرةَ الحديقةِ طيبي انّ عمر الزهورِ جدُّ قصيرِ
وأطلّي من فوق غصنٍ رطيبٍ وامنحينا الأريجَ قبلَ المصيرِ
انّ سرَّ الحياةِ جدُّ غريبٍ فاهنئي واتركي غريبَ الامورِ

***

ضاقت بي الحالُ حتى صرتُ مبتدعا وطالما كنتُ مبقاناً ومُتّبعا
هي الحقيقة تحييني فتبعثني من عالم الجهل حتى أهجر الورعا
اريدُ بالنفس خيراً غير انّ لها شيطانَ جهلٍ اذا ارشدتها امتنعا
يغور فكري ببحر الشك مضطرباً يكابد الهولَ والحيرات والجزعا
قد أعجز العالمُ الاذهانَ فابتدعتْ ما لو يطورُ به ذو غفلةٍ قنعا
كل الامور على عبثٍ تدلّ فلا يغرُّك ذو كلمٍ في غيهِ ارتفعا
فالموتُ والفقرُ والافسادُ بارهةٌ انّ التمدن من وحشيةٍ طلعا
وحاجة الحيّ للاغذاء معربةٌ ان الحياة ثرى إن أمرها اجتمعا
وعند العذول اعتراضات ولائمةٌ[1] فانْ طلبتَ اليهِ حجةً فزعا
وقد تشعبت الاديانُ واختلفتْ وامرها في جدالات الورى سطعا
كل يقول أنا الماتي على سنَنٍ يهدي الالهُ اليهِ كلَّ من صنعا

***

وسألتُ المياهَ في الروض تجري كثير الدماء في الاجساد
قلتُ : يا ماء انتِ كاشفُ أمري أنت مأوى الحياة في الآباد
بنشوء الحياة هل أنت تدري هل لنشوء الحياة من ذا الجماد ؟

قال لي الماء : كلّ حيّ وليدي ووليدُ الهواء في كلّ حال
لستثير الحياة بالتوحيد ونُصير المحالَ غيرَ محال
هل وجدتَ الحياة دون وجودي ام وجدتَ الهواء من تلك خالي ؟

سرّ شيخ مقوّسٌ ذو أناةٍ تحذ الدهر ظهره قوسَ وعْظِ

(١) هذا الشطر للكامل بن أبي الفتح

قلتُ يا شيخُ مَمَّ أصلُ الحياةِ فلقد كدتُ في الضلالة أمضي
أنت ذو خبرةٍ قريبُ المأتى كيف فكّرتَ ؟ قال اني لأقضي

***

قد حيّر الكونُ أذهانَ الورى جُمَعا قال تفكّر ذو عقلٍ بهِ جزعا
مُعَقّدٌ منذ رأى الانسانُ صورتهُ من ذا رأى القمر السيّار اذ طلعا
شمسٌ ونارٌ وسيّارٌ على دأبٍ النار تحرق والسيارُ قد دُفعا
ما الجذبُ ما الدفع ما الدنيا وخالقها أضحى الجوابُ على الانسانِ ممتنعا
هذا يقول وهذا منكرٌ أبداً حرنا فلسنا نرى الاّ امرأً فزعا
أما الدليلُ فلا عينٌ ولا أثرٌ وكل حزب بما قد ناله قنعا
إنْ قلت ماذا يُرى الانسانَ منهجهُ من الهدى قبل : ان الدين قد وَزَعا
ما الدينُ يا قومُ ان الدينَ مكتسبٌ وظالما من جدالات الحجى ارتدعا
والعلم والدين في التحليل ما اتفقا والنفس والعقل في المقصود ما اجتمعا
ليس الحياةُ سوى سرٍ تكنّفهُ مغالقُ الغيبِ لم يُكشف ولا سُمِعَا
والدينُ يعجز عن تبيان منشئها والعقلُ ساعٍ الى التبيان ما رجعا

***

قلتُ : ياشيخُ قد كفرتَ فكفّرْ عن خطاياكَ واتبع الرحمانا
إنما الدينُ عن حياتكَ يخبرْ كلُّ حيٍّ من الماءِ استبانا
ذاكَ شيء تعالموهُ فذكّرْ انّ ذكراكَ تنفعُ الأديانا

قال ما زلتُ في الضلالِ أهيمُ كيف صار الاديبُ حيّاً سويّا ؟
انّ ارضاً قد ظلّ فيها الجحيمُ كيفَ تحيا الحياةُ فيها مليّا
انّ كونَ الحياة فيها قديمُ وكذا النارُ أنشئتْ كيمويّا

قلتُ : يا شيخُ ذاكَ فكري فمن لي بنصيرٍ يذيعُ هذا المقالا
هذه الارضُ حيّة قبلَ كلّ ذي اشتعال فهل تجيب سؤالا ؟
كيف هذي الحياةُ كانت فقُل لي فلقد صار كل أمري ضلالا ؟

القوى الروحية في الصين

من محاضرة لكلود فاريز

لا أجد بدًّا من الاعتراف بما أشعر به من التردّد في معالجة مسألة لم يستطع ذكاء الغربيين سبيلاً الى حلّها حلاً أكيداً وهي : ما هي الصين ومن هم الصينيون ؟

لقد درست هذه المسألة طوال ثلاثين سنة ان لم اقل طوال حياتي كلها ، فقد عشت في الصين مدة طويلة ليس في المدن الكبيرة فحسب بل في القرى النائية التي لم يقدر لرجل من البيض ان وطئها قبلي ، فتعرفت الى الصينيين في حياتهم الخاصة ولي بينهم اصدقاء احترمهم وأعجب بهم ولا انسى ان فئة من الطلاب الصغار سألتني مرة ان اضع رواية عن بلادها . على اني تردّدت في اجابة الطلب قائلاً : «لن أجيد وضع هذه الرواية فأنتم شيوخ مسنون ، وما انا بالنسبة اليكم سوى ولد صغير »

فاتخذوا هذا الجواب ضرباً من ضروب الأدب واللياقة فالصينيون يرتاحون كثيراً الى من يغرق في مضاعفة أضمارهم وأبلغ عبارة تستطيع ان تمدح بها سيدة صينية هي ان تقول لها انها طاعنة في السن . وبالحقيقة ان قولي للطلاب الصينيين إنهم شيوخ مسنّون إنما هو قول حقّ وصواب . فأعمارنا نحن الفرنسيين لا تتجاوز خمسة عشر قرناً اوعشرين على الأكثر ، فالغالبيّون لم يكونوا فرنسيين ، ولم يكن تشعب الفرنسي من أثر قبل القيصر الكبير ، في حين ان الصينيين هم صينيون منذ ثمانين قرناً على الأقل

﴿ اقدم حضارة بشرية ﴾ لم تكن اسيا الوسطى ، قبل عهد البشر ، سوى قاعدة من الارض تمتدّ من بيقال الى بحر الهند ، فطرأ عليها تغضن عظيم نشأت عنهُ جبال حلايا والكونيلون والتيانشان والنانشان والالتاي ، ثم انحت القاعدة المنتفخة من الغرب الى الشرق واذا بالمياه تتجمع في ذلك الوادي المزدوج المعروف بالهوانغ هو واليانغ تسي ، ثم اخذ هذان النهران يلفظان موادّهما واذا بالتربة الصفراء تنشأ رويداً رويداً وهي أخصب تربة أوجدتها الطبيعة قد لا تعدلها تربة اميركا الشمالية ولا تربة روسيا السوداء

وهبطت قبائل رحالة منحدرة من التركستان الى النهر الاصفر فاكتشفت الارض الصفراء واستدرجها الخصب الى استغلالها فاستوطنتها ، ومنذ ذلك الحين نشأ الصينيون

ولا مشاحة في أن السلالة الصينية مردودة الى مستهل التاريخ البشري ، ويكفينا لنستوثق من ذلك أن نرمي نظرة الى الاسطورة الصينية . فقد جاء في ميثولوجيا ابناء السماء أنهُ كان في

البدء « أسرة الجلد السامية » ثم « اسرة الارض السامية » ثم « اسرة الانسانية السامية » وأن هذه الاسر جميعها قد دامت خمسمائة واربعين قرناً . ثم جاء الامراء المتزهون عن التوبيخ وعددهم سبعة وثلاثون اميراً منهم اثنان او ثلاثة اطلق عليهم هذا اللقب : « بدأوا يبنون العشاش » وهذه العشاش كانت قرى مائية اي مبنية على ضفاف البحيرات . ومنهم من اطلق عليهم : « افركوا قطعتين من الحطب لتشتعلا » ولا ريب بان هذا اللقب يرمز الى استعباد النار . وأطلق على احد هؤلاء الامراء لقب « الدائرة والوسط » وهذا اللقب يرمز الى اختراع الدولاب والعجلة . أما المحراث فلم يكن قد اخترع بعد

يتضح لنا مما تقدم أن حضارة قديمة كهذه ينبغي أن تكون كثيرة التوغل في ظلمة الماضي وأن ثمانين قرناً إنما هي عدد ضئيل إذا قيس بعمر هذه الحضارة

﴿ الصينيون يخترعون الكتابة ﴾ جاء في أساطير الصين ان امبراطوراً يدعى «فوهي» كان مالكاً زمام الامبراطورية السماوية في نحو القرن الخامس والاربعين قبل المسيح ، وان هذا الامبراطور كان اول من دجن الماشية وسنّ شريعة الزواج وأعطى شعبه المحراث الاصلي وتخيّل أحرف الكتابة ، وهذه الاحرف لم تكن سوى ثماني علامات رمزية

ولكن في نحو القرن السابع والعشرين صعد العرش امبراطور آخر يدعى « هوانغ — تي » ولقبهُ « الاسفر المعظّم » فبعد ان افنى الدباب التي كانت تتكاثر في ذلك الحين ، ورتّب امتيازات السحرة بقوانين ، ونظّم اليومية القمرية ، وأمر برفع القرابين الى كل قوة غير منظورة عمد الى إصلاح الاحرف المكتوبة فكمّلها

إذن فالصينيون قد عرفوا الكتابة ألفي سنة قبلنا وقبل اجدادنا الروحيين اليونان والفينيقيين ، وإذن فذهنهم قد اوتاض قبل ذهننا ببرهة ، وفي هذا ما يدعو الى التأمل والتفكير على ان هناك ما هو اعجب من كل ذلك ، فقد قلت إن « الاسفر المعظم » كمّل الاحرف المكتوبة ولم يستنبطها ، فالكتابة الصينية هي كتابة رمزية تصوّر الفكر دون الصوت ، وكل كلمة صينية يعبّر عنها على الورق برسم صغير ينقل الى دماغ القارىء التأثير الموافق . اما كتابتنا نحن — وهي كتابة صوتية — فانها تنقل الى دماغ القارىء تأثيراً رنّاناً يستخرج منهُ الدماغ التأثير النهائي المتعلق بالشيء المطلوب وهذا لعمري جهد دماغي يختلف عن الاول اختلافاً بيّناً . ولا شك في أن جنسين من أجناس البشر ينتجان عن هذا الاختلاف البعيد وفي هذا دليل على ان الصينيين لا يشابهوننا في شيء ، وانهم اقدم منا بقرون عديدة . ولهذا السبب لم يكن بين ثقافتنا وثقافتهم أقل علاقة

﴿ الفتيات البشعات بليّة وعالة ﴾ والآن أتريدون أن نجوب معاً جيوب التاريخ الصيني منذ القرن السابع والعشرين قبل المسيح — وهو عصر الامبراطور هوانغ — تي — الى قرننا هذا ؟!

إذن فيستغرق مسيرنا مدة خمسة آلاف سنة لا يصعب علينا ان نختصرها في فترة خمس دقائق

بعد ان توفي الامبراطور هوانغ — تي — تعاقب على العرش ثلاثة من امبراطرة الاساطير هم ياو ، وشون ، ويو ، فالاول نظّم مجاري المياه ، والثاني انشأ قانون الجنايات الاول ونظم برمية شمسية أرضي بها المزارعين ، والثالث حمل شعبه من شواطىء النهر الاصفرال شواطىء النهر الازرق واستطاع بهذه الطريقة ان يخلق اول دولة حقيقية

على ان هؤلاء الامبراطرة لم يسودوا الا على بضع خيم وبضعة قطعان ، فقد كانوا بطارقة بسطاء لا اكثر ولا اقلّ ، فالاسرة الصينية قديمة جداً يرجع تاريخها الى اربعة آلاف سنة او خمسة آلاف سنة قبل المسيح ، وهي اسرة جيلة ، صلبة ، سلسة ، خصبة ، تقبل المضارّة بالطبع وتقبل ايضاً عدا الزوجات الشرعيات زوجات غير شرعيات ، ولكن في اشراف القانون. أما الابناء فتجوز ولادتهم بكثرة من غير ان يطوح احداً منهم خارج الحجر العائلي بشرط ان يكونوا غلماناً لان الفتيات الكثيرات بنية وعالة على اهلهن لا سيما اذا لم يكنّ مفرطات في الجمال ، والشريعة الصينية لا تجيز البلايا

﴿ الفلاسفة الصينيون الثلاثة ﴾ في العام ٢٢٠٥ قبل المسيح ظهرت السلالة الصينية الوارثة الاول وهي سلالة « هيا » التي تربعت على العرش ثم عقبتها سلالة شنغ ، فسلالة إنّ ، فسلالة تشيو التي سادت الف سنة ، اي الى عهد هنيبال فالهيا حكموا من العام ٢٢٠٥ الى ١٧٦٧ ، والشنغ والإنّ من العام ١٧٦٦ الى ١١٢٢ ، والتشيو من العام ١١٢٢ الى ٢٥٥ ، وفي عهد هذه السلالة الاخيرة عاش الفلاسفة الصينيون الثلاثة وهم لاوتسو الذي ولد في العام ٦٠٤ قبل المسيح ، وكونغ تسو الذي ولد في العام ٥٥١ ومات في العام ٤٧٩ (؟) ، ومانغ تسو ، تلميذ هذا الاخير (٣٧٢ — ٢٨٩) ولست بحاجة الى القول ان كونغ تسو هو نفسه الفيلسوف المعروف بكونفوشيوس . والآن من هم هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ؟

يسهل عليّ التكلم عن كونغ تسو ومانغ تسو ، فهذان الرجلان العظيمان كانا حكيمين اكثر منهما عالمين من علماء النظريات ، فلم يحدث لاحدهما ان عالج القضايا الكبرى المتعلقة بالقضاء البشريّ . وقد قال كونغ تسو : « لا اعرف ما هي الحياة ، فكيف اهتمّ بمعرفة ما هو الموت ؟ » وكونغ تسو هذا املى حكمة اجتماعية ، منطقية وأساليب حكومية عديدة . وهذه الاساليب الحكومية المجموعة في كتيّب عنوانه « الدرس الكبير » تستحق ان يتأمل فيها جميع زعماء الدول حتى الحاليون منهم

اما لاوتسو فيختلف عن هذين الفيلسوفين ، فهو عالم نظري ، ونظريته في العالم ، تلك النظرية الغائمة تقرب من نظريتي فيثاغوراس وهيراقليطوس . على ان لاوتسو لم يخلق ليعيش في الشرق الاقصى ، فالشرق الاقصى لم يفهمه ، ولم يستطع الصينيون ان يستقوا من تعاليمه

الآ مزيجاً من الخرافات الغريبة وهذا المزيج من الخرافات يعرف بالطاو ، وهو مفعم بالسحر، وعبادة النار والكواكب ، وغير ذلك من الغرائب والطبهمات . الآ ان حسن الحظ شاء ان يولد كونغ تسو بعد لاوتسو بنصف قرن فأتيح له ان يضع بعض النظام في تلك الخرافات المشوشة ثم جاء مانغ تسو فضاعف ما اصلحه كونغ تسو حتى اصبحت الخرافات الضعيفة مذهباً وتقاليد واليكم مثالاً من «الليكي» وهو كتاب الرتب الدينية عند الصينيين القدماء :

« في الشهر الاول من الصيف قبل ان يأتي الصيف بثلاثة ايام ، اعلنه المقوم الكبير لابن السماء ، فتطهر ابن السماء بالزهد ، وفي مستهل ايام الصيف خرج لاستقبال هذا الاخير في مركبته الحمراء التي تجرها جياد صهبٌ ذات اذناب سود . لقد خرج يعلمه القرمزيّ مرتدياً لباسه الاحمر وعلى قبعته وحزامه اليواقيت الحمر ، يتبعه ثلاثة من كبار وزراء الدولة وتسعة من الوزراء الآخرين وجميع كبار الرؤساء، فرحب بالصيف في الجهة القبلية من العاصمة لما قفل راجعاً وزّع الحمد والنعم بعدله الكبير» . واليكم هذا المقال الآخر :

«إن ابن السماء يرفع القرابين او التضحيات الى السماء والارض، الى ارواح المخوافق الاربعة، الى ارواح الجبال ومجاري المياه والى الخمسة الانواع من الآلهة الانيسة»

فالمثال الاول هو ولا ريب من كونغ تسو ، والمثال الآخر من لاوتسو، وهذان المثالان هما نموذجان من مزيج يؤلف الديانة الصينية الاولى ، او بالاحرى النظام الاجتماعي في الصين فالصين منذ خمسة وعشرين قرناً كانت ركاماً من العيال يديره امير بطريق

﴿امبراطور يحرق الاسفار القديمة﴾ كذلك كانت الصين في عهد التشيو بعد ان جازت عهد الإنّ والتشنغ والهيا ، ولكن عند ما انهارت سلالة التشيو حدث انقلاب عظيم

قلت عند ما انهارت سلالة التشيو ... ولكن كيف انهارت هذه السلالة وكيف انهارت قبلها سلالات الإنّ والشنغ والهيا ؟ — لقد انهارت هذه السلالات جميعها كما ستنهار السلالات التي ستعقبها ، فبعد هؤلاء الامراء المؤسسين، الامراء الحكماء الاذكياء المتحمسين حلّ امراء وارثون يعلقون على العرض اكثر مما يعلقون على الجوهر ، والشعب الصيني كثير الشبه بقطيع الاغنام ، فهو سهل الانقياد على ان لا يطلب منه ما ليس في حسبانه او ما هو صعب عليه . فلقد سقطت سلالة الهيا لان حظية آخر امير من امرائها صور لها ان تضرم النار حين لم يكن من داع لاضرامها ، ولقد شاءت هذه السيدة الشقاوة ان ترى ما يحدث بعد ذلك، ولكن الذي حدث هو ان الصينيين قطعوها تقطيعاً واسقطوا عشيقها عن العرش

ولنعد الآن الى الاغنام ، فلما اضمحلت سلالة التشيو وذلك في العام ٢٢٥ قبل المسيح قاست الصين ثلاثاً وثلاثين سنة من الفوضى والاضطرابات ، ثم انبثق رجل عظيم من مقاطعة شانسي وذلك قبل ان يربح شيبيون الافريقي معركة زاما بعشرين سنة ، وهذا الرجل العظيم

هو الأمير تسن المعروف بفانغ تشنغ

قلت ان فانغ تشنغ هذا نجم من مقاطعة شانسي القائمة على كتف النهر الأصفر ، فما قبض على زمام الصين بأسرها — بعد ان أباد جميع المشاغبين — حتى تسمّى تسن شوهوانغ — أي الامبراطور الاول لسلالة تسن . وأول ما بدأ به هو ان انشأ من الصين امة متحدة

كان هذا الامبراطور يقبل نصيحة أي كان ، ولكن عند ما كان يرى النصيحة سيئة كان يحرق الناصح حيًّا او يغليه على النار . وكان الكتّاب يواجهونه دائمًا بالشرائع القديمة ليوقفوه عند حده ويمنعوه من العمل على هواه فحرق جميع الاسفار القديمة وأغلى أحياء جميع الذين كانوا يقرأون اي كتاب كان . فغضب الصينيون على تسن شوهوانغ — تي وأخذوا ينظرون اليه نظرتهم الى ملك دجال . على ان تسن شوهوانغ — تي كان قد شيّد أمة حقيقية تدعى الصين ، وهذه الامة لم تضمحلّ الاّ بعد مرت هذا الامبراطور في العام ٢٠٦ على انها لم تضمحلّ الاّ لتبعث فيما بعد ، والذين عملوا على بعث هذه الامة هم الهان — السلالة السماوية الحقة — الذين ساروا مدة اربعمائة سنة او اكثر ولم يسودوا طوال هذه المدة الاّ انهم عرفوا اختيار قوادهم الذين كثيرًا ما جدّدوا الوحدة الصينية . ولم تضمحلّ سلالة الهان الاّ في السنة ١٨٤ للمسيح

﴿الصين في عهد الاستيلاء الاجنبي﴾ كان القرن الخامس للمسيح عهد الغزوات البربرية ان في الصين وان في الغرب الاقصى ، ففي العام ٤١٠ استولى «الاريك» على روما ، وفي ذلك العهد أيضًا احتل ليوتسونغ ، ملك «الهون» Huns ، العواصم الصينية وأسر امبراطورين جعل أحدهما خادمًا لهُ . ومنذ ذلك الحين بدأ الغرباء يحكمون الصين ، فبعد ان جلاه «الهون» عن الصين خلفهم «التوبا» وقد اهتدوا الى الدين البوذي ، فعالجوا سلطتهم من غير أن يتخذوا لهم لقب امبراطور ، على ان سلالتين من المغول انبعثتا من دمهم هما الوي والتانغ . ولقد بقي الغرباء يحكمون في الصين مدة خمسمائة سنة متتالية فانشأوا أمة عظيمة أداروها بشراسة ولكن بحذق ونشاط . ولا ريب بأن احتكاك هؤلاء الامبراطرة بالصين — ذلك الاحتكاك الطويل — جعلهم صينيين . على ان الصين ، في عهد الاستيلاء الاجنبي هذا ، تفتحت في أفكار لم تخطر في بال كونفوشيوس نفسه ، فبين القرن السادس والعشر وقعت في المملكة السماوية أزمتان او ثلاث ازمات دينية ، على ان هذه الازمات لم تلبث ان تلاشت ، فما سقط التانغ في العام ٩٠٧ وعقبت سقوطهم فوضى دامت نحوًا من ستين سنة انقسمت الصين الى دويلات مختلفة حتى ظهر فيها قائد ظافر او مشرد أحذق من سواه اذا شئتم فأسس السلالة الوطنية الوحيدة التي عرفتها الصين منذ عهد الهون والتشيو وهي سلالة سونغ

سوى ان هذه السلالة الصينية لم تتصرف تصرفًا حسنًا لأن مؤسسها كان جنديًّا حاذقًا اكثر منهُ محاربًا ، ولقد شبهه الفرنسيون بهنري الرابع . على ان الجدير بالذكر هو ان الصينيين

كانوا سعداء في عهد السونغ الذين انهارت سلالتهم في العام ١٧٢٩ بعد ان انهار كل شيء من حولهم ، ولقد شرح لنا ماركوبولو لماذا كان الصينيون سعداء في عهد السونغ ولماذا استسلموا لاول فاتح هبط عليهم . قال ماركوبولو :

لو كان شعب مانزي (اسم ملك) من الشعوب المحاربة لافتتح العالم . ولكن شعب مانزي لم يكن شعباً محارباً بل كان تاجراً وصانعاً ولقد صرف همه على النساء . وكان ملكه اميل ما يكون الى النساء والى العطف على الفقراء والاحسان اليهم »

ولنستأنف الآن الكلام عن آخر الامبراطرة الصينيين فنقول : ان سلالة « منغ » الصينية خلفت المغول الغرباء وتوارثت الملك الى العام ١٦٤٤ ، ثم عقبتها سلالة « تاسنغ » فحكمت من العام ١٦٤٤ الى العام ١٩١٢ أي الى عهد الفوضى الحالية التي لم تدم الاّ احدى وعشرين سنة ، والاحدى والعشرون سنة ليست بالمدة الطويلة متى كان الأمر متعلقاً بفوضى صينية

﴿ الصينيون عيال لا أمة ﴾ اظنني جعلتكم لمسون باصبعكم تلك الحقيقة التاريخية وهي ان الصين لم تكن صيناً حقيقية الاّ تحت سيطرة الفاتحين الغرباء . وهذه الحقيقة التاريخية تجعلنا نذهب الى ان الفوضى الحالية في الصين لن يوضع لها حدٌّ الاّ اذا تدخل الغرباء في الامر

ولكن فيمَ لم نر الصينيين الذين هم ولا ريب أكثر تجار الكرة الارضية حذقاً وحكة وأشد الفلاحين صبراً وصلابة ، والذين عرفوا أكثر مما عرف سواهم ان يقمعوا مزاجهم العصبي في الجمود الشاقة ويصور اليهم انهم اقرب الجنس البشري الى الكمال ، فيمَ لم نرهم صاروا الى تلك النتيجة البسيطة التي كثيراً ما صارت اليها سلالات هي دونهم بمراحل بعيدة وهي حكم النفس بالنفس ؟ فيم لم تكن الصين صيناً حقيقية الاّ تحت سيطرة فاتحين غرباء تحت سيطرة كثيراً ما كانت ظالمة شرسة ؟ . ذلك لان الصينيين الذين عرفوا في البدو ان يؤسسوا عيلة صينية متينة اضطرتهم الحاجة في الكثير الغالب الى ان يمزجوا عيالهم بعضها ببعض ويجعلوا منها قبائل لا أمة ؛ فالصينيون يؤمنون بالعيلة ، وبالعيلة دون سواها

﴿ لا يخلق الامة الاّ الزواج المختلط ﴾ لم تخلق الامم ان في آسيا وان في اوربا الاّ منذ الوقت الذي اختلط فيه الزواج من عيلة الى عيلة او من قبيلة الى قبيلة . والامم القوية التي أسرعت بالنشوء كالامة الفرنسية والانكليزية والاسبانية والايطالية ، لم تستمد قوتها الاّ من امتزاجها بعضها ببعض ، فالامة الفرنسية مثلاً هي مزيج من السلط واللاتين والفرنج والبروغوندين والنورمانديين ، والامة الانكليزية هي مزيج من البريطان والانكلو والسكسون والدانوا والنورمانديين والغائيل !

وخلاصة القول يجب ان يتزاوج الشبوط والارنب ليكون هناك امة حقيقية على ان

الصينيين لم يكونوا الا صينيين، فالصينيون لا يسمحون بالتمازج ، والتمازج وحده يخلق الامم

يبلغ عدد سكان الصين اربعمائة وخمسين مليوناً ما يعادل ثلث سكان الكرة الارضية . سوى ان هذا العدد لم يزد منذ اكثر من مئة سنة . واذا استثنينا شعوب كندا واليابان وبولونيا رأينا انهُ ما من سلالة بشرية تتكاثر بسرعة السلالة الصينية

على ان الصينيين ، وهم شعب يحتقر احتقاراً شديداً كل ما هو في نطاق الصحة ، يموتون بالملايين ، وقد لا نستطيع ان نحصي عدد هؤلاء البشريين الذين يموتون كل سنة بالاوبئة المختلفة وقد لا نخطىء ايضاً إذا قلنا انهُ منذ اليوم الذي يهتم فيه الصينيون بتربية ابنائهم بحسب القوانين الصحية يصبح عددهم تسعمائة مليون بدلاً من اربعمائة وخمسين مليوناً ويصبح الشعب الاصفر وهو يعد بالمليارات لاجئات الملايين . وعندئذٍ لا يبقى لنا — نحن وأنسالنا — إلاَّ أن نحتجب :

﴿ الصين في الوقت الحاضر ﴾ ولكن مالنا ولهذه المسألة المخيفة ، فلنبقَ في الحاضر ولنحصر حديثنا في هؤلاء الصينيين المساكين من طراز ١٩٣٣ الذين يقتتلون اليوم مدججين في الفوضى العمياء التي لا يعرفون الخروج منها ...

قد تقولون لي ان رجلاً واحداً يكفي لانقاذ شعب ، وقد رأيتم حقيقة ذلك في فرنسا ، على أن فرنسا تعدُّ اربعين مليوناً او أقلّ . اما الصين فتعدّ اربعمائة وخمسين مليوناً ، وهذا الشعب العظيم يحتاج لانقاذه الى رجل عظيم ، والعظماء لا يخلقون كل يوم

وفي الصين ، بين بكين وكانتون ، عشرون حكومة مختلفة لا تكف عن التناحر بكل ما في الوحشية من المعنى ، وهذه الحكومات لا تعبأ بعواقب تناحرها فهي تكتفي بقتل الجنديين اي بقتل الشعب ، فالصينيون يقتلون الصينيين بالسهولة التي نراها نحن في قولنا : اسعدت صباحاً

ثم ان هذه الحكومات وعلى رأس كل منها زعيم متشرد او لص ، يفاوض بعضها موسكو وبعضها توكيو ، والبعض الآخر واشنطون ، ولندن أيضاً . ولكن لندع السياسة جانباً ! فنحن في الصين ولنبق فيها . نحن في بلاد تعسة ، في أشقى البلدان جميعاً . قد تقولون ان شقاء هذه البلاد يرجع الى اخطائها هي . حسناً ، ولكن افريقيا ، بين السينغال والكنغو ، ومراكش بأسرها كانت في الماضي ميادين معبوغة بالدم ، حتى جاء فيدهرب وارشينار ومانجين وليوتي فأشفقوا على هذه الشعوب المتناحرة ومنحوها السلام الفرنسي . فمن تراه يشفق على الصين المسكينة فيمنحها السلام أي سلام كان ويجعل منها امة حقيقية ولو أكلت الأرض ؟

أني لا أتمنى ان يجيء أحد ، منشوريًّا كان ام مغوليًّا ام يابانيًّا ! فتفقد الصين لابد له ان يصبح صينيًّا بما ان جميع الذين افتتحوا الصين لم يمر عليهم جيل واحد حتى اصبحوا صينيين . وهذا سرٌّ غريب نضيفهُ الى أسرار آسيا القصوى هذه ، الى أسرار تلك الأرض العجيبة التي اخترعت البيان — اثمن المزايا البشرية — والتي تعمل الصينيين بسرعة تدهش العقول

العطور واستخراجها

بين الطبيعة والعلم

ان حاسة الشمّ من الحواس التي لم ترتقِ بارتقاء الانسان ، بل على الضدّ من ذلك ضعفت. فالكلب، يميّز بين الصديق والعدوّ بالشم ويستطيع ان يقفو اثر انسان اذا شمّ رائحة ملابسه. وهذا ما يفعلهُ رجال الشرطة في اقتفاء آثار المجرمين احياناً. اما الانسان فقد فقد دقة حاسّة الشم او كادْ. انهُ يستطيع ان يميز الروائح الطيبة من الروائح الكريهة. ولكن اللغة نفسها اقوى دليل على ضعف هذه الحاسّة فيهِ . فليس يحتاج احدٌ الى بلاغة نادرة لكي يصف جسماً من الاجسام وصفاً يمكنك من معرفتهِ اذا رأيتهُ . فالاعميُ يستطيع ان يصف حيواناً غريباً رآهُ بالفاظ تمكنك من معرفة هذا الحيوان اذا رأيتهُ انت، فتقول هذا هو الحيوان الذي وصفهُ فلان . ولكن ذلك متعذر في وصف الروائح الى حدّ بعيد . حاول ان تصف رائحة معيّنة ولتقل انها رائحة الورد من دون ان تستعمل لفظ الورد في وصفها ، بطريقة تمكن صاحبك من معرفة الرائحة التي تقصدها . ان اللغة في الغالب تقصر دون مرادك ولو كنت من البلغاء

والعطور محلولات من زيوت معيّنة او مواد عطرة ، في كحول مخفّف . اما عطور القدماء فكانت المواد العطرة نفسها ، غير محلولة في كحول او اية مادة اخرى

والزيوت العطرة تستخرج من مصادر نباتية ، من الازهار والاوراق والسوق والجذور باساليب دقيقة كل الدقة ، وقد عرفت بالزيوت ، لانها في الغالب مواد دهنية او زيتية ، اخف من الماء وتطفو على سطحه من دون ان تمتزج بهِ. وهي تشبه الزيوت الاخرى، كزيت الزيتون وزيت بزر الكتان ، في انها تحدث بقعة دهنية ، اذا وضعت قطرة منها على الورق . ولكنها تختلف عن الزيوت العادية ، في ان هذه البقعة الدهنية على الورق ، تزول بالتبخّر بعد ما تمكث قليلاً ، واما بقع الزيوت العادية على الورق فتمكث ولا تزول

فعطر التربة والقرنفل والخزامى والشيح او رقيب الشمس والسنط والياسمين والنارنج والورد والبنفسج يستخرج من ازهارها. وعطر الخزامى و اكليل الجبل والنعناع والبنفسج يؤخذ من ازهارها واوراقها . وعطر العشر والدارصيني يؤخذ من اوراقهما وسوقهما . وعطر الدارصيني والتربة يؤخذ من لحائهما. وعطر العرعار والصندل من خشبهما. وعطر حشيشة الملك (angelica) والسافرس من جذورهما . وعطر البرجموت والليمون والليم والبرتقال يؤخذ من اثمارها . وعطر اللوز المرّ واليانسون وجوز الطيب يؤخذ من

بزورها . وعطر المرّ وبلسم بيرو والمسيعة يؤخذ من أصماغها

وثمة طيوب تستخرج من الحيوانات . وهي اقلّ العطور واندرها . فالعنبر يستخرج من حيوان بحري ، تتذفهُ الحيتان المريضة وتحملهُ الامواج الى الشاطىء . والمسك يستخرج من احد الايائل ، الذي كاد ينقرض الآن ، لجدّ الناس في صيده . والزباد طيب نادر يستخرج من منّور الزباد باساليب كادت تقرض هذا الحيوان

اما الاساليب التي تستعمل لاستخراج العطر من الازهار فبعضها قديم كالتقطير والنقع في الأدهان والكحول ، وبعضها حديث كاستعمال بخار البترول . وينذر ان يكتفي الآن بأسلوب واحد في استخراج عطر زهر من الازهار ، بل يعمد الى غير اسلوب واحد حتى يثبت ان كل العطر الذي في الزهر قد استخرج

ففي طريقة التقطير توضع الازهار في انبيق كبير وتغمر بالماء ثم يبدأ عمل التقطير المعروف المستعمل في تقطير ماء الزهر من زهر النارنج وماء الورد من زهر الورد

اما طريقة النقع في المواد الدهنية فيعمد فيها الى وضع الازهار فيها حتى تتهرأ وتصير كالمروّخ ، والغالب ان يوضع عدد معين من الازهار في دهن نقي او زيت زيتون نقي ثم يوضع الاناء في اناء آخر فيهِ ماء غالٍ ، وبعد وقت معيّن تخرج الازهار ويوضع غيرها محلها حتى يتشبع الدهن او الزيت من عطرها . ثم تعرث الازهار التي نقعت وتضغط في مكابس مائية حتى يعصر منها كلّ ما تبقّى فيها من العطر . ويؤخذ المروّخ ويغسل مراراً بالكحول فيذيب الكحول العطر الذي فيهِ ويتعصهُ فيصبح بعد التصفية والتبريد خلاصة زهر النارنج اذا كان الزهر من النارنج او البرتقال ، وعطر الورد اذا كان الزهر ورداً

وقد تستخرج المادة العطرية باستعمال بخار البترول النقي وهو احدث الاساليب وافضلها وطريقتهُ ان تعرث الازهار اولاً فتنتزع الغدد الزيتية التي تحتوي على المادة العطرية ، وتتصل هذه المادة ببخار البترول وتبقى الازهار المعروثة على هذه الحال ٤٨ ساعة . ثم يبرد البخار ويستقطر فيبقى منهُ مادة شمعية ذات رائحة عطرة ، ويعاد عمل الاستقطار مراراً فتنتزع المادة الشمعية خلاصة العطر الجامدة التي تباع في الاسواق

يسهل استعمال هذه الاساليب للازهار التي تستخرج رائحتها بسهولة اذا عرثت ، ولا تزول رائحتها اذا مضى عليها وقت طويل بعد جنيها ، ولكن ما كان من الازهار كالياسمين والزنبق ، لا يستخرج عطرهُ الاّ بالحيلة لان مقدار العطر قليل — فقد لا يستخرج من طن من الزهر الاّ اوقية او اوقيتان من العطر — لا يصلح التقطير لاستخراجهِ ولا يستخرج بالنقع ولا ببخار البترول لئلاّ تتلف الازهار . ولذلك يستخرج عطرها باستعمال الدهن البارد . وآية ذلك ان الازهار الندية توضع في اطباق مبطنة بالدهن ، وتقام هذه الاطباق بعضها فوق بعض ،

وتبدل الازهار الذاوية بغيرها مرة كل ٤٨ ساعة بعد ان يتشرب الدهن عطرها ويصبح كالمروخ المذكور آنفاً . ثم يغسل هذا المروخ بالكحول كما تقدم

وقلما تباع خلاصات العطور الا لصناعها . ويختلف سعر الاوقية الواحدة من نحو جنيه الى عشرات الجنيهات . وثمن بعضها يفوق وزنه ذهباً . وهؤلاء يمزجونها ثم يحلونها في الكحول ويبيعونها في زجاجات انيقة ، لا يحتوي المحلول الذي فيها على اكثر من ١٠ في المائة عطراً و ٩٠ في المائة كحولاً

وسر صناعة العطور هو في مزج الخلاصات الزيتية قبل حلها ، وهو فن دقيق ، توارثت سره بعض الاسر التي اشتهرت بهذه الصناعة . فان الكولونيا الالماني ، لا يباح سر صناعته ، حتى للعلماء . وكان الكيماوي الالماني «بيس Piess» قد صنع للعطور سلماً شبيهاً بالسلم الموسيقي في اسفله العطور الشرقية القوية مثل عطر خشب الصندل وفي أعلاه العطور الطيارة الخفيفة مثل عطر شجرة الهيام Heliotrope . على هذا السلم العطري يستطيع الخبير البارع ان يمزج العطور كما يؤلف بين الانغام فيخرج منها عطوراً مركبة منسجمة . فاذا كان غير خبير ، وقع تنافر بين الاجزاء التي يصنع منها العطر المركب كما يقع التنافر في الانغام

فمزج العطور المختلفة لاخراج عطر جديد يستطيبه الناس ويقبلون عليه ، فن دقيق يحتاج الى حس مرهف ، والراجح ان اكتسابه ممكن بالاختبار وطول المرانة

فصنع العطور ميدان لبراعة الكيماوي . ولولاه لظلت العطور غالية الثمن عزيزة المنال الا على الاثرياء . خذ مثلاً عطر البنفسج . فهو من اندر العطور واغلاها ثمناً . فاذا زرعت فداناً بنبات البنفسج ، لم تستطع ان تستخرج من ازهاره ، الا بضع غطرات من عطر البنفسج الزيتي . ومن اشق الامور حفظه . لانه طيار . فلما حلل الكيماوي هذا العطر وجد ان عنصره الاساسي مادة تدعى أيونون . فاذا استفردت هذه المادة نقية من الشوائب بلغ من قوة رائحتها انها تشل حاسة الشم ، فلا يستطيع الانسان ان يتبين لها رائحة ما . فعمد الكيماوي الى محاولة تركيب هذه المادة تركيباً صناعياً في المعمل . وقد افلح في ما حاول . والعطور المحتوية على خلاصة عطر البنفسج اصبحت رخيصة ، حتى ليتعذر عليك في الغالب ان تبتاع عطر البنفسج الطبيعي ، لانه لا يستطيع ان ينافس العطر الصناعي ، فلا يصنع لانه لا يفي بنفقات استخراجه الطائلة . ومن هذا القبيل فاز الكيماوي بصنع المواد الاساسية في العطور والطيوب المختلفة كالمسك وعطر الورد وعطر الليمون وغيرها

ولكن العطور التي يصنعها الكيماوي لا تصلح ، وحدها ، الا لصنع العطور الرخيصة . ولذلك تمزج ببعض العطور الطبيعية في صنع العطور المركبة ، لان اصحاب الحس الدقيق يستطيعون ان يميزوا العطر الصناعي البحت

پول پانليفه

Paul Painlevé

كتب العالم البريطاني توماس جريتوود في مجلة نايتشر قال : لما ذهبت الى لقاء المسيو پانليفه قبيل وفاته كان منهمكاً في إعداد الجزء الثاني من محاضراته المشهورة في «ميكانيكية السوائل» التي القاها حديثاً في السوربون ، فرأيت «الرئيس» (كما يدعوه اصدقاؤه) وهو في شفق حياته ، مشغولاً بالمباحث التي شغفتهُ ، قبلما لبّى نداء الوطن وخاض ميادين الخدمة العامة . وكان حينئذٍ ناقهاً من علة اصابتهُ وأقعدته عن العمل والدرس ، وكان يأمل ان يتاح له اعداد خطبته الافتتاحية ليتلوها في « معهد الفنون والصنائع » الذي دعي باسمهِ ، اعترافاً بفضله ونبوغهِ . ولكن القدر لم يمهله ، فوضع نعشهُ في ردهة ذلك المعهد ، قبل حمله الى البانثيون (مقر رفات الفرنسيين العظماء). ففرنسا خسرت بوفاتهِ ابناً من أكرم ابنائها ، والعالم رياضيًّا وسياسيًّا من اعظم رياضييهِ وساستهِ

***

قلما يتاح لرجل من المشتغلين بالشؤون العامة ان يجمع بين المكانة العلمية والمقام السياسي في أعلى مراتبهما . ولكن المسيو پانليفه كان من هؤلاء

ولد في باريس سنة ١٨٦٣ وتلقى العلم في دار المعلمين العليا (الايكول نورمال سوپيريور) واحرز لقب دكتور في علوم الرياضة ثم اثبت بمباحثهِ انهُ رياضي من الطبقة الاولى ، فعين استاذاً في السوربون وانتخب عضواً في مجمع العلوم

ومنذ ما قامت في فرنسا قضية دريفوس الشهيرة بدأ يوجه عنايتهُ الى السياسة ، ففي سنة ١٩٠٦ انتخب نائباً اشتراكيًّا مستقلاً عن باريس ، ووجه عناية خاصة الى شؤون الجيش والاسطول والسلاح الجوي . ولكنهُ لم يشغل منصباً سياسيًّا كبيراً قبل الحرب الكبرى . وفي سنة ١٩١٥ الف بريان وزارة واختار پانليفه ليكون وزير المعارف فيها . ولكنهُ اختلف مع رئيسه في طريقة مواصلة الحرب . فلما اعاد بريان تأليف وزارته هذه في ديسمبر سنة ١٩١٦ خرج پانليفه منها

وفي مارس سنة ١٩١٧ الف الوزير ريبو وزارته واختار پانليفه لوزارة الحربية ، فاقدم في الحال على تعيين الجنرال پتان قائداً عامًّا لجيش الفرنسي بدلاً من الجنرال نيفل . فلما استقال

ريبو دعي بانليفه لتأليف الوزارة الجديدة وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩١٧ . وكان يود أن يشرك الاشتراكيين معهُ في هذه الوزارة ولكنهم تشددوا وغالوا في مطالبهم ، تألف الوزارة من دونهم ، واستبقى لنفسه منصب وزير الحربية علاوة على الرآسة . وفي اكتوبر بعد تأليف الوزارة بشهر واحد ، أحسَّ بعد اقتراع تمَّ في المجلس ، ان الاكثرية الموالية لهُ ليست بكافية للسير بشؤون الدولة باستقلال ، وأعاد تأليف الوزارة فاخرج منها ريبو وضمَّ بارتو وزيراً للشؤون الخارجية . فلما مني الايطاليون بعد ذلك بهزيمتهم الشنيعة في كابوريتو اسرع الى رابلو فاجتمع هناك بلويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وأورلندو رئيس وزراء ايطاليا ، فاسفرت محادثاتهم عن انشاء مجلس الحلفاء الاعلى في فرساي، واختير الجنرال فوش ، ليكون الممثل الفرنسي الاول في هذا المجلس . وفي ١٣ نوفمبر رفض مجلس النواب الفرنسي تأجيل البحث في مسألة الدعاية الى وقف الحرب Defeatism (وهي المسألة التي حوكم فيها الوزير السابق جوزف كايو وحكم عليه) فاستقال بانليفه ودعي كلمنصو الى تأليف الوزارة التي حاكمت كايو ، وسارت بفرنسا الى النصر العظيم

●●●

وقضى بانليفه بعد ذلك بضع سنوات بعيداً عن ميدان السياسة الفعالة ، ولكنه عاد فألف مع هريو كتلة من احزاب اليسار، ففازت هذه الكتلة في انتخاب ١١ مايو سنة ١٩٢٤ فألف هريو الوزارة وانتخب بانليفه رئيساً لمجلس النواب . ولكن الاحزاب المتطرفة اضربت عن تقلد المناصب الوزارية الاَّ اذا ذهب ميلران — وهو رئيس الجمهورية — من منصة الرآسة فذهب . ويقال ان بانليفه حاول حينئذٍ ان ينتخب مكانه رئيساً للجمهورية فاخفق في سعيه . وانتخب المسيو جاستون دومرج

فلما سقطت وزارة هريو سنة ١٩٢٥ للاختلاف على بعض المسائل المالية ، خلفه بانليفه في الرآسة وأخذ على عاتقه وزارة الحربية ، وأقدم على عمل جريء اذ ضمَّ اليه الوزير السابق، المحكوم عليه ، جوزيف كايو ، وزيراً للمالية

في تلك السنة اشتدَّت الحال في مراكش على اثر الحرب التي شنَّها الامير عبد الكريم ، فطار اليها ، للنظر في الحالة ، وعاد فعين المارشال پتان لكي ينظم قوى المقاومة والهجوم على الامير عبد الكريم وجنوده. وفي يوليو من تلك السنة ثبت له انه لا يستطيع ان يستمر في الحكم من غير تأييد بعض فرق المعارضة، لان الاشتراكيين رفضوا ان يؤيدوا كايو في خطته المالية. وفي ٢١ نوفمبر تحوَّلت اكثريته الى اقلية فاستقال

خلفهُ بريان في رآسة الوزارة . واشترك هو مع بريان وزيراً للحربية . وكذلك شغل هذا المنصب نفسه في وزارتي بوانكاره اللتين طالتا من يوليو سنة ١٩٢٦ الى نوفمبر سنة ١٩٢٨

وقد انتخب پانليفه في حياته عضواً في مجامع العلوم في فرنسا وبولونا (ايطالي) واستوكهلم (السويد) وروما ومن مؤلفاته «دروس في الفرك» ودروس في «تحليل معادلات لاختلاف» وهو فرع من الرياضة العالية

***

كان شغف پانليفه بالرياضة اساساً لنظرته الفلسفية الى الطبيعة . وفي رسالته «اوليات الميكانيكا» عرض لبحث مبادىء الميكانيكيات القديمة، وفكرة العلة والمعلول ؛ واصول النسبية، وانتقال الضوء . وقد كان في البدء حذراً في الايمان بنظرية اينشتين ، بل انهُ وجَّه اليها في مجمع العلوم الفرنسي نقداً محكماً . فلما اقيمت مناظرة عامة في السوربون سنة ١٩٢٠ في موضوع النسبية ، اذهل پانليفه الحضور ، بكثرة الاحتمالات التي عرضها لتحلَّ محلَّ «اوليات اينشتين» . وكان اليوم مطيرا فلما خرج الجمع المحتشد ، مشى الاستاذ لانجفان — وهو مناظر پانليفه — مع جرينوود فقال لانجفان ، انني واثق بان پانليفه ، يغير رأيه بعد عشاء شهي . فلما ترجم جرينوود محاضرات ادنغتن في النسبية سنة (١٩٢٣) كتب له پانليفه مقدمة اعترف بها بالفائدة العظيمة الجليلة التي تجنى من «الصورة الكونية الجديدة» المبنية على نظرية النسبية . ومما لا يُرتاب فيهِ ان نقد پانليفه لنظرية النسبية ، كان من البواعث الفعالة على استكمال تنائجها ، وتصحيح بعض تفصيلاتها ، وتوضيح مقتضياتها الفلسفية

كان پانليفه قصير القامة ، طيب القلب ، تحمل اساريره آثار العناء العقلي الذي يكابده في اشغاله العقلية واعماله الادارية . فقد كانت حياتهُ ، حياة بساطة وجهاد . وكان يتشدَّد في انجاز كل اعماله بنفسهِ . وهذا لا يتاح لانسان الاَّ اذا كان نادراً في قدرتهِ على جمع افكاره وتوجيهها الى الموضوع الذي يريده . وقد ذكر جرينوود انهُ كان في مكتبهِ يوماً يناقشه في موضوع الانتخابات وإذا جرس التلفون يقرع ، وكان مخاطبهُ زميلاً في السوربون ، يستوضحهُ في مسألة علمية ، فأفاض پانليفه في بسط علاقتها بالمعادلات التفاضلية في حساب التمام والتفاضل فلما انتهى التفت لرأيه معتذراً ، واستأنف البحث في الانتخابات

ومن عجائب العقل الانساني ، ان يشتهر هذا الرجل بشرود الذهن كذلك . فيروى عنهُ انه كان يخرج احياناً من مجلس النواب ، فيستقل سيارة أجرة الى داره ، وسيارتهُ الخاصة تنتظر . ويقال انهُ كان احياناً يذكر رقم تيغونهِ لسائق سيارة ، اذا سأله عن عنوانهِ ؛ بل اغرب من ذلك انهُ خرج من داره يوماً ، وكان ينتظر صديقاً . فكتب كلمة مؤداها «پانليفه يعود حالاً» وعلقها بالباب . ثم عاد قبل مجيء صديقهِ ، فرأى الورقة معلقة ، فوقف پانليفه ينتظر عودة پانليفه !

داود بركات

١

مقتطف دسمبر ١٩٣٣ تمام صفحة ٥٨٩

داود بركات

صورة وحياة

رزئت الصحافة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، بفقد داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وقد كان برًّا بزملائه واخوانه ، مخلصاً لوطنيه لبنان ومصر ، فأطوت بموته صفحة من صفحات القلم المجيدة في الشرق . وقد رغبنا الى صديقه الاستاذ يوسف حتم في كتابة فصل فيه ، فتفضل بالصورة القلمية التالية :

---

١ — صورة من حياته

كهل ربعة القامة واضح الجبين مشرقهُ ، واسع الحدقتين حادّ البصر نافذه في حياء ، حاضر الابتسامة سريع الجواب . يسير مطرق الرأس بادي التفكير مهمل الشعر واللباس في عصاً لا تحمله بل يحملها هو ، ملقاة على عضده ويده الاخرى لا تخرج من جيبه الاّ لتمر على جبينه او لتلقي بغطاء رأسه الى الوراء — تلك صورة لداود بركات وهو ذاهب من منزله بالفجالة الى جريدة الاهرام

يأنف ركوب السيارات ويؤثر عليها العربات إما محافظة على قديمه وهو المحافظ على دينه وعاداته . واما لما يأخذه من رأفة على الحوذيين الذين نضبت موارد رزقهم بعد ان الف الناس ركوب السيارات . ذلك ما حدّثني به داود وتلك صورة اخرى مصغرة لذلك القلب الفيّاض بالرحمة والحنان

فاذا بلغ منزله الثاني في دار الأهرام — ذلك المنزل الذي فيه فتاته وعروسه وافراحه وآلامه وذكريات شبابه وجني يديه التي يمساه ويغطاء رأسه في غير ما عناية ولا اكتراث واحتفى بالكثير من الوزّار الراقيين قدومه وتلطف معهم بالحديث واكرم وفادتهم واخذ في مطالعة اكداس الرسائل الواردة بعناية لا يتوهمها محدثه وهو يسائله عن اموره الخاصة بل ربما اخذ يكتب احدى مقالاته التي لو طالعتها في الغداة لظننته قد كتبها في هدوء الليل وصفاء الذهن والخاطر

فاذا بلغ الليل وهنه وحلّ به التعب خرج محنيّ الظهر متثاقلاً في مشيته الى مقهى اللواء فجلس الى فئة مختارة من اصدقائه وزملائه يباسط هذا ويتبادل النكات مع ذاك حتى اذا

جدّ الجد وجرّهم للحديث الى امر هام فقلّب حاجبيه واستوى على مقعده واخذ يحدثهم بحادث التاريخ وكأنه يقرأ من كتاب او يباحثهم في سياسة اليوم حريصاً في كلامه عفيفاً في انتقاده صادق النظر في حكمه

فاذا طاب لهم طعام او شراب رأيته رقد أوماً الى الندل فهرول مسرعاً يحضر لهذا كأساً من الشراب ولذاك صنفاً من الطعام فاذا جاء وقت الحساب اعتذر اليك الندل باستيفائه القيمة من داود

تلك هي صورة مصغرة من داود في أهرامه ومن داود بين اصحابه ومنه في كرمه وسخائه

فاذا بلغت الساعة الواحدة صباحاً عاد الى مكتبه واخذ يتفقد ثوب عروسه الأهرام محرراً واثباتاً حتى اذا كانت الساعة الثانية ركب سيارة مستصحباً صديقاً او محرراً وذهب الى المطبعة في بولاق فالقى النظرة الاخيرة على صنعة يديه . ثم ينصرف الى منزله مطمئناً فالقى ما عليه من ثياب العمل واخذ يقلب كتب التاريخ والصحف والرسائل الى ان يغلبه سلطان الكرى فلا يستيقظ الاّ حوالي الظهيرة ليتناول القليل من الطعام ثم يعود الى عمله

كذلك صرف داود بركات سنيه الاربع والثلاثين متنقلاً الى الاهرام منصرفاً عن الاهرام

فاما وانا احدثك عن داود رجلاً فلا بدّ لي ان اكشف لك ناحية من نواحي حياته يجهلها الكثير من الناس حتى اقرب اصدقائه اليه . تلك حياته في منزله بين اهله وذويه

كان داود اذا أوى الى منزله وانصرف عنهُ زائروه ينصرف بجملته الى اخوته واخواته وبينهنّ الأيم ومنهنّ الفتاة ويحنو على ابنائهنّ وبناتهنّ فيباسط هذا ويداعب تلك طفلاً مرحاً ساذجاً لا تظن اذا رأيته بينهم وبينهنّ ذلك الكاتب العبقري الحرير الذي يخشى بأسه العظماء وتتزلف اليه ارباب المناصب وكبار الادباء

وربما طاب لداود — وكثيراً ما كان يطيب له — ان يدعو الى منزله رهطاً من اصدقائه واخصائه وليس منهم الاّ كل أديب فيبذل لهم الحديث العذب والحيّا الباشّ قبل الطعام والشراب ويجمع لهم في منزله دواعي الانس من غناء وطرب واسباب لهو وسمر وكان أحب شيء اليه ان يكون المجلس حافلاً بالاحداث والاطفال كأن هذا الكبير بكل شيء كان في سذاجة الاطفال والرضعان في طيبة قلبه وصفاء نفسه ورضي خلقه وقديماً كانت الشعور البيض تحنو على الشعور السود

وقلما كانت تخلو دار داود — ولهف نفسي ان تصبح اليوم وحشاً — من طالبي الحاجات وسائلي الحسنات ، يطرقون بابه ليلاً وفي النهار في ساع الطعام والقيلولة فيستقبلهم هاشّاً باشّاً يواسيهم ويسليهم ويتوجع لآلامهم وشكاتهم ويعدهم بقضاء حاجاتهم وقد طالما قضى اللبانات واغاث الملهوفين ونصر طلاب العلم والعمل بوجاهته ووساطته وماله على شدة حاجته الى المال

وكان اذا وجد متسعاً من الوقت اسرع الكرة الى الجمعية الخيرية المارونية التي تمت بفضل

عنايته وتشرف فيما بعد برآسته ليدّ رجالها بآرائه الصائبة وينظر في حاجة فقرائها

ولم تكن شواغله الكثيرة واخلاصه لوطنه الثاني — مصر التي اظلته سماؤها ورواه نيلها وألهمه جوّها وآخاه ابناؤها واخذ بيده عظماؤها — لم يكن كل ذلك ليلهيه وطنه الاول لبنان بل ظلّ اميناً على ولائه مخلصاً له في حبّه غاضباً لغضبه طاملاً على اعلاء شأنه وهو الذي كانت له اليد الطولى في تأسيس «جمعية الاتحاد اللبناني» التي أسدت قبل الحرب وفيها وبعدها اجلّ الخدمات للبنان وساعدته على نيل استقلاله . ولو صدق وعد الواعدين لكان هذا الاستقلال أتم وأكمل

وقد كان الوفاء اظهر صفات الفقيد رحمهُ الله . فقد كان وفيًّا كل الوفاء لوالديه ولاخوته ولاقربائه واصدقائه وللاهرام وصاحبها ولوطنيه العزيزين مصر ولبنان

برّ بوالديه فاقام لهما في مسقط رأسه بحمشوش ضريحاً فخماً وبنى لله كفّارة عن نفسيهما معبداً لاقامة الصلاة وبرّ باخوته فربّاهم التربية الحسنة العالية ومنع نفسه عن الزواج ليتمكن من الانفاق على اخوته واخواته . وبرّ باصدقائه فما ضنّ على واحد منهم بمساعدة او موآزرة او مشاطرة في فرح او حزن او تفريج كربة او بلاء

وبرّ بالاهرام وصاحبها امدّ الله بعمره فاحتضنه صغيراً وبذل له من حياته وأدبه وعلمه وكان كالجندي في ساحة الوغى قضى ونفله بيده . ووفى لوطنيه حقهما فدأب للدفاع عن مصر ولبنان وقضى حياته يعمل لخير مصر ويناضل عن حقوق مصر ويجاهد في سبيل مصر باخلاص ويقين وسعة اطلاع وحسن عقيدة وروح وثابة وقلم سيّال وهذه وقفاته الى جانب المرحوم مصطفى كامل ومقالاته « مصر والسودان » و« تعالوا الى كلمة سواء فان الحق احق ان يتبع » اصدق شاهد على حسن بلائه وصدق جهاده

وكان يعمل الجهد المستطاع على التأليف بين وطنيه وقد طالما تمنّى على الله جمعهما في وطن واحد وهذه مقالاته في تاريخ « ابراهيم باشا والامير بشير الشهابي » و« اني اخاف على السديانة ان تقطع » اوفى دليل واصدق شاهد على اخلاصه ووفائه

٢ — صورة من ادبه

كان داود بركات رحمهُ الله صحافيًّا واديباً وقلّ ان تجتمع هاتان الصفتان في كاتب

كان فيه من الصحافيّ حسن الكياسة وسرعة الخاطر ودقة استخراج النتائج من الحوادث اليومية وبعد النظر في استجلاء النتائج البعيدة للحوادث الواقعة وكان فيه ميزة قلّ ان نجدها في صحافيّ غيره وهي تلك المقدرة على الاشارة الى مرام خفية واغراض خاصة مقصودة باسلوب واضح ولكنه غير صريح جليّ ولكنهُ مبهم لا يخفى على عين الرقيب وهو مع ذلك لا يعرّض كاتبه لنقمة حاكم او لانتقاد منتقد او غضبة غاضب ولعلنا نوفق في وصف هذا الاسلوب اذا

اصطلحنا على تسميته « بالبيان بالكناية او بالتورية والايهام » فقد كان يقرأ مقالة داود في صدد امر لا يصح التصريح به اكثر من قارىء وكان كل من قرّاء هذه المقالة يفهم منها ما يجب ان يفهمه او ما يريد ان يفهم بحيث كان يتمكن داود من الخوض في كل موضوع ولو امتنع الخوض فيه دون ان يقع تحت طائل او ملامة، وكذلك تمكنت الاهرام ولا سيما إبان الحرب العالمية ان تطلع قراءها على كل خفيّ ممنوع نشره دون ان تتعرض الى ايقاف او تعطيل . وكان فيه من الاديب دقة التصور وجميل الخيال وحسن الديباجة وجودة الوصف والشعور بما يكتب للناس مما يثير العواطف او يؤلم الناس

فكان اذا رثى تبيّنته شاعراً لا نارّاً في شعوره واسلوبه ولو قرأت رثاءه لتلك السيدة النبيلة ذات الايادي البيض على داود والاهرام — مدام تقلا باشا — لبدا لك منها عاطفة الشاعر وبيان الشاعر واخلاص الوفي . وكان اذا وصف انتقل بك الى اسمى مدارج الخيال وعرف كيف يكسو موصوفاته اجمل الصور واصدقها بحيث تلمس ما يصفه وتحس به بارزاً في شكل محسوس رائع

وكان داود بركات تاريخاً حيًّا صادقاً لمصر وحوادثها ولوزراء المصريين الذين تولوا الحكم منذ النصف الاخير للقرن التاسع عشر وكان فوق ذلك حافظاً لانساب المصريين واسرهم وحياة رجالاتهم ومذاهبهم السياسية ونزعاتهم الفكرية بحيث كان اذا شاء ان يكتب عن حدث او واقعة تاريخية او معاهدة سياسية او مسألة حزبية لا يرجع الى كتاب ولا الى تاريخ بل يملي كل ذلك عن ذهنه وذاكرته وتلك قوة لم يؤتها الاّ داود رحمه الله

وكان في عقيدته السياسية على مبدإ الحزب الوطني مخلصاً كل الاخلاص لهذه العقيدة فكنت اذا ذكرت على مسمع منهُ اقطاب هذا الحزب وعلى رأسهم المرحوم مصطفى كامل امتلأ صدره حماسة وفاض لسانه في بيان فضل مصطفى على مصر والمصريين بما بثّه في صدور النشء من روح الوطنية والتضحية والاقدام

فاذا اجمعت اليوم كلمة الصحافة في الشرق على اطراء داود بركات والثناء على مقدرته الصحافية وخلقه المتين وادبه العالي وعفة لسانه . وجمال بيانه ووفائه لاهله واهرامه واخوانه فلا تكون فيما تكتبه مبالغة اومغالاة . فقد كان — برد الله ثراه — من ابرع الصحافيين في الشرق وأعفهم قلماً واقلهم عثاً في الخصومة واغزرهم بياناً ومعرفة واحفظهم للحوادث التاريخية واكثرهم الماماً واتباعاً للنهضة المصرية وللحركة الفكرية ولا شك ان وفاءه قد محت صورة جميلة تاريخية من صور الصحافة والادب والخلق والوفاء . وان الشرق قد لا يتهيأ له قبل انقضاء نصف جيل من الزمن ان يكوّن من النشء الجديد صحافيًّا له من المقدرة وطول الباع والكياسة ما كان للمرحوم المغفور له داود بركات

البحيرة

لألفونس دي لامرتين

نظم لامرتين هذه القصيدة بعد وفاة حبيبته جوليا التي خلد ذكراها في روايته المسماة « رافائيل » وهي من درر قصائده . وقد نزلت من قلوب القراء منزلها في قلب ناظمها نفسه . فلحنت مراراً واشتدرت الدموع تكراراً عندما ناحت بها اوتار الثاني ، ولا غرو فالطبيعة اشد اساساً واعظم شاعرية من الخيال ، لان الشاعر الاكبر كما يقول لامرتين هي الطبيعة لا الانسان . وهذه ترجمة تكاد تكون حرفية لها

هكذا ، نحن دائماً مدفوعون الى شواطىء جديدة ، يذهب بنا الليل الابدي ، بلا عَوْد ولا رَجْعَة ، فهل لا ينسى لنا يوماً ما ، ان نُلقي بمرساتنا في بحر الحياة ؟

ايتها البحيرة ! ما كاد العام يلفظ أنفاسَهُ ، حتى عُدْتُ وحيداً اليك ، فانظري ، بالترب من امواجك المحبوبة ، التي كان يجب ان تراها ثانيةً ، اجلس منفرداً على هذه الصخرة ، التي ابصرتها تَتَمَدُّ عليها

لقد كنت تُهدرين هكذا تحت هذه الصخور العميقة ، وكنت تتكسرين على جُنُوبها المزقة ، كما تفعلين الآن ، وكان الريحُ تُلقي بزَبَد امواجكِ على قدميها المعبودتين ، كما هي الحال في هذه البرهة

أتتذكرين عشيَّةَ كنا سائرين على صفحاتك الهادئة ، ونحن صموت ، ولا يُسمع في الأفق ، على الماء ، وتحت السماء ، سوى حركة المجذفين ، الذين يضربون بوزن متناسق ، لُجَجَكِ المُشجية

فارتفعت فجأة الفاظ ، لا عهد للارض بها ، فردّد الساحل المأخوذ بسحرها ، صداها المطرب ، فانصتت الامواج ، وأنشأ ذلك الصوت العزيز لديّ يُلقي هذه الكلمات :

« ايها الزمن ، قِفْ عن طيرانك ؛ وانتِ ايتها الساعات المهانة لهناتنا ، إنقطعي عن سيرك ، ودعينا نتذوّق لذائذ اسعد ايامنا ، السريعة الزوال »

كثير من الناعسين في هذه الحياة ، ينزعون اليك أيها الزمن ، فَسْرْ ، يسرّ لاجلهم ، واصرم بالصرام ايامهم ، حبل شقائهم الذي ينهش انشدتهم ، وأنسَ السعداء

ولكني عَبثاً ألتمسُ ، فالزمان ضنينٌ بهنيهات وجيزة ، والوقت يفلت مني ويهرب فابتهلتُ الى الليل ان يتّئدَ ، ولكن الفجرَ ما عتّمَ ان بدّد غياهب الظلام

فلننتحابْ اذن ، لننتحاب مراعاً ، ولننعم على عجل ، بالساعة المولّية ، فليس للانسان في حياته مرفأٌ يرسو فيه ، ولا للوقت ساحل يلجأ اليه ، فالزمن يسري بنا ، ونحن نمرّ مسرعين

ايها الزمن الحسود ، هل في شرعة الانصاف ، ان تمرّ اوقات الشقوة ، التي يساقينا فيها الحبُّ كؤوس الهناء مترعة ، بنفس السرعة التي تدبر بها ايام الشقاء ؟

والهف نفسي ! أليس بمقدرتنا ان نبقي حتى على أثرها ؟ فهل ولّت الى الابد ؟ وهل ضاعت كاملةً دون امل ولا رجاء ، وهذا الزمن الذي جاد بها ، هو ذاته الذي القاها في غياهب العدم ، ألا يعيدها الينا ثانيةً ؟

ايتها الازلية ، ايها العدم ، ايها الماضي ، لأنتم هوّات معتمة ، ماذا تفعلون بالايام التي تبتلعونها ؟ تكلموا : هل تردون الينا ذلك الانشغاف الروحي ، وتلك الافتتانات السابية التي تسلبونا اياها ؟

ايتها البحيرة ! أيتها الصخور الصمّ ! ايتها المغاور ! ايتها الغابة المظلمة ! انتنّ اللائي يبقى عليكنّ الزمن ، ويتسنى له اعادة زَهْوَ الصبا اليكنّ ؛ احتفظنَ من هذه الليلة ، احتفظي ايتها الطبيعة الجميلة على الاقل بذكراها

أُناشِدكِ الله ايتها البحيرة الجميلة ، ان تردّدي ، سواء كان بسكون مياهكِ وهدوئها ، او باسطخاب امواجك وثورانها ، او بمنظر سواحلكِ النضرة الضاحكة ، او بأشجار الصنوبر السود التي على حوافيكِ ، او بصخوركِ الموحشة ، المعلّقة فوق مياهك . . .

رددّي ، سواء كان بنسيمك المضطرب الساري ، او بدَوِيّ ضِفتّيك للمتنقل من شاطىء الى آخر ، او بالكوكب ذي الجبهة الشّجينية الذي يُنير صفحاتكِ بضيائه الساحرة . . .

رددي ، سواء برياحكِ المنتحبة ، او بزفرات اعشابكِ وورودك ، او بعَبيرك المعطّر فضاءك ، او بكل ما تسمعهُ الأُذُن ، وتراه العين ، ويستنشقهُ الفم ، رددي هذه الكلمة ، التي هي زفرة أتقلب الداجي ، وتحيب الروح الحائر :

لقد تحابّنا ، لقد تحابّنا جورج نيقولاوس

اكتشاف أثري عظيم الشأن

في جبل الكرمل قرب حيفا

آثار رجال عاشوا هناك منذ ٣٠ الف سنة

لما اكتشف مدفن توت عنخ امون سنة ١٩٢٣ كانت الصحف المصرية تنقل وصفه عن جريدة التيمس. واليوم ننقل الى قرائنا عن جريدة الدايلي مايل نبأ اكتشاف اثري عظيم الشأن وهو اكتشاف آثار انسان عاش في فلسطين منذ ٣٠ الف سنة اي قبل عصر التاريخ وارسلت آثاره الى لندن. قالت الدايلي مايل : واذا ذهبت الى الطبقة السفلى من كلية الجراحين الملكية في لندن وجدت رجالاً ونساء يعملون في الواح كبيرة من الحجر الكلسي لاستخراج آثار بشر عاشوا منذ ٣٠ الف سنة . فقد وجد تسعة هياكل من امة لم تعرف قبلاً . ومتى حررت من قيودها واخرجت من الصخور الكلسية التي سجنت فيها فسيفحصها السر ارثر كيث العالم الانثروبولوجي المشهور . وينتظر ان يكون هذا الاكتشاف صفحة جديدة في قصة الانسان

وجدت هذه الآثار في كهف على سند من اسناد جبل الكرمل . والذين وجدوها هم رجال بعثة مؤلفة من مدرسة الآثار والعاديات البريطانية في القدس والمدرسة الاميركية للدروس ما قبل التاريخ . وقد سميت وقتيًا هذه الامة التي وجدت آثارها «رجل فلسطين»

واجتمعت في احد انقبة البناء بالمستر تيودور « مك كاون » الذي اكتشف الهياكل العظيمة فارانيها فاذا عظامها محفوظة حفظاً غريباً وقال لي : «اسعدنا الحظ بالعثور على مقبرة عمرها ٣٠ الف سنة او نحو ذلك . وموقع هذه المقبرة فيما يسمى اليوم « مغارة الجديان » (صغار المعزى) . وهذه المغارة على علو ٣٠ قدماً في سند جبل قريب من حيفا

وأول ما عثرنا عليه جمجمة طفل ثم سائر الهيكل العظمي . وما زلنا نحفر وننقب بضعة اشهر حتى وجدنا ثمانية هياكل عظمية اخرى في صف واحد . ويظهر من تراصها الواحد الى جانب الآخر ان ذلك كان عملاً مقصوداً لتشغل اضيق ما يمكن من المكان . وفي رأينا انها ربطت بربط فنيت في ذلك الزمان الطويل . وفي خلال ذلك تكونت اغلفة كلسية حول الهياكل حفظتها من البلى على مر العصور . ومن هذه الهياكل ما حفظ اتم حفظ

ويكاد يكون من المؤكد ان «رجل فلسطين» قريب من رجل نياندرتال الذي وجد في اوربا ومعاصر له ولكن هناك بعض فروق كبيرة تبين لنا انهما ينتميان الى امتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى . وقد اشترك معي في هذا الاكتشاف المس دوروثي جارود من اشهر علماء الآثار عندنا وقد عادت الآن الى فلسطين وفهمت انها اكتشفت اخيراً ثلاثة هياكل اخرى

ويقول السر ارثر كيث ان هذه الهياكل اعظم اكتشاف اكتشف عن الانسان المعروف باسم «رجل العصر المتوسط الحياة»

باب الزراعة والاقتصاد

نهضة اليابان الصناعية

لفؤاد عبتتابي

﴿ قوى المياه المستعملة في الاعمال الكهربائية ﴾ ان اليابان تثابر الآن على اتباع خطط الغرب واساليبه في الاعمال الصناعية ولها اجهزة لتوليد القوى الكهربائية تزيد على مليونين كيلوات ونصف المليون . يكلفها ذلك سنويًّا ما لايقل عن ٢١ مليون جنيه استرليني[1]

اما المياه المستعملة لتوليد الكهرباء فقد بلغت منذ سنة ١٩١٦ قوة مليون ومائتي الف حصان ، ويقدر « ارنولد ه . جبسون[2] » استاذ الهندسة في جامعة فكتوريا بمنجستر ، ان المياه الطبيعية التي في اليابان يمكنها ان تولد قوى كهربائية قدرها ستة ملايين واربعمائة الف حصان ، ولكن المستعمل منها الآن لايتجاوز قوة (١٫٦٠٠٫٠٠٠) حصان

﴿ المناجم والمعادن ﴾ لما كانت اليابان امة صناعية فهي بحاجة كبيرة الى المعادن والزيوت والفحم ولكن اليابان تكاد تكون خالية من المعادن ، فتستورده من الخارج ، وما يستخرج فيها من الحديد يسير لايكاد يذكر ، على ان المعدل السنوي للحديد الذي يستخرج من المناجم اليابانية لا يزيد على (٣٧٫٠٠٠) طن ، واليابان تستورد مقادير كبيرة من الحديد والفولاذ من الخارج وذلك لكثرة الاحتياج اليه في المصانع والمعامل ، لصنع السفن وعمل الاسلحة . اما الكبريت فيستخرج من رواسب البراكين ، والبترول يوجد في اكثر الجزر ولكن مقاديره قليلة ، ولذا يؤتى به من الخارج لكثرة الطلب عليه ، والموجود منه في البلاد يتناقص مقداره سنة بعد سنة ، فقد استخرج في سنة ١٩٢٢ اكثر من (٧١) مليون غالون من البترول ، ولكنه نقص في سنة ١٩٢٦ الى خمسين مليون غالون

وبلغ عدد المناجم الى نهاية سنة ١٩٢٦ (١٫١٩٥) منجماً ، تلتاها للفحم والبترول ، وبلغ عدد العمال الذين يشتغلون فيها (٢٩٣٫٥٦٢) وقيمة المعادن المستخرجة (٤٣) مليون جنيه استرليني »[3] وهناك كثير من المعادن توجد منها مقادير قليلة في اليابان ، كالذهب ، والقصدير ، والرصاص ، والفضة ، والمنغنيس الى غير ذلك . وقد بلغت قيمة المعادن المستخرجة سنة ١٩٠٦

---

(١) R. Garcke مدير الشركة الانكليزية لجر القوة الكهربائية

(٢) Arnold Hartly Gibson

(٣) دائرة المعارف البريطانية المجلد (١٢) ص (٩٠٨)

(١٢٣ر٧٤٠ر١٠) جنيه . ولكن في سنة ١٩٢٦ زاد المحصول الى (٥٧٦ر٤١١ر٨٥) جنيه استرليني

﴿ الاسماك وصيدها ﴾ الياباني مشهور منذ القدم بكونه صياداً ماهراً في صناعته، وذلك لموقع بلاده الطبيعي ، فلا غرابة اذن ، اذا رأينا المشتغلين في اليابان بصيد الاسماك وبيعها وتجارتها يقاربون المليوني نسمة . ومحصول السمك يرسل اكثره الى الصين ، وكذلك زيت السمك فانهُ محصول مهم جدًّا في اليابان . وترسل اليابان من (السراطين) المحفوظة في العلب Canned crabs الى الولايات المتحدة فقط ، ما تزيد قيمته على خمسة ملايين دولار في السنة . والاسماك كثيرة جدًّا هناك ، حتى انهم يستعملونها كأسمدة في الزراعة ، وذلك مما ينتج منها بعد استخراج زيت السمك [1] .

﴿ الصادرات ﴾ كانت صادرات اليابان في ابتداء العصر الحاضر ، ما عدا الشاي والاواني الخزفية والحرير، قليلة جدًّا، وكذلك كانت مستوردانها ضئيلة لا تذكر ، وهي عبارة عن الامتعة والمواد المصنوعة ، وفي هذه المدة كانت اكثر صادراتها للولايات المتحدة ، ولكن اليابان تمكنت في اثناء الحرب الكبرى من نشر مصنوعاتها ، وترويج بضائعها في افريقيا وجزائر الارخبيل الجنوبي وقد احتكرت تقريباً تجارة الشرق الاقصى بأجمعها » [2]

ولم يكن في اليابان شيء يذكر من الشركات في سنة ١٨٧٠ ، فلم يمر على البلاد ربع قرن حتى بلغت الشركات التجارية والصناعية في سنة ١٨٩٦ (٥٩٥ر٤) شركة برأسمال قدره (٤٠) مليون جنيه استرليني . ويوجد الآن في اليابان (٠٠٠ر٣٤) شركة برأسمال (١١٥ر١) مليون جنيه استرليني . واننا لنرى واضحاً جليًّا تأثير نمو تجارتها الخارجية وازدهارها ، عند ما نعرف انه لم يكن لديها في سنة ١٨٧٠ ما تصدره للخارج من المصنوعات . وبلغت قيمة البضائع المصدرة الى الخارج سنة ١٩٠١ ثمانية ملايين جنيه ، وزادت قيمة تجارتها في سنة ١٩٢٥ الى (٢٣٠) مليون جنيه ، منها (٤١) ٪ بضائع تامة الصنع ، و (٥٠ ٪) بضائع غير تامة الصنع

وقد جرّبت بعض الدول ان تقلد البضائع اليابانية فخابت في ذلك واخفقت في سعيها ، ولم تتمكن من تقليدها بنجاح تام ، وخصوصاً الورق الياباني المصنوع من ورق التوت ، والمستعمل لتغطية الحواجز والجدران ، وزجاج النوافذ ، وكذا المناديل المصنوعة من الورق واذا شمّع هذا الورق امكن استعماله كمشمع ، وأدلة تمنع نفوذ الماء» [3]

وأهم صادرات اليابان ، الحرير والمصنوعات القطنية والمنسوجات والشاي والكافور والارز

---

(١) "The World Book Encyclopaedia" vol. 6. p. 3631

(٢) راجع مقال التجارة العالمية لـ (Julius Klein) في المجلد الثاني من كتاب (These Eventful Years)

(٣) The World Book Encyclopaedia vol. 6. p. 3632

والمحاصيل البحرية وغير ذلك . وفي الجدول الآتي يرى القارىء قيمة البضائع المهمة والمواد المصنوعة المصدرة الى الخارج في سنة ١٩٢٦ [١]

	جنيه استرليني
حاصلات بحرية	٢ر٣١٤ر١٢٤
مسكّرات وحلويات ومربيات	٣ر٧٣١ر٩٣٨
مشروبات ومأكولات	٤ر٠٣٣ر٧١٥
ادوية ومواد كيمائية وغيرها	٤ر٧٨٧ر٨٠٠
منسوجات حريرية وغزل وغيرها	٩٠ر٨٣١ر٥٩٤
منسوجات قطنية وغزل وغيرها	٥٠ر٩٩٣ر٩٠٣
اوانٍ خزفية وزجاجية	٤ر٨٤٢ر٩٤٣
ملابس	٦ر٥٣٧ر٣٦٥
المجموع	١٦٨ر٠٧٣ر٣٧٢

وفيما يلي جدول [٢] آخر يبين نسبة صادرات اليابان في سني ١٩٠٧ و١٩١٣ و١٩٢٧ ومقدار ذلك بالعملة اليابانية (يَنْ) Yen (يساوي اليَنْ شلنين وبنساً ونصفاً)

الصادرات

	١٩٠٧	١٩١٣	١٩٢٧
	يَنْ	يَنْ	يَنْ
الاطعمة والمشروبات والتبغ			
(ا) خام	١٧ر١١١ر٠٠٠	٢٤ر٦٥٥ر٠٠٠	٥٤ر١٦٥ر٠٠٠
(ب) مصنوعة صنعاً تاماً وجزئياً	٢٧ر٥٨٤ر٠٠٠	٣٧ر٤٨٨ر٠٠٠	٩١ر٣٩٧ر٠٠٠
المواد الاولية لا مواد خام	٤٣ر٦٩٠ر٠٠٠	٥١ر٣٤٠ر٠٠٠	١٣٧ر٣٢٤ر٠٠٠
مواد مصنوعة تشتمل في الصناعات المختلفة	١٩٨ر٩٢٩ر٠٠٠	٣٢٨ر٠٨٤ر٠٠٠	٨٥٢ر١٨٣ر٠٠٠
مواد تامة الصنع	١٤٢ر٢٥٤ر٠٠٠	١٨٤ر٩١٤ر٠٠٠	٨٣١ر٢٢١ر٠٠٠
مصنوعات ومواد مختلفة	٢ر٨٤٥ر٠٠٠	٥ر٩٧٩ر٠٠٠	٢٦ر٠١٢ر٠٠٠
المجموع	٤٣٢ر٤١٣ر٠٠٠	٦٣٢ر٤٦٠ر٠٠٠	١ر٩٩٢ر٣٠٢ر٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص ٠ (٩٠٩)

(٢) راجع ما كتبه هربرت كرنت (Herbert Crait) من غرفة التجارة بلندن في دائرة المعارف البريطانية المجلد (٨) ص ٩٩٨٠

﴿ الواردات ﴾ كانت اليابان في سنة ١٨٧٠ تستورد الدقيق ، والسكر ، والجلود ، والاصباغ ، والادهنة ، والملابس ، والادوات الحديدية ، فصارت الآن تصدر هذه المواد الى البلاد الاجنبية ، وكانت قبل ثلاثين سنة تستهلك مقادير عظيمة من مصنوعات القطنية ، فصارت الآن تزاحم هذه البضائع في البلاد الصينية ، ومصنوعاتها القطنية اسواق الهند نفسها . ومع ان بضائع اليابان اخف نوعاً وادنى جنساً من بضائع اوربا واميركا ، فانها تجد اسواقاً رائجة وزبُناً كثيرين ، وذلك بسبب رخص بضائعها الذي يجلب اليها الزبُن الذين يفضلون الرخص على نوع البضاعة وجودتها . ومع ذلك فلا ننسَ ان الازمة الاقتصادية الحاضرة قد اثرت ايضاً في الاسواق اليابانية فنزلت صادراتها بمقدار لا يستهان به . واما اهم وارداتها فالقطن والمنسوجات ، والحديد ، والفولاذ ، والسكر ، والارز ، والبترول

وفيما يلي بعض ما جاء في التقرير الذي اعدتهُ السفارة البريطانية في (توكيو) عن تقدم التجارة اليابانية[1] :

« ان الظروف الحاضرة في اليابان ، واحوالها الخارجية ، وطبيعة شعبها الطموح ، اجبر اليابان على توحيد الجهود لتحقيق ما سعت وتسعى اليهِ من تقدم في الصناعة ، ونهضتها الاقتصادية في عقود قليلة ، بينما صرفت غيرها من الامم اجيالاً برمتها للقيام بهذه المشروعات ، وانها في عملها هذا قد استفادت كثيراً من تجارب غيرها من الدول المزاحمة لها التي قضت سنين طويلة للاستفادة من تجاربها واخطائها »

وفي الجدول الآتي بيان تجارة الدول المختلفة مع اليابان وقيمة الصادرات والواردات في سنة ١٩٢٦ بالجنيه الاسترليني : —

	الصادرات	الواردات
الولايات المتحدة	٨٧٫٨٨٠٫٠٤٠	٦٩٫٤٣٦٫٠٠٠
الصين	٤٣٫٠٦٠٫٠٠٠	٢٤٫٤٤٠٫٠٠٠
الهند	١٥٫٩٢٠٫٠٠٠	٣٩٫٩٢٨٫٠٠٠
الهند الهولاندية	٧٫٦٣٠٫٠٠٠	١٠٫٥٢٢٫٠٠٠
بريطانيا	٦٫٠٧٣٫٠٠٠	١٧٫٣٨٢٫٠٠٠
هونغ كونغ	٥٫٤٠٧٫٠٠٠	١٠٤٫٠٠٠
المانيا	٨٣٠٫٠٠٠	١٤٫٨٢٤٫٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩١١)
(٢) دائرة المعارف البريطانية ، مجلد (١٢) ص (٩٠٢١٠)

	الصادرات	الواردات
اوستراليا	٥ر٢٦٨ر٠٠٠	١٣ر١٠٧ر٠٠٠
فرنسا	٤ر٣٢٩ر٠٠٠	٢ر٥٩٤ر٠٠٠
مستعمرات المضائق	٤ر٢٣٦ر٠٠٠	٤ر٠٧٠ر٠٠٠
كندا	٢ر٥٢٦ر٠٠٠	٦ر٥٣٢ر٠٠٠
مصر	٢ر٣٥٨ر٠٠٠	٣ر٢٦٢ر٠٠٠
المجموع	١٨٥ر٥١٧ر٠٠٠	٢٠٦ر٢٠١ر٠٠٠

ولمدينة (كوبه) Kobé الآن المقام الاول في التجارة الخارجية، ومدينة (اوزاكا) في المقام الثاني ؛ و(يوكوهاما) في المقام الثالث . وقد بلغ مجموع تفريغ البواخر التي دخلت المرافئ اليابانية سنة ١٩٢٦ (٤٩ر١٨٦ر٠٢٩) طناً منها (٣١ر٨٧٣ر٥٢٣) طناً تفريغ السفن اليابانية ثم تأتي بعدها في الدرجة الثانية انكلترة ، ومحمول بواخرها (٩ر٣٦٣ر٢٤٥) طناً. والبواخر الاميركية ومحمولها (٣ر٩٦٠ر٣٤٢) طناً

﴿طرق المواصلات﴾ لم يكن في اليابان سنة ١٨٧٢ سوى خط حديدي طوله (١٤) ميلاً يوصل مدينة توكيو بيوكوهاما، ولكن منذ ذلك التاريخ بدأت اليابان ببناء الخطوط الحديدية لربط اجزاء البلاد بعضها ببعض . فبلغت حتى الآن (١٣ر٠٠٠) ميل من الخطوط الحديدية ، والحكومة تملك وتدير ثلاثة ارباعها ، ومن ذلك الخطوط الحديدية في منشوريا ومنغوليا ومجموعها (٦٩٤) ميلاً . وقد منحت الصين حق بنائها لليابان . وفي المدة الاخيرة بدىء بمشروع عظيم وهو تسيير القُطُر بالكهربائية . لما عرض الخط الحديدي فثلاث اقدام وست بوصات[1]

﴿صناعة بناء السفن﴾ لما كانت اليابان امة صناعية ، تجارية ، فهي تحتاج الى سفن كثيرة لنقل بضائعها واستيراد المواد التي هي بحاجة اليها ؛ وهي لصيانة حقوقها في البحر تحتاج كذلك الى اسطول حربي قوي يحفظ لها مكانتها بين الدول ، ويصون حقوقها في البحر ، ويؤمن لها سير تجارتها الى البلدان التي تتجر معها . ولذلك نرى لليابان اساطيل قوية سواء تجارية او حربية ، ولا تكاد تنقطع بواخرها عن مرافىء المحيط الهادي (الباسفيك)

وقد كانت اليابان في سنة ١٩٠٠ تملك مائة وخمسين باخرة يزيد محمول الواحدة على الف طن . واما في سنة ١٩٢٠ فبلغت سفنها التجارية (٧٢٧) محمولها جميعاً (٢ر٣٥٦ر٤٧٧) طناً. وفي ابتداء هذا العصر لم تكن صناعة بناء السفن شيئاً يذكر . ولكن الآن فان الاحواض اليابانية

(١) راجع مادة « اليابان » في The World Book Encyclopaedia المجلد (٦) ص ٣٦٣٤

تبني اتقم السفن التجارية واعظمها ، واقوى البوارج الحربية واسرعها ، لها وللدول الاجنبية أيضاً

وفي مدة ست سنوات نهايتها (١٩٠٢) اضيفت (٨٣٥) سفينة الى اسطول اليابان التجاري محمولها (٤٥٥ر٠٠٠) طن ؛ وقد كانت خزينة الدولة تدفع سنوياً مبلغ (٦٠٠ر٠٠٠) جنيه استرليني لتشجيع الملاحة وصناعة السفن ، فنمت هذه الصناعة نمواً عظيماً ؛ فاحواض بناء السفن بنت سنة ١٨٧٠ باخرتين محمولهما معاً (٥٧) طناً فقط ، ولكن الاحواض الحديثة بنت سنة ١٩٠٠ (٥٣) باخرة مجموع تفريغها (٣٨٠ر٥) طناً و(١٩٣) سفينة شراعية تفريغها (١٧ر٨٧٣) طناً . واما في سنة ١٩٠٧ فقد كان لليابان (٢١٦) ترسانة لبناء السفن Shipyards و ٤٢ حوضاً Docks خاصاً . وبينما كانت الاحواض التابعة للحكومة منهمكة في بناء اتقم البوارج الحربية واقواها ، كانت الاحواض الخاصة (التابعة للافراد او للشركات) تبني بواخر تجارية لا يقل محمول الواحدة عن (٩ر٠٠٠) طن

« وقد بنت اليابان في اثناء الحرب الكبرى (٩٣) سفينة للولايات المتحدة وانكلترا والنروج وروسيا وفرنسا وشيلي والدنمارك واسبانيا والصين ، وفي سنة ١٩١٩ فقط ، انهت المعامل اليابانية صنع (١٣٤) باخرة محمول الواحدة اكثر من الف طن ، ومجموع تفريغها (٦١٩ر٥٥٨) طناً »[1] وربحت تجارة اليابان البحرية ارباحاً طائلة في الحرب الكبرى. وبلغ مجموع تفريغ بواخرها التجارية سنة ١٩٢٧ ما يزيد على الثلاثة ملايين طن وسفنها الشراعية اكثر من مليون طن

« اما بحارة السفن التجارية فقد بلغ عددهم في سنة ١٩٢٥ (٤ر٣٧٩ر٦١٥) بحاراً من ذلك (٣ر٤٩٦ر٠٦٦) بحاراً يعملون في البواخر و (٥٤٩ر٨٨٣) بحاراً في السفن الشراعية ؛ وعدد الضباط البحارة في السفن التجارية (٥٦ر٨١٣) ضابطاً »[2]

***

هذا وقد اثبت التاريخ ان الشرقيين لا يقلون ذكاء وفطنة ومقدرة على العمل عن اخوانهم في الغرب . ولكن اذا ما زالت هذه الغشاوة عن عيونهم والقوا رداء الخمول والكسل والجهل عن عواتقهم ، فحينئذٍ يشرع مستقبل لامع سيقتهم اليه امبراطورية الشمس المشرقة ، فتبوأت مركزها اللائق بها واستوت على عرش من القوة والاخلاص والعلم متين ! ....

(١) M. Hanihara. in "These Eventful Years" vol I. p. 672

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩٠٥)

مكتبة المقتطف

آداب الطب

دفع اليَّ رئيس تحرير المقتطف بهذا الكتاب لأرى رأيي فيهِ فأوقعني في ورطة لا ادري كيف اتخلص منها لان النقد في الشرق ليس بالامر الهيّن . وسيرى القارىء كيف اخرج من هذا المشكل لا عليَّ ولا لي

والكتاب هو : آداب الطب وحياة الطبيب بقلم الدكتور فؤاد غصن خبير المحاكم واستاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وصاحب المجلة الطبية العلمية وعضو المعهد الملكي للصحة العامة في لندن . طبع في بيروت

هو كتاب جليل الفائدة جمعه مؤلفه على ما جاء في ديباجته «من معلوماته الخاصة واختباراته العديدة ومن معلومات الاساتذة الغربيين واختباراتهم المفصّلة في مؤلفاتهم» . اما معلوماته الخاصة واختباراته العديدة فلا شبهة في كثرتها لانه طبيب قديم خبير مارس الطب سنوات عديدة وهو فضلاً عن ذلك يشغل منصب استاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وينشىء بالعربية مجلة هي من ارقى المجلات الطبية والعلمية فلا عجب اذا جاء كتابه هذا شاملاً لما وضع لهُ ولا اغالي اذا قلت انه فريد في بابه لم ينسج على منوالهِ بالعربية في ما اعلم . ثم ان المؤلف قد احسن في عرض فصول منه على زملائه فنشرها تباعاً في مجلتهِ وبعث بنسخة منه بعد انجازه وقبل نشره الى سعادة الدكتور رضا بك سعيد رئيس الجامعة السورية في دمشق ومدير المعهد الطبي فيها والدكتور رضا بك طبيب مشهور له من سعة الاطلاع والخبرة ما يجعل لرأيهِ شأناً في ما يكتبهُ

قرأت هذا الكتاب من اوله الى آخره ولكنهُ يتعذّر عليَّ ان أوفيهُ حقه من النقد لان ذلك يقتضي البحث في فصوله فصلاً فصلاً وانا سأشير الى بعض فصوله ومحتوياتها

استهلّ المؤلف كتابه في فصل سماه الدعوة الى تعلم الطب ثم ذكر الصفات الضرورية ليصير الطالب طبيباً . منها ان الطالب ينبغي ان يكون ذا ثقافة عالية نال فيها قسطاً وافراً من العلوم واللغات الحديثة والقديمة مما له علاقة بعلم الطب . فهذا الفصل وما يليه ينبغي على كل طالب او ولي امره ان يقرأه لكي لا تخرج لنا المدارس اطباء هم دون المستوى الذي نريده

ثم يلي ذلك بحث في النخول الى المدرسة الطبية وشروط النجاح وحسن التصرف او سوئه والمرضى والزيارات الاولى وغير ذلك من الامور المتعلقة بالاطباء

ويليه فصل في كلام الطبيب فما قال فيه : « ليأذن لي زملائي الاطباء ان الفت نظرهم الى امر أراه من الاهمية بمكان وهو ان على الواحد منهم ان يزن كلامه ليل نهار فيزنه بين مرضاه وفي عمله وبين اصحابه وعلى مائدته حتى وفي خلوته الزوجية فلا يبوح بشيء من الاسرار التي يسرّها اليه مرضاه » . ولم ينسَ مضايقة الناس للطبيب المسكين فقال « بينما يكون الواحد منّا في الحفلات او المتنزهات او القطار او غير ذلك ناسياً انه طبيب مستريح البال يرى نفسه مرغماً على ان يتكلم على الطب » . ومن محاسن الاتفاق ان كاتب هذه السطور دخل لايام مضت على حلاّقه فلم يكد يجلس على الكرسي حتى بادره صاحبنا بقوله ان فلاناً مصاب بحصاة في مثانته فما رأيك فضحكت واخرجت له كتاب الدكتور غصن من محفظتي وقد كنت اقرأه في ذلك اليوم وأريته العبارة المتقدمة ورويت له قصة وقعت بين الطبيب والمفتي في احدى مدن فلسطين وهي ان طبيباً كان كلما رآه المفتي يشكو له شيئاً ، اما رأسه او صدره او ظهره او غير ذلك فلقيه يوماً في السوق وكانت السوق ضيقة ومزدحمة بالناس فقال له عندي بواسير يا حكيم قال له اكشف لاراها قال هنا في السوق قال انت طلبت ذلك في السوق فشفي المفتي بعد ذلك من جميع علله

ومن فصول الكتاب الانيقة فصل في زواج الطبيب قال فيه « ومن أهمها يجب على زوجة الطبيب الاّ تكون غيوراً والاّ كان الزواج مثل جهنم — وقد رُوي لي ان زوجة احد الاطباء كانت شديدة الغيرة عليه حتى انها لم تضبط نفسها عن المجيء الى غرفة الفحص ودخولها اليها فجأة دون تلبيه عند ما يكون آخذاً بفحص مريضة فتاة » على ان المؤلف لم يخبرنا شيئاً عن هذا الطبيب فهل كان زيراً غيسانيًّا او قشوماً دميماً او من الذين يتظاهرون بالتقوى والورع والمسكنة فالنساء اخبر بأزواجهنّ فلعلّ لها عذراً ونحن نلومها . فالحادثة تشخيصها صعب والانذار بسيء جدًّا

ثم فصل في طالبات الطب قال فيه ليس من الضروري ان تكون المرأة الطبية شنيعة قلت والعياذ بالله . ثم لو فرضنا انها شابة تارّة رعبوبة وزوجها غيور مثل زوجة الطبيب التي ذكرها في ما تقدم وكان مرضاها من القراهيد الغيسانيون ألاّ يكون الزواج في هذه الحالة كالزواج السابق

ثم فصل في التشخيص والانذار وغيره في المعالجة وفصول غيرها مما يجب على الاطباء معرفته او مما له علاقة بالاطباء ومرضاهم

ومن خير الفصول في هذا الكتاب فصل في شرف المهنة وبحثه في التدجيل وقد ميّز نوعين منه فقال « كل شخص يتعاطى الطب بغير صفة قانونية يجب ان تقاومهُ الجماعات الطبية باسم جميع الاطباء لانهُ خطر على الشعب » . اما النوع الثاني فقال عنه « ولكن الذي يعرّض جسمنا الطبي للخطر هو التدجيل المدعوم بالشهادة وهو كثير الانواع غير محدودها وهو

لنوع الحفظ على درجات مختلفة في جميع الطبقات » اي ان النوع الاول من التدجيل خطر على الجمهور والنوع الثاني خطر على الاطباء وهو في نظري اصعب الشرّين . وقد رأى المؤلف اتقاء لهذا الشر ان تنشأ في البلاد الشرقية نقابات طبية انرد لها بحثاً خاصًّا في آخر الكتاب وانما يتعذر ذلك في البلاد الشرقية ما زال فيها احتلال وانتداب ومعاهدات زائفة وامتيازات اجنبية فيحسن بالاطباء الشرقيين ان يعيروا هذا الامر اهتمامهم رفعاً لشأنهم بين الامم

والكتاب كما تقدّم حسن جدًّا قد سدَّ فراغاً في اللغة العربية وهو مكتوب باسلوب سهل العبارة فصيحها وكله خالٍ من التهجيج فأهنىء الزميل لارازه هذا الكتاب النفيس واشير على طالبي الطب والاطباء وكذلك جمهور الادباء على مطالعته لان لجميع الناس علاقة بالطب والاطباء

ومما قاله ما يأتي : قد قامت في سنة ١٩١٠ كل جمعيات الطب والصيدلة في باريس على نسق التعليم وطلبت العودة الى انتعابم القديم اي ينبغي على الاطباء ان يكونوا علماء لا محترفين واني اشير على كل طالب طب او كل والد يريد ان يدخل ابنه في مدرسة طبية ان يقرأ الفصول التي عقدها المؤلف في هذا الباب مثل الدعوة الى تعلم الطب والعقبات الضرورية الكافية ليكون الرجل طبيباً والاستعداد للدروس الطبية وادب الطلاب وشروط النجاح وحسن التصرف ونحو ذلك اي ان الطبيب يجب ان يكون طالماً

ولما كان للناقد ان يجد ولو عيباً واحداً في الكتاب فاني كنت اود لو اجتنب المؤلف استعمال الزبون « بمعنى المريض الذي يعهد بنفسه الى عناية الطبيب » ولو قال المريض وحده كما فعل في مواطن كثيرة لما اختلّ المعنى فقولنا الزبون يجعل الطبيب بمنزلة البائع والمريض بمنزلة المشتري . ثم ان للزبون معاني كثيرة قد توقع في مشاكل نسائية احياناً

امين المعلوف

اسماعيل المفترى عليه

Ismail The Maligned Khedive
by Pierre Crabites Routledge, London 12s. 6d.

كان عصر اسماعيل عصراً حافلاً بالحوادث الخطيرة

ففي سنة ١٨٦٦ فاز من السلطان بحق توريث ابنائه العرش في خطّ مستقيم وفي سنة ١٨٦٧ اتخذ لقب خديو وفي سنة ١٨٧٣ اعترفت الاستانة لمصر باستقلالها مع بقاء الجزية . ثم ان اسماعيل وجّه عنايتهُ الى تنظيم الحكومة والادارة والجارك وأنشأ مصلحة البريد المصرية (١٨٦٥) واصلح المدارس الحربية وشجع نشر التعليم ومدَّ السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبنى المنائر ومرفأ السويس وحاجز الامواج في ميناء الاسكندرية وشقَّ الترع وشيد الكباري وحارب تجارة الرقيق وبعث بحملة الى السودان لاستكشاف قلب القارة

السوداء . وفي عهده احتفل بافتتاح ترعة السويس(١٨٦٩) وانشئت المحاكم المختلطة(١٨٧٦)

ولو ان ملكاً او اميراً ترك نصف هذه المآثر في بلاد اخرى ، لاضيف لقب « العظيم » الى اسمه . ولكن من نكد الدنيا ، ان اسماعيل كان في حاجته الى المال ، لقيام بكل هذه الاعمال العظيمة ، يعامل طائفة من المرابين الدوليين ، لا يعرفون الاّ الجشع مبدأً ومعاداً . وهذه مصر طعمة سائغة لهم ، لان اميرها ، يريد ان يخرجها من الظلمة الى النور فليجوروا عليه ، ما مكّنهم من ذلك سلطان المال ، وليقرضوهُ القروض بفوائد عالية وليعطوه نحو٢٤مليون جنيه لقاء سندات قدرها اربعون مليوناً او تزيد ، وليستنجدوا بوزارات الخارجية يكبلون عنق مصر بالاغلال السياسية ، ضمانة لاموالهم ، ثم ليعمد رجالهم الى التاريخ يدوهونهُ ، عمداً او جهلاً ، فيرموا هذا الامير العظيم بكل نقيصة تسويغاً لفعلتهم . ألم يقل مركيز زتلند في ترجمته لاورد كرومر ان توفيق باشا « اثبت انه بالمقابلة مع سلفهِ الفتوح كان حاكماً لا بأس بهِ فلم يكن سفاكاً ولا مبذّراً ولا لصّاً » . وقال لورد ملنر: « ان اسماعيل جمع في نفسه كلّ صفة طيّبة وسيئة ، لابدّ منها لجعله مبذّراً امثل . كان مترفاً ، شهوانيًّا ، طمّاحاً ، يحب مظاهر الابهة ، ومجرّداً من المبدإ ، وكان في الوقت نفسه يفيض بالمشروعات العظيمة لتحسين حالة بلاده المادية » . وقال لورد كرومر: « ويقال بوجهٍ عام ان اسماعيل باشا اضاف مامتوسطهُ ٧ ملايين جنيه الى دين مصر كلّ سنة مدة ثلاث عشرة سنة . وقد بذّر كل المال المقترض الاّ ١٦ مليون جنيه انفقت على ترعة السويس »

فهل يرضى التاريخ بهذا الحكم على اسماعيل ؟

هل كان حقيقة مبذّراً لمال لنقص في ملكة تدبير المال ؟ هل كان حقيقة طالب لذّة يقدمها على شؤون الدولة ؟ أليس لهُ من الخصال ومن الآثار ما يردُّ عنهُ هذه الوصمات امام محكمة التاريخ العليا ؟

■■■

أسئلة تنزل في الصميم من تاريخ مصر الحديث . وقد اثبت القاضي كرابيتس في كتابهِ الذي ظهر حديثاً باللغة الانكليزية بعنوان « اسماعيل : الخديو المفترى عليه » ان هذه الاقوال تنطوي على جور وافتراء وتشويه للحقيقة . قال في مقدمة كتابه: « ان هذه الصفحات تمهّد لتلفيق تاريخي . انها ترفض ان تنضمّ الى الجوقة التي يقودها ملنر وكلفن وكرومر ، فلا تتفق معهم على ان اسماعيل باشا كان مبذّراً او طالب لذة او لصّاً ... لقد انقضت خمسون سنة منذ نفي اسماعيل المفترى عليه . فقد آن الاوان للبحث عن حقيقة ولايته في الوثائق المعاصرة التي لا يطعن في صحتها . ولو كان هذا الكتاب كتابي بالمعنى الضيق ، لكان يثبت رأيي فقط ازاء آراء جيش من المؤرخين الكبار ... ولكن الادلة التي اوردها تمهّد لاقوال مؤلفين

ذوي مكانة عالية . انني ارفض ان اقبل اقوالهم واستنتاجاتهم . واني اقدم مستندات من الوثائق المعاصرة لردّ ما جاؤا به عن نية حسنة، ولكن من دون ان يتغلغلوا في صميم الموضوع »

والمطلع على كتاب القاضي كرابيتس يلمس في كل صفحة من صفحاته انهُ تغلغل الى صميم الموضوع. فانهُ استخلص التهم الواردة في كتاب ملنر وزتلند وكروس واضرابهم. ولكنهُ لم يغفل ما يناقض اقوالهم في كتب ادون ده لبون الذي كان قنصلاً جنرالاً للولايات المتحدة الاميركية في ذلك العهد وظل مقيماً في مصر بعد اعتزالهِ لعمله الرسمي. وماكوان، وقد كان صحافيًّا بريطانيًّا وغيرهما . بل انهُ لم يكتف بالكتب المطبوعة والمنشورة ، فعمد باذن خاص من حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، حصل عليهِ بواسطة وزير مصر المفوض في وشنطن، الى سجلات وزارة الخارجية الاميركية للحصول على صور الرسائل التي تلقتها الوزارة في ذلك العهد من قناصلها في مصر . يضاف الى ذلك ان جلالة الملك، اصدر امره الكريم، بان تباح لهُ سجلات مكتبة عابدين الملكية لاستخراج الحقائق من الرسائل المحفوظة فيها

***

وقد خرج القاضي كرابيتس من كل ذلك بصورة منسجمة متسقة النواحي للخديو اسماعيل كان اسماعيل في الثالثة والثلاثين من عمره لما دعي الى تقلد المنصب السامي في هذه البلاد. ورجل في الثالثة والثلاثين ، ليس فتى يتقلب مع كل ريح . ثم انهُ كان زارعاً بصيراً بشؤون الارض والفلاحين . والزارع محافظ في الغالب . وما اشتهر بهِ من العناية باملاكه وتحسينها ورعاية فلاحيه، وجّههُ عند ارتقاء الاريكة الى شؤون البلاد . فقد وصفهُ ده لبون القنصل الاميركي بانه كان نشيطاً في عملهِ الى اقصى حدود النشاط. قال : لما كان من مقتضيات الحكم المطلق ان يطلع الرئيس على كل التفصيلات الدقيقة ، فكان محتوماً (على اسماعيل) ان ينهض باكراً في الصباح، ويقبل على العمل الذي يحبهُ — وهو تسيير ادارة الدولة — ويظل الى ساعات متأخرة من الليل...» اما ماكوان الصحافي البريطاني فيؤيد قول القنصل الاميركي. فانهُ يلخص خلق الخديو من هذه الناحية بقوله «الدولة هي الخديو» ثم يعمد الى التفصيلات فيقول بعد الاشارة الى اجتماعات الوزراء . — «فمن المفاوضة في معاهدة او قرض الى الموافقة على عقد لشراء غم او آلات ، انهُ يعرف كل تفصيل من تفصيلات الادارة ولا شيء يفوتهُ من الاعمال المصلحية الاّ ما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ... وبكلمة من الاسكندرية الى وادي حلفا . . . . لا يكتفي متوّه بالجلوس على الاريكة بل يحكم كذلك »

بل ان القنصل الاميركي قال في تقرير مرئي بعث بهِ الى وزارة الخارجية الاميركية : — ارتقى اسماعيل باشا الاريكة في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، فاظهر في قيامهِ باعمالهِ فهماً نادراً للرجال والاعمال ، وقدرة ادارية قلما عرفت في امراء الشرق . ومن ساعة ارتقائهِ الاريكة ، وقف

نفسهُ، ونشاطه الذي لا يفتر، على تقدم مصر الداخلي » وتاريخ هذا الكتاب ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ اي عشر سنوات بعد تقلُّد اسماعيل لمنصبهِ العالي

فهل يعقل ان يكون هذا الرجل ، رجلين ، الرجل الذي يقول عنه ملنر وزملاؤه ، انهُ كان طالب لذة ، مبذّراً ، يحب الابهة . والرجل الذي يقول عنهُ ده ليون وماكون انهُ كان يبذل نشاطه الذي لا يفتر في سبيل تقدم مصر ، وتدبير شؤونها ، نحو ١٤ ساعة كل يوم و ٣٠٠ يوم كل سنة ؟

يتهم اسماعيل ، بانه زاد دين مصر ، نحو ٩٠ مليون جنيه ، وان هذا المال — الاَّ ١٦ مليون جنيه منها انفقت على قنال السويس — بذّر تبذيراً

هذه هي المشكلة التي يعرض لها القاضي كرابيتس بكل تفصيل ، ويخرج منها بان ولاية اسماعيل ، لها ميزانيتان اما الاولى فمالية . واما الثانية فأدبية

وقد اثبت اولاً تضارب الاقوال في مقدار الدين الذي اضافهُ اسماعيل الى دين مصر . وفضح في ناحية من النواحي افعال المرابين الدوليين الذين كانوا يعقدون لهُ قرضاً بمبلغ معيَّن ، وبفائدة عالية ، وكيف حتم على الوالي اصدار السندات اللازمة ؛ ثم هم لم يدفعوا لهُ ، الاَّ جزءًا من مبلغ القرض» ففي الصفحة ٢٩٤ من كتاب القاضي كرابيتس بين ان الخديوي اسماعيل اقترض من المالبين بين ١٨٧٠ — ١٨٧٩ مبلغ ٠٠٠ر٨٠٢ر٢٣ جنيه اضطرَّ ان يصدر بها سندات بقيمة ٠٠٠ر٥٠٠ر٤٠ جنيه . ويتهم اسماعيل بانهُ لاسرافهِ اضطرَّ ان يبيع اسهمهُ في شركة ترعة السويس . ولكن ينسى من يتهمهُ بذلك انهُ احتفظ ، عن فهم ، بحصة مصر في ارباح الشركة وهي ١٥ في المائة ، وقد بلغت قيمة هذه الحصة سنة ١٩٣٢ ما يزيد على مليون جنيه وان هذه الحصة بيعت بعد تنازله وخروجهِ من البلاد. ثم يلبس كذلك ان اسماعيل استردَّ ما كان قد منح للشركة من اراضي مصر (نحو ٦٠ الف هكتار) يقدَّر ثمنها باضعاف ذلك المبلغ (٠٠٠ر٢٠٠ر١ جنيه) الذي اضطر الى دفعهِ تعويضاً نزولاً على تحكيم نبوليون الثالث

اما الميزانية الادبية فيجب ان نذكر فيما يتعلق بالترعة انهُ الغى السخرة في حفرها، وكان معتمد الشركة عليها عما دسَّ في عقد الامتياز الذي منح لدلسبس. ومنع الشركة من احتلال منطقة من ارض مصر باختيار واليها السابق. ثم انهُ فتح السودان لاحبًّا بالغزو والفتح، ورسائله الى بايكر وغوردن تشهد بذلك ؛ بل رغبة في محاربة تجارة الرقيق ، واستكشاف مجاهل القارة السوداء ، وتوسيع آفاق العلم . وغنم لمصر لقباً مميّزاً لواليها ، واستقلالاً تامًّا لها لولا الجزية للباب العالي . ولو انهُ اراد ان يغنم ذلك بحرب لانفق في الحرب اضعاف ما انفق في السلم ، اذا صرفنا النظر عن دماء الرجال التي حقنها . وكل هذه اعمال لا نستطيع ان نقدرها بالمال فلا يمكن ان تظهر في موازنة مالية

اما نقد القاضي كرابيتس لتقرير كايف ، وبيان ما فيهِ من الاضطراب ، واقامة الدليل على ان اللجنة التي وضعتهُ لم تفهم حالة البلاد فهماً صحيحاً حينئذٍ فمن اجل فصول الكتاب على ما عانهُ المؤلف من مشاق البحث

والخلاصة ان كرابيتس لا ينكر ان اسماعيل انفق مالاً ، ولكنهُ ينكر بشدَّة انهُ بذَّره تبذيراً بل يقيم الدليل على ان اسماعيل لشدَّة فطنته كان يرى ابعد مما يرى معاصروه

ولكن الامر الذي لا ريب فيهِ ان اسماعيل باشا انفق مالاً اقترضهُ من المرابين الدوليين وانهُ انفقهُ على ما اثبت المؤلف في سبيل اصلاح البلاد وترقيتها واستقلالها عن الدولة العثمانية. ولكن هذه القروض كانت سبيلاً سلكهُ الطامعون الى تكبيل مصر بالاغلال السياسية التي تحمل اثقالها الآن.

ف.

صناجة الرياشي

الجزء الاول : اناشيد الارواح، يقلم تيلان الرياشي ، كتب مقدمته الاستاذ امين نخله — ٨٥ صحيفة من القطع الكبير — طبع بمطبعة الكشاف ببيروت على رسوم ومزبة من ريشة مسطى فروخ

نعم بين دالية أبي العلاء ورباعيات الزهاوي وكواكب جبران وصنَّاجة الرياشي — كما يقول الاستاذ أمين نخله — نسبٌ وعِرقٌ متين ، وان كل ذلك غراس عجيب طلع في المعرَّة وأورق في نيسابور ذكَّاها نبت في دهليز أبي العلاء ومال على بساط الخيَّام بالظل والزهر ... ولكن ما أحسَّهُ ابو العلاء في الحياة ، وما لمسهُ الخيَّام منها ، وما عرفه جبران والزهاوي ، وما شربهُ فوزي المعلوف ، ولمحهُ الرياشي إن هو الاَّ احساسٌ ذاتيٌّ يطغى على النفس فيذيقها المرارة ويجرِّعها السمَّ ويكويها بالنار فتضطر الى تبريد نارها بأنفاسها فتهتف من الاعماق تلك الصيحات الانسانية الموجعة ، ولكل صيحة حنجرتها ، ولكل حنجرة اوتارها ، فتصدر الانغام مختلفة وان كانت اللوعة التي تثيرها متشابهة الفصول

على انَّ هناك تشابهاً عظيماً تلمسهُ اول وهلة عند اطلاعك على صنَّاجة الرياشي بينها وبين ملحمة المرحوم فوزي المعلوف « على بساط الريح » ...نعم هناك تشابهٌ عظيم في كثير من الآراء والافكار والغاية جدا بالشاعر الرياشي الى ان يتمشى في حدود التشابه الى اقصاها حتى بلغ طريقة نظام الطبع والرسوم الرامزة الى فكرة القصيدة

وقبلان الرياشي ، وان كنت لم اقرأ له قبل « الصناجة » شيئاً ، ألمحهُ من خلال اناشيده التي يضربها على صناجته شاعراً انسانيًّا يحاول الوصول الى أبعد آفاق الحياة ، بل يريد ان يتجاوز هذه الآفاق الى ما وراءها الاَّ أن اشياء تحول بينه وبين ذلك ، واظن انه لو توفر على امتلاكها حتى تتوافر لديه لفاز بما يؤمل ، فهو قليل الاهتمام بالصياغة والوزن الشعري ، يحاول الاحتذاء ، وجدير به ان يهتم بوزنه وصياغته وان يترك شاعريتهُ في أفق ليس فيهِ مرايا تعكس على شعره

وجوه آخرين ، ولا يلبس شاعريته أثواباً لشاعريات آخرين

فمن سقطاته في الوزن — وفي الصناجة من ذلك كثير — قوله :

وبعد قليل أتى كاهنٌ يضيء الشموعَ ويذكي البخورا
ويتلو الصلاة على نعشه وهو جاثٍ يناجي الإله الغفورا

وقوله : وما كان في حلمه شبحٌ ولا كان قتل الضعيف اضطرارا

وقوله : نظرت ربّات الجمال اليه يتغنى بحبها ويجيدُ

وكان يصحُّ ان تكون كلمة «جثيٌّا» بدل «وهو جاثٍ» وكلمة «مشبع» بدلاً من «شبع» و « ربّةُ » عوضاً عن « ربّات » ليستقيم له الوزن ، ولعلَّ هذه وما يشابهها أخطاء مطبعية يتداركها الشاعر في طبعة ثانية

ولاحظتُ في الصنّاجة في قصيدة « رمز الأمومة » تفككاً بين المطلع والقصيدة وان لا رابطة بينهما وكان يجب ان يربط الشاعر بينهما كما فعل في غير هذا الموضع، ولاحظت تفككاً في خيال الشاعر يجعل الصورة غير متفقة الالوان ، متباعدة الظلال ، جامعة لمراءٍ متنافرة مثل قوله في هذه القصيدة ايضاً :

فما (ابتسمت) أمُّهُ للولاد وألوت عليهِ تهزُّ السريرا
وتوسعهُ قُبلاً حلوةً تسيل حناناً وحبّاً طهورا
وتنهلهُ فوق عذب الحليب من (البسمات) شراباً غيرا

فكيف لا تبتسم الأم وهي تبتسم ! ؟ وقوله في قصيدة « الشاعر والمرأة » :

آدمُ جاء من تراب ولكن جئتِ من لحمٍ أو دم مسفوك

ثم قوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

انتِ من طينة الملائك كوّنتِ وثم كنت عرشاً أثيلا

فانه رغم اختلال الوزن في البيت الاول فان في هذين البيتين تنافراً وإلاّ فكيف لا تكون المرأة مخلوقة من التراب كآدم في البيت الاول وهي مخلوقة في البيت الثاني من طينة الملائكة وكان أجدر به ان يقول : « انت من عنصر الملائك كوّنتِ » أما الشطرة الثانية فان معناها غير لائق !

على اني اعجب في الرياشي بروحه واعجب بخياله ، واعجب اكثر من ذلك برغبته في التحرّر ولكني ادعوه قبل ان يتوغل في آفاق الحرية الى ان يتزوّد كثيراً حتى لا تدعوه قلةُ الزاد الى السقوط من عرشهِ ! ولعلهُ في الجزء الثاني من صناجته لا يدعونا الى مطاوعة الاستاذ امين نخله في الاكتفاء بما في الصناجة بهذا العطش المميون حتى اذا طرح ابريق الخيام دون ريّ عاد الينا بما في الينابيع من عذوبة وبما في اعماقها من اسرار حسن كامل الصيرفي

الاسلام والقبائل في مستعمرة نيجاريا

L'Islam et les Tribus dans la Colonie du Niger
Editions Geuthner, Paris.

ان الفضل في الاطلاع على جغرافية نيجاريا راجع الى روّاد الافرنج الذين رحلوا اليها منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأن ما صنفته العرب عنها بات مجهولاً او كاد

وقد دخل الاسلام تلك البلاد عن طريق السودان على يد الشريف محمد عبد الكريم المادلي أو على ايدي تابعيه ومريديه ، وعن طريق المغرب مباشرة بواسطة تجار طرابلس . وبعد ذلك تغلغلت السنوسية الى تلك البقعة في نهاية القرن التاسع عشر

على ان الاسلام لا يعتنقه جميع اهل نيجاريا . ففيهم طائفة كبيرة تدين بالفتيشية . ومنها من يخالط المسلمين ويصاهرهم ومنها من ينتبض عنهم ويقاطعهم . والمسلمون يبلغ عددهم ٧١٨٠٠٠ والفتيشيون ٢١٢٠٠٠ . واشد المسلمين تحمساً هم الطوارق للثّسون ، ولكن تقوامهم اقرب الى التظاهر . ومما يحسن ان ينقل هنا ان الانكليز للحنّدين تلك البقعة لا يحاربون الاسلام بل يعززونهُ . ويقال ان كبار الانكليز يشتركون مع المسلمين في بعض عباداتهم ، ومن ذلك ان المندوب السامي في (سوكوتو) يصاحب امام المسلمين الى مقام هنالك يدعى مقام عثمان فوديه حيث تقام الصلاة

والسيو مارتي Marty صاحب هذا الكتاب يذكر ذلك كله ثم يحدد بلاد النيجاريا ويبحث في كل من اقسامها مع سرد خصائصها وذكر اعيانها وعرض مظاهرها الدينية بين جوامع ومقامات ومدارس ومكاتب

ترجمة حديثة للقرآن

Le Coran. Editions Geuthner, Paris

قام بهذه الترجمة اثنان ممن يُعهد اليهم في الترجمة الرسمية في بلاد المغرب . وقد تصفحت هذه الترجمة فوجدتها غير وافية على نحو غيرها من التراجم الافرنجية وانها ليعوز جانباً منها الطلاوة والامانة في النقل والدقة والبراعة في التعبير

وعلى هذا فلا اظن القرآن ينقله الى اللغات الاعجمية واحد او اثنان . وانما لا يتوى على النهوض بترجمته الاّ فرق من اللغويين والفقهاء والشعراء والكتّاب فلغوي يعنى بالالفاظ والتراكيب ويظهر معناها الصحيح بين حقيقي ومجازي ، وفقيه يؤول اللفظ ويشرح التركيب مستنداً في ذلك الى التفاسير القويمة ، وشاعر يفطن الى ما ينتشر في آيات القرآن من صور جلابة وتشابيه خلابة ، وكاتب يحكم العربية ويحذق اللغة المنقول اليها فيفرغ الآيات في قالب

رائع واسلوب سليم . على انه لا يشك احد انه مهما صنع اولئك القوم فلن يصلوا الى شيء من اعجاز القرآن . ولكنهم يستطيعون ان ينقلوه الى اللغات الاعجمية في شكل مقبول لا اعوجاج فيه من حيث المعنى ولا اختلال من حيث المبنى

ومما لا يخفى على أحد ان مسئلة ترجمة القرآن وقد اثارت ضجة في مصر لبضعة شهور مضت . فقال بعضهم بها وطعن غيرهم فيها فاشتد « النقاش » بين فضيلة الشيخ المراغي والاستاذ فريد وجدي . وليس هنا مجال هذا البحث ب . ق .

سيرة حياتي

كتاب الفهُ الاديب توفيق ضعون صاحب مجلة الدليل في سانبولو البرازيل . يتضمن هذا الكتاب اهم ما جرى لمؤلفه من الحوادث في سورية ومصر والسودان وسواها من البلدان في قالب روائي فكاهي ، نشرهُ مؤلفه عند بلوغه الخمسين من العمر (لانه ولد سنة ١٨٨٢ في سورية) قرأت هذا الكتاب على اثر مطالعتي اربعة كتب من نوعه . الاول مذكرات جمال باشا . والثاني مذكرات هندنبرغ . والثالث مذكرات لودندورف . والرابع مذكرات مسز اسكويث . طبعاً ان وقع الكتاب في النفس يتوقف على امرين اولهما خطر حوادثه وثانياً حسن تأليفه . واذا كان هنالك سبب ثالث فهو علاقته بالمؤلف . امتاز كتاب ضعون هذا بالعامل الثالث ، مع ان الثاني لا بأس به . عرفت هذا المؤلف في سانبولو وأؤكد انه لين العريكة ، حسن الطوية ، متواضع ، مخلص . لذلك كانت مطالعتي كتابه مقرونة بشيء من التآخي . فكأنه الى جانبي يحدثني

اما عدا ذلك فالكتاب رشيق العبارة ، وينطوي على قصص ونوادر شائقة ، مقرونة بنكات مستحبّة في بعض الاحيان . وهو عندي خير من رواية مختلقة بعيدة عن الابداع او من ترجمة رجل عاش في غير عصرنا ومصرنا . وقد تكون مطالعة هذا الكتاب لذيذة بنوع خاص للذين عاشروا توفيق ضعون اكثر مني لانهُ اتى فيه على ذكر حوادث تتعلق بهم ، او انهم عرفوها من قبل . وعلى كل حال فهذا الكتاب يضع امام القارىء

اولاً : صورة شاب عاش في اواخر القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن في البلاد العربية والمهجر

ثانياً : صورة للحالة الروحية في سورية ومصر والسودان

ثالثاً : يكشف عن الاخلاق واحوال الهيئة الاجتماعية في ميدان واسع النطاق

رابعاً : يعلن للملاء نفس اديب جميلة فهو سفر نفيس جدير بالمطالعة . ومطبوع طبعاً حسناً في نحو ٤٠٠ صفحة ، متين الغلاف ، حسن الترتيب . فأثني على حضرة المؤلف وأحييه تحية الآخاء

مصر حنا خباز

مغاير الكتب

١ — أنتم الشعراء

تأليف أمين الريحاني — مكتبة الكشاف ومطبعتها — بيروت سنة ١٩٣٣

يقول الشاعر المجيد بشارة الخوري

الهوى والشبابُ والاملُ المنشود توحي فتبعث الشعرَ حيّا
والهوى والشبابُ والاملُ المنشودُ ضاعتْ جميعُها من يديّا
يشربُ الكأسَ ذو الحجا ويبقّي لغدٍ في قرارة الكأس شيّا
لم يكنْ لي غدٌ فأفرغتُ كأسي ثم حطّمتُها على شفتيّا
ايها الخافقُ المعذّبُ يا قلبي تزحتَ الدموعَ من مقلتيّا
أفتمّ عليّ إرسال دمعي كلما لاح بارقٌ في محيّا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألـ ـقى وما أوّل الوشاةَ عليّا
أنا العاشق الوحيدُ لشلق تبعاتُ الهوى على كتفيّا

فتكون هذه الابيات الرقيقة سبباً في إثارة الريحاني على الشعراء المعاصرين الذين يحبسون شعرهم على البكاء والنحيب والحسرة والالم وإظهار الضعف عن تحمل الهوى . ويكثر الجدلُ بين الادباء عن هذا الشعر الباكي الضعيف ويتقسمون الرأي بين راض ومستنكر . ويسخر الريحاني في كتابه هذا من الشعر الذي يحبسهُ أهله على الضعف والتخنث والبكاء والتقليد ويهيب بالشعراء الى القوة والفتوة والرجولة والتجديد

ونحن من قبلنا لا نحبُّ ان نجادل فيما لا يلدُ الجدل فيه الاّ العناد والكبرياء والتعصب للرأي او للهوى ولا نبالي ان يقول الناس أصبنا او أخطأنا الاّ ان يكون ميزان الصواب والخطأ العدل والحق والاخلاص والقسط الذي لا يرجح بالناقص ولا يثقل بالوافي

الشعراء المخلص الذين لا يطلبون بشعرهم شهرة ولا سيتاً ولا دعوى مستطيلة هم ناسٌ من البشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم الاّ انهم من الامم بمنزلة مقياس الحرارة (الترمومتر) الذي يؤثر فيهِ تقلب الجوّ تأثيراً ظاهراً بيّناً يثبته العدد فلا موضع فيه للجدل الاّ ان يكون هذا المقياس في ذاتهِ مختلاً فاسداً لا يدلّ على حقيقة الجوّ الذي يحيط به وبذلك يصبح مقياساً لنفسه لا للناس . والحقيقة لا تعرَف الاّ من المقياس الصحيح الذي لا خللَ فيه فالناس جميعاً منتقرون اليه ، اما المقياس الفاسد فلا يرجى له خير الاّ ان يحطَّم او يهمل وما بأحدٍ اليه حاجة . وهذا مثل الشعراء في كل أمة من الامم

ونحن من قبلنا أيضاً لا نستنكر على شاعر ان يرقّ ثم يرقّ حتى يضعف ويبكي ويئن ويتوجع من آلام الهوى وتباريح الصبابة ما كان ذلك الشاعر صادقاً لا يتباكى محبّاً لا يتصنع

الان الشاعر — كما سلف — رجل من الناس ربما كان له من اسباب الهوى ما يدنفه ويبكيه، وهذه الاسباب تكون له جوًّا يحيط به خاصةً فهو يتأثر به على كل حال. الاَّ ان هذا الشاعر نفسه رجل من أمة يكون لها من اسباب القوة والسيطرة والعزة ما يكون لها او رجل من امة بها من الضعف والقشور والذلّ والاستعباد والمهانة ما تضرب به الضربات الشداد بمعاول الظلم والجبرية والعدوان والشر الاستعماري القبيح الدنيء. فلا بدَّ للشاعر من هذه الامة ان يكون لسان الامة الذي يتكلم بأوجاعها وآلامها وان يكون من جهة اخرى قائداً من القوّاد يقف في قلب الجموع المسكينة خطيباً تنقد كلماته الى القلوب لتحركها وتنعشها وترمي فيها بالحياة والشباب والنشاط وبذل النفس وغلبة الرأي على الشهوات والاهواء. وان لا يكلّ ساعةً عن الجهاد والدعوة الى الطريق السويّ. فاذا خلا الشاعر قليلاً قليلاً الى نفسه وغلبته الحياة الفردية والاهواء الخاصة فليقل ما شاء بمقدار لا يُلين منهُ ولا يضعف من قوى جنده، وليستجمّ لنفسه بما يجعله أقدر على الجهاد حين يعود الى الميدان بين المتألمين والمحطَّمين والباكين مما يصيبهم من وحوش الاستعمار والعدوان التي توسعهم نهشاً وتمزيقاً وافتراساً

هذه سبيل الشعر لأمتنا العربية في أمرنا هذا من أيامنا هذه. أما ان يأخذ احدنا شعر الشاعر العربي فلا يجد فيه الاَّ الضعف والتخنث والبكاء والذلة والضراعة والحبَّ المريض. فذلك امر لا تقبله النفوس العزيزة التي تستشعر العزة والنخوة والمروءة، واما الفتنة التي فتن بها الناس من قولهم الشعر العالميّ والشعر الانساني والشعر ... اللهم اني اعوذ بك من سوء المنقلب .... فهذا كلام لا معنى لهُ في حياة الامم الضعيفة المظلومة التي لا قائد لها ولا امام.. أيغنّي العصفور الضعيف للثعبان القاتل ليسحره بألحانه وتغريده. ألا ان لحم العصفور أشهى الى الثعبان من لحنه ... وما في ذلك الاَّ سوء التقدير وأفن الرأي وقلة الحيلة

ان الارض العربية تطالب شعراءها وأدباءها وكتّابها وأصحاب الرأي فيها ان يتخذوا ألفاظهم في شعرهم وأدبهم وكتابتهم وآرائهم من النار والحديد والبراكين والدريّ والرُّعود المجلجلة فعسى ان يهبَّ هؤلاء النوّام من سباتهم وان يرجعوا عن غفلتهم ويعلموا ان الامر جدٌّ وان الحياة صراعٌ وان عدة هذا الصراع هو الايمان والصبر وبذل النفس وكبح الشهوات واطراح الجبن والخور فاذا خرجنا من الميدان بالنصر والظفر فلنطلب نفع الانسانية في كل بقعة من بقاع الارض ولنمحُ آثار المظالم والعدوان والفجور والبغي ولنغن ما وسعتنا الالحان وما وانتنا الأغاريد

وسنعود قريباً الى التوسع في هذا القول حين نبتدئ — بعون الله — كلامنا عن الشعر الوطني في هذه المجلة يوم نجد من شعرائنا اقبالاً على ارسال شعرهم الوطني كما أمَّلنا ذلك في النشرة التي كتبناها في اول مقتطف نوفمبر الماضي والله المستعان

٢ — تاريخ مصر الاسلامية

تأليف الياس الايوبي — مطبعة الرغائب بالقاهرة سنة ١٣٥٢

ظهر هذا الكتاب ، وكثر الحديث عنهُ فثارت الهمة لقراءته والنظر فيه وبخاصة لانهُ تاريخ أغمض العصور التي مرّت بمصر وذلك لضياع اكثر الكتب المؤلفة في هذا التاريخ الواقع ما بين سنة ٢٠ من الهجرة الى سنة ٢٥٤ منها . والخالف ما درجتُ عليه في الكتابة وأقول إني اخذت هذا الكتاب فقرأتهُ أحسبهُ شيئاً فاذا هو ليس بشيء ، وافول هذه الكلمة وانا احمل اوزارها واثقالها وما يشاء القارىء من اوزار واثقال . فانا — يا سيدي القارىء — لم أقرأ هذا الكتاب الاّ وقد عقدت النية على انهُ تاريخ مصر من ايام الفتح العربيّ إلى اول عهد الدولة الطولونية لا على انهُ اوهام في تاريخ مصر من الفتح العربي الى عهد الدولة الطولونية

وقبل ان نبدأ ينبغي لنا ان نعرف ما هو التاريخ وكيف يكتب؟

يعتمد مؤرخ كل امة من الامم على دعامتين : فإحدى الدعامتين هي دعامة الرواية والاخرى دعامة العقل . والرواية هي مادة التاريخ الذي لا يمكن ان يسمى تاريخاً الاّ باجتماعها وعضدها. والعقل هو المصنع الذي تنق فيهِ هذه المادة وتجلى ويؤلّف بين المتقارب ويفرّق بين المتباين من اجزائها وعناصرها. فاذا اعتمد المؤرخ على الرواية دون العقل كان ما يكتبهُ تاريخاً الاّ انهُ تاريخ اعرج فاذا اعتمد على العقل دون الرواية لم يكن ما يكتبهُ تاريخاً فان اعتمد على العقل وقليل من الرواية كان ما يكتبهُ نوعاً من الكلام لا يسمى تاريخاً بل يسمى اوهاماً في التاريخ ولا يخرج التاريخ الصحيح الاّ من معامل العقل القويّ المشرق الذي اجتمعت له المادة التاريخية المحشودة المنسحة . ولا اظن ان مؤرخاً مهما بلغ من قوة العقل واشراقه يستطيع ان يولّد لك من بعض الروايات المنسوبة الى التاريخ تاريخ امة قد ملأت الارض علماً وحضارة وادباً. هذا .... فاذا اعتمد المؤرخ على الهوى دون العقل مع قلة الرواية وضعفها وتهالكها فكيف يكون تاريخه ؟ اذا أردت ان تعرف ذلك فاقرأ هذا الكتاب المسمى « تاريخ مصر الاسلامية» وتأويل ذلك

تقول مقدمة الكتاب « وكنت كلما اتصور تمكّني (كذا) من انجاز فكرتي وتخيل عملي امامي تامًّا: فاراني اصبحت اول مؤرخ مصري جدير بهذا الاسم (كذا) وأراني قد انشأت، حقيقة ، في احضان قومي روحاً مصرية بحتة — لا عربية ولا تركية ، لا مسيحية ولا يهودية ولا اسلامية — روحاً مصرية متشبعة بالمبادىء القومية العصرية ، ومثقفة بالثقافة العصرية الحقة التي تستمد منها الحضارة العصرية قوتها وجمالها . . . . . الخ » وذكر كلاماً رمى فيهِ مؤرخي العرب جميعاً بالجهل والتدليس وغلبة الهوى حين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليهِ وسلم فقال « ... جعلوا فيما كتبوه من سير النبيّ الغلبة للخرافة على الحقيقة ، مقلدين في

ذلك المتقدمين من مؤلفي المصريين والكلدانيين واليونان والرومان (تأمل) الذين رووا حوادث تأسيس الدولة المصرية والكلدانية واليونانية والرومانية . . . . . الخ » واستعتب القارىء في نقل هذه الجملة ايضاً : « واني اذا كنت — على عكس ذلك — رأيت نفسي مضطرًّا احياناً الى حرق ما قد قدستُهُ زمناً طويلاً فيما مضى ، فذلك لاني انما رميت بكتابي الى احياء الشعور القومي المصري البحت في نفوس قرائي ، كما قدمت . . . لا لاني ارغب في جرح شعور احد او احساس احد او فكر احد » ولعله قد سقط من الاصل « بل اريد ان اجرح شعور التاريخ واحساس التاريخ وفكر التاريخ » .

لا يدري القارىء ماذا اقاسي من الالم المبرح في نقد هذا الكتاب وما ذلك الاّ لاني اذا كتبت عنهُ فانما اكتب عن مؤلفه وقد اصبح من مادة التاريخ فآنف ان اهزل من لا يدافع عن نفسه ، ولأن الكتاب في اكثره افسادٌ للتاريخ وتدليس عليه ولأن مواضع النقد فيه كثيرة لا ادري ماذا آخذ منها او أدع في هذه الورقات . ولكني أستعين الله على ما ألاقي من الالم في الكتابة عن هذا المؤلَّف

لم يعتمد كاتبنا في تاريخه الاّ على كتب قلائل ليست شيئاً في المكتبة العربية الزاخرة بكتب التاريخ ، وهي كتاب المقريزي وابن اياس وابن وصيف شاه وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان والكندي وابن الشحنة في روضة المناظر وقليل غير ذلك من كتب الادب . هذا فلو اظرت الى كتاب (فتح العرب لمصر) الذي الّفه الانجليزي الدكتور (بتلر) الانكليزي لوجدته يعتمد في تاريخ حقبة من الزمن لا تبلغ خمس سنوات على عشرين ومائة كتاب في التاريخ ثلثها من كتب التاريخ العربي والبقية من كتب الامم في التاريخ . فلو ان (بتلر) اراد ان يكتب تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٢٠ لسنة ٢٥٤ لاعتمد على اضعاف هذا من كتب التاريخ . وذلك لان التاريخ لا يكون شيئاً الاّ اذا حشدت له المادة العظيمة ونظرت فيها بالنظر الثاقب ورب كلة شاردة في ذيل ورقة تفتح للمؤرخ باباً من الفهم يجعل الغامض واضحاً بيّناً والمتباعد قريباً دانياً وتصل بين حافتي هوّة في التاريخ فتمكن المؤرخ من اجتيازها

هذا امر المادة التاريخية نفسها ، فلننظر ماذا فعل المؤرخ بالمادة التاريخية القليلة التي اجتمعت له حين الف كتابه . عمدَ المؤلف الى هذه المادة القليلة التي لا يستقيم بها تاريخ فقرأها وأراد ان يتفهمها فأخطأ في كثير وأصاب في قليل وقرَّ ذلك في نفسه ، ثم اول بعض هذه المادة تأويلاً لا يقبله عقل ولا تاريخ حتى يستطيع — كما يقول — « ان ينشىء حقيقة في احضان قومه روحاً مصرية بحتة — لا عربية ولا تركية ، لا يهودية ولا مسيحية ولا اسلامية — » فلذلك سخِرَ بالعرب وساق الرواية العربية القوية في اسلوب من السخر بالعرب والازراء عليهم والغض منهم ومن اخذاذ رجال الفتح . وأنت اذا قرأت الفصل الذي

سماه «كيف فتح العرب مصر» لم تجد فيه حقيقة غير هذه. فهو حين يذكر «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه حين بعثه عمرو على رأس النفر العشرة الى المقوقس فتقدم عبادة وكان عبادة اسود ضخماً من الرجال فهابه المقوقس لسواده «وقال: تحشوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني، فقالوا جميعاً: انهُ افضلنا رأياً وعلماً وخيرنا والمقدَّم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه» فيقول المؤلف تعقيباً على هذا

«ولسنا ندري من اين اتى عبادة بن الصامت العلم ! ! » . . . ونحن والله لا ندري ايضاً، ولا نعلم الاَّ ممن شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له من الرأي ما أجلَّه به قومه، بل وانه رجلٌ من انقاذ الامة التي اشرقت بنورها على الارض فأخرجت الناس من الظلمات الى النور. ولسنا ندري لماذا ينكر صاحبنا العلم على عبادة، وهم لم يقولوا انه اعلم العالمين بل قالوا هو افضلنا رأياً وعلماً وهم ادرى بأنفسهم منا بها وقد كانوا رحمهم الله يقدِّرون انفسهم قدرها فيقدِّم الرجل الشريف العبدَ الحبشي العالمَ على نفسه واهله، وما كان فيهم من يتصدر ليقول عن نفسه انهُ اكبر عالم او اتقى رجل او افضل مخلوق او اوّل مؤرخ لمصر جدير بهذا الاسم. وقد اطلت ليعلم القارىء كيف يطمس الهوى على قلوب الناس اذا حرفوا العلم او التاريخ بأعنته، والهوى كما قال ابن عباس رضي الله عنه — إله معبود . . . والكتاب كله على هذا النمط من الازراء على العرب والعبث بالاسلام، وما يريد المؤلف من كل هذا الاَّ انشاء روح مصرية لا عربية ولا اسلامية كما يزعم لا تقرير الحقيقة التي يجب على كل انسان ان يطلبها أنّى كانت، والمؤلف نفسه في حيرة من العرب والاسلام وتضلعل كلٌّ منهما في مصر فتراه احياناً يدور حول نفسه يريغ المخرج ولا مخرج حتى انهُ لم يستطع ان يمحو ذكر الاسلام — والعرب — فيما سمّى به كتابه فألقى عليه هذا العنوان الذي يتبرأ مما تحته . . . «تاريخ مصر الاسلامية»

ولنفتح في الكتاب اي صفحة يكون من نصيبها التمزيق، بسم الله فهذه ص ١٨٠ يقول المؤلف في رأسها ان ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «انما ضلَّ من كان قبلكم بالكتابة» وأطال الكلام بعد ذلك على هذا الحديث الذي لا شك في وضعه حتى قال «وأهملوا — يعني العرب — تدوين كل ما جادت به قرائحهم في بابي الشعر والخطابة ذاتها لتفضيلهم الحفظ على التدوين، بل اهملوا تدوين العلم الانساني البحت عينه — على قلته — (كذا وتأمل) وقصروا قرنهم الاول وبعض الثاني (كذا قال المؤلف) وهم يتناقلونه بالتلقين، ولم يدوّنوا القرآن نفسه بعد ان احجم ابو بكر مدة عن ذلك قائلاً «كيف أفعل امراً لم يفعله رسول الله، ولم يعهد الينا فيه عهداً» . . . الاَّ لما خافوا ان تذهب الحروب والفتوحات بحفّاظه فيضيع» انتهى

ولا ندري هل يعلم المؤلف أن من الصحابة ناساً يسمون «كتّاب الوحي» كانوا يكتبون

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوحى من القرآن وان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فادى أسرى يوم بدر فكان شرط من لامال عنده ان يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة قالوا فيومئذ تعلّم الكتابة زيد بن ثابت كاتب الوحي وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر عبدالله بن سعيد بن العاص ان يعلّم الناس الكتابة بالمدينة وانهُ قد ورد في الاستيعاب لابن عبد البر والاصابة لابن حجر ان الشفّاء ام سليمان بن أبي حثمة — علمت حفصة (وهي زوجه) الكتابة وقال لها « علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » . وان القرآن كان مكتوباً جميعهُ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كتبه له كتّاب الوحي وكتبه لنفسه من كان يحسن يكتب من الصحابة وهم كثير ، وان قول أبي بكر « أفعل امراً لم يفعله رسول الله » انما هو عن جمعه بين دفتين أعني في كتاب او مجلة كما يقولون وليس ذلك لان ابا بكر كان يعاني الكتابة والتدوين . وتأويل ذلك ان أبا بكر لما عانت نفسه ما قال به من جمع القرآن دعا زيد بن ثابت وقال له (نرويه من حديث زيد بن ثابت) « ان هذا — يعني عمر — قد دعاني الى امر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحي فان تكن معهُ اتبعتكما وان توافقني لا افعل فافتعنّ ابو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرتُ من ذلك وقلت يفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فذهبنا ننظر فقلنا لا شيء والله ما علينا في ذلك شيء قال زيد فأمر ابو بكر فكتبته من قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُسُب » وهل يعلم المؤلف ان هناك مصاحف تنسب الى اصحابها من الصحابة كابن مسعود ومصحف ابيّ ومصحف زيد كانت مكتوبة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعرضها اصحابها العرضة الاخيرة عليه قبل ان يلحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم

هذه صفحة لم نعهد اليها من الكتاب وها أنت تراها كيف مزّقت شرّ ممزّق وفرّيت قطعها في الهواء . وهذه المجلة لا تتسع في هذا الباب لأكثر من هذا ولكن ليكن القارىء على يقين من ان كلّ ورقة من هذا الكتاب هي هذه الورقة الممزّقة . ولله الامر من قبل ومن بعد

٣ — آلاء الرحمن في تفسير القرآن

تأليف محمد جواد البلاغي النجفي — الجزء الاول — مطبعة المرقاق بصيدا — سنة ١٣٥٢

كان القرآن الكريم ولا يزال مادة البلاغة العربية بل مادة العقل العربي بل مادة الحياة الانسانية العالية بآدابها وعلمها وفقهها واحكامها ودولتها . نزل به الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم لجمع الامة بعد شقائها وافتراقها على كلمة واحدة في قلب رجل واحد أينما سارت سجدت لها العروش ودانت لها الملوك وخضعت لها الرقاب واستقبلتها القلوب وانقادت لها النفوس وعلا بها الحقّ واضاء بها الوجود حتى اذا تمت لها المعجزة في اخضاع العالم للحق

واخراجه من ظلمات الباطل الى نهار الحق بدأت طبيعة الحياة تفعل فعلها وتفتن فتنتها فدبّت الشبهات أعناقها ، وظهر الخلاف بين الناس الاّ ان الشبهات كانت لاول عهدها خفية قليلة وكان الخلاف ضعيفاً متقارباً ثم بدأ الجدل واللجاج والعناد الانساني البغيض حتى استحكمت الشبهة وكثر الخلاف واتسع ما بين أصحاب الرأيين وتعصب هذا وتنطع ذاك فخرجت الفرق للتعادية والنحل المتخاصمة وبقي كل فريق يطلب النصر لرأيه لا للحق وبذلك اضطرب الحبل وفسدت الامور واستحلّ القتال وضعفت الدولة . وهذه صورة يتكرر ظهورها في التاريخ . ومن يتتبع أحوال الفرق وأسباب نشأتها واطوار نموّها وضعفها يعلم ان الخلاف او الشبهة التي يبنى عليها المذهب ليست الاّ كبوة عقلٍ واحدٍ في رجل من أصحاب الرأي انساق في آثارها وجرّ وراءه أمة من الناس تعصبوا له ، فانكبّوا معهُ . ولا بأس ان ننقل هنا كلمة للجاحظ عن ابراهيم النظام رأس الفرقة المشهورة من المعتزلة بالنظامية قال في كتابه الحيوان ج ٢ ص ٨٣ «وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والريغ في باب الصدق والكذب . . . . . واغا كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس النفس لصحيح الاصل الذي قاس عليه ، كان امره على الخلاص ، ولكنه كان يظنّ الظنّ ثم يقيس عليه ، وينسى ان بدء أمره كان ظنّاً ، فاذا اتقن ذلك وايقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت » اه . وهذه صفة رؤوس الفرق جميعاً في كل ملةٍ وفي كل علم

قدمنا هذه الكلمة بين يدي هذا الكتاب ، لان مؤلفه من علماء الامامية ، وهم فرقة من اهل الاسلام افترقت فيما بعد الى فرق كثيرة واصل عقيدتها امامة عليّ رضي الله عنهُ وبناؤها في عقبه ، والكلام على الامامية وتفصيل مذهبها ذيول طويلة ليس هذا موضع ذكرها والذي يهمنا ان هذه الفرقة كان لها في الاسلام شأن عظيم والّف في الردّ على مذاهب اهلها من الكتب شيء كثير . وقد قرأنا عنها مذاهب عجيبة لا يقرها عقل . ولم يصل الى ايدينا من كتبهم الاّ ما قرأناه من النصوص المنقولة عن كتبهم في الردّ عليهم فسرّني كثيراً ان ارى بين يديّ تفسيراً لعالم من علماء هذه الفرقة ، وان اجد هذا التفسير قد قرّب مسافة الخلف بين ما قرأتهُ عن الامامية وبين عقيدتي وعقيدة اكثر المسلمين . وهنا لا نجد بدّاً من الاشارة الى ان اهل الفرق والمذاهب لا يزالون في غفلةٍ عن الحياة . فهم يتقسمون امرهم بينهم والعدوّ من ورائهم وامامهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم يعد العدّة ويترقب للفريسة الغافلة ولا مخرج للعرب بعد اليوم الاّ ان يرجعوا الى حكم الله اذ يقول « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . . . . . واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا انّ الله مع الصابرين » . ولا بدّ ايضاً من ان

يرجعوا الى كتابهم وسنة رسولهم مخلصين لايؤولون ولا يحرفون الكلم من بعد مواضعه وان يتركوا وراءهم ظهريًّا اقوال الدرّوس الفرق وأئمتها فانهم أصل البلاء ومادة الشر ، ولا حياة لامة على الامر الذي لا يجري الخلاف فيه الا الفرقة والخصومة والشنآن والعداوة المتوارثة ونسأل الله ان يجعل آخر امر المسلمين والناس جميعاً كاوله ألفةً وارتباطاً وصفاءً وعملاً خالصاً لله لا للشهوات والاهواء

محمود محمد شاكر

ابن خلدون

سيرته وتراثه الفكري

نشرنا في مقالات هذا الجزء الجانب الاكبر من فصل ممتع في « ابن خلدون والنقد الحديث » من كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنان . وقد شاق هذا الجزء من بحث جدير بما عاناه المؤلف من مشاق البحث في تأليف هذا السفر النفيس

كتب جديدة في التربية

النظم التعليم

وضع الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية واستاذ التربية بها
الجزء الاول — ١٦٠ صفحة بالقطع الكبير — مطبعة بيت المقدس

دراسة نظم التعليم في البلاد الناهضة كاوربا واميركا ليس الغرض منها اثبات نجاحها ، فنظم التعليم كالحياة نفسها سائرة متغيرة ، واذا نجح نظام تعليمي في بلد فليس معناه امكان نجاحه في بلد آخر وهذا ما يؤكده المؤلف في مقدمة كتابه ، فتراه يحذر المدرس العربي بقوله « فاحذر وانت تنقل هذه (الغرسات) الى بلادك واذكر ان ماء الاردن غير ماء النيل ومناخ برلين غير مناخ فلسطين »

ومباحث الكتاب يمكن تقسيمها الى قسمين (اولاً) نظم التعليم في المانيا وفرنسا وتركيا (ثانياً) نظم التعليم الثانوي في اوربا واميركا . ونحن لا ندري الحكمة في هذا التقسيم ، إذ كان اقرب الى تنظيم العمل ان يخصص الاستاذ الخالدي هذا الجزء من كتابه لدراسة نظم التعليم المختلفة فبدلاً من مقارنة نظم التعليم الثانوي كان عليه ان يتم دراسة نظم التعليم في انكلترا وسويسرا والدانمارك واميركا ويعرج على الشرق ويدرس مصر وغيرها . وعندئذ تتيسر المقابلة بين هذه النظم

وعند دراسة نظام التعليم الالماني اهمل الاستاذ دراسة نظام رياض الاطفال Kindergarten وبيوت صغار الاطفال وهي ما تتميز به التربية الالمانية وقد يستطاع اقتباسه مباشرة في الشرق بلا قيد ولا شرط ، كما كان يجدر بالمؤلف ان يربط دراسة التعليم بألمانيا ويبسط لنا طرفاً عن

نظم تعليم ذوي العاهات والشواذ ، والتعليم العسكري الالماني في هذه المدارس ولو ان الاستاذ وضح كتابه بشيء من الصور التي تمثل الحياة الاجتماعية لكان اكثر تأكيداً لكلامه. كما اننا نأخذ على الاستاذ المؤلف تعريب كثير من المصطلحات اللاتينية كما هي كاستخدام لفظ (اكاديمي البيداغوجيا) بدلاً من «معهد التربية» مع سهولة هذه وتأديتها للغرض

ومع ذلك فالكتاب قد ملأ فراغاً في التأليف العربي ، وجدير بكل مشتغل بشؤون التعليم ان يدرسه بامعان لا ان يقتنيه فقط

محاضرات ومقالات في التربية والتعليم

كتابان مستقلان — ٧٤ ، ١٠٤ صفحة بالقطع المتوسط — مطبعة الكشاف ببيروت

يشتمل الكتاب الاول (محاضرات في التربية والتعليم) على ثلاثة بحوث ، في تدريس اللغة ، وقواعد اللغة ، وتنظيم المدرسة ذات المعلم الواحد . كما يشتمل الكتاب الثاني (مقالات في التربية والتعليم) على بحوث خاصة بتدريس اللغة العربية واخرى مترجمة او مقتبسة

وعناية الاستاذ بارودي احد مفتشي المعارف في لبنان بطرق تدريس اللغة العربية امر مشكور ، لان النقل والاقتباس عن الغرب يقصر عند هذا الحد ، فان كنا نأخذ عن الغرب الطرق العامة في التدريس ، فان طرق تدريس المواد ولا سيما اللغة لابدَّ وان نعتمد في اختيارها او ابتكارها على انفسنا ، فكل لغة لها مميزاتها وخصائصها . واللغة العربية لا يمكن بحال من الاحوال ان نقارنها باية لغة اوربية . فلو ان الاستاذ قد خصص كتابيه او احدهما على الاقل لدراسة طرق تدريس اللغة العربية بكل فروعها لكان ذلك اكثر فائدة ، ولو انهُ قد اكثر من الأمثلة التي يشاهدها في تفتيشه على المدارس اللبنانية (كالمصاعب التي يلاقيها المعلمون او التلاميذ في دروس اللغة) لكانت بحوثه اقرب نفعاً . والصعوبات التي تعترض تدريس اللغة العربية كثيرة اورد بعضها المؤلف ومثال ذلك «تدريس الهجاء ، تشكيل الحروف ، قواعد اللغة ، التجديد في تدريس الانشاء ، الخط» مما يعرفه المشتغلون بتدريس اللغة العربية

وحبذا لو نهج المشتغلون بالتعليم من مفتشين ونظار ومعلمين نهج الاستاذ واصف بارودي في تدوين ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة بشؤون التعليم ، فانها تكون بذلك المرجع الذي يعتمد عليه المعلمون الناشئون والباحثون في مشاكل التعليم في البلاد العربية احمد عطية الله

ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب

بقلم الاديب عبد الرحمن الجيالي ويحتوي على نسب صاحب الذكرى ونشأته وعلمه واخلاقه وآثاره ومنشآته — ويطلب من المكتبة الادبية بالجزائر وثمنهُ ١٠ فرنكات

الفلاح الاقتصادي

مجلة زراعية اقتصادية — لمنشئها ثابت ثابت — مطبعة المقطم وتوزع مجاناً

لثابت افندي ثابت ، منشيء هذه المجلة ورئيس تحريرها ، عناية خاصة بالموضوعات الاقتصادية والزراعية تشهد بذلك مقالاته المفيدة في المقطم التي يودعها كل سنة زبدة مشاهداته في بلدان اوربا واحوالها الاقتصادية والعمرانية . وله علاوة على ذلك اهتمام عملي خاص بشؤون مصر الزراعية ، وهو الذي ما برح يخالط الفلاح المصري من عشرين سنة او تزيد ، فدرس احواله ونفذ الى رغائبه وآماله . فرأى ان ينشيء هذه المجلة لتكون مرشداً ومؤازراً للفلاح في هذا البلد الذي نعيش بخيره ونشاركه في سرّائه وضرّائه . والمساهمة في ارشاد خاصته وعامته الى الطرق الحديثة التي تؤول الى تحسين تربته وانماء زراعته وصناعته وزيادة انتاجه بالوسائل التي عمدت اليها شعوب وبلدان اخرى فأصابت بها اوفر قسط من زكاء الربح من الراحة والرخاء . والعجب في امر هذه المجلة ، ان منشئها قد عمد الى توزيعها من دون ثمن زيادة في نشر الفوائد التي تجنى من مباحثها — وكل بحث ينطوي على فائدة خاصة

وقد جعلت ابوابها خاصة بالزراعة والصناعة والمال والتجارة ، وفي كل باب منها مباحث غزيرة المادة بليغة الاسلوب جمة الفائدة . ونخالنا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان رجال الزراعة والاعمال في القطر يحسنون صنعاً باجتناء فوائدها مطالعة وحفظ اعدادها لتكون لهم مرجعاً ومعاداً

وقد حلى العدد الاول منها بقصيدة للشاعر الكبير خليل مطران نظمها لما « اقتضت حكمة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك أيده الله ان يشتري لحضرة صاحب السمو الامير فاروق ولي عهده تهنيش المطاعنة بالصيد من شركة السكر فأصبح سموه بذلك بعد جلالة والده في طليعة زرّاع القطر » قال الشاعر منها

ليست مشارفة الامير لضيعةٍ ضَيْعةً وما الجهد المغِلُّ بضائع
ان الفلاحة والفلاح تسلسلا لفظاً ومعنىً من نجارٍ جامع

وقال في وصف جلالة الملك

لحظ الرمال القاحلات فنضّرت وازينت بمغارسٍ ومزارع
لحظ المدائن والقرى فتجمّلت وتكللت بمدارسٍ ومصانع
لحظ الثقافة للعقول فأخرجت ما طاب من ثمر العقول اليانع
لحظ الرياضة للجسوم فهيّأت نشأً جديد عزائمٍ وشوارع
لحظ العلوم فما يرى من روضةٍ الاّ فضاء الطير حول مشارع
لحظ الفنون فعاد مؤتنقاً بها ما كان من فضل قديم بارع

باب الاخبار العلمية

العيون الكهربائية ايضاً

بها العمي يقرأون الكتب مباشرةً

يسوغ لنا لغويًّا ان نطلق على العين الكهربائية لفظ (البصاصة) لانهُ مرادف للعين في معاجم اللغة . ولاسيما ان العامة في القاهرة وغيرها من مدن القطر تسمي البوليس السري « البصّاص » فنقول ان للبصاصة الكهربائية شأناً عظيماً في ميادين الاعمال ومرافق الحياة عموماً في اوربا واميركا ومن ادلة ذلك ما بيّناه في المثال الضافي المنشور في مقتطف نوفمبر الماضي . ثم ما حدث عند افتتاح معرض شيكاغو الحالي اذ سخرت البصاصة الكهربائية لالتقاط نور نجم السماك الرامح وتقويته بالكهرباء حتى استطاعوا ان يفتحوا به ابواب ذلك المعرض العالمي الذي لم يسبق له نظير ، بما حواه من مستنبطات علمية . وما دمنا في معرض منافع البصاصة الكهربائية فلا مندوحة لنا عن اعادة ما نشرناه في جزء مارس سنة ١٩٣٢ من المقتطف في باب الاخبار العلمية : —

السماك الرامح نجم اصفر من القدر الاول في كوكبة العواء وهي من الصور الشمالية . وقد رأى علماء الكهربائية في الولايات المتحدة تسخير شعاع من نوره لفتح المعرض الاميركي العالمي بمدينة شيكاغو ، والمعروف عند علماء الفلك ان السماك الرامح يبعد عنا مسافة تقدر باحدى واربعين سنة نورية .

وقد جرب مرقب مرصد يركيز الكاسر الذي قطر عدسته اربعون بوصة لرصد ذلك الكوكب فجعلوا في قاعدة المرقب بطارية كهرفورية (بصاصة) حتى اذا مرَّ طيف الكوكب امام عدسة المرقب التهبي البطارية آنفة الذكر التقطت نوره حالاً فيولد فيها تياراً كهربائيًّا يتقوّى ثم ينقل بالاسلاك الارضية الى مدينة شيكاغو حيث يستخدم لفتح باب المعرض واضاءة المصابيح الكهربائية التي فيه

وحديثنا اليوم يدور حول (الفيزاغراف) وهي معجزة جديدة للبصاصة الكهربائية يستفيد بها العميان واليك وصفها

لقد اتيح للعميان لاول مرة في تاريخ الانسان ، قراءة اي كتاب مطبوع ، وذلك بالعيون الكهربائية المثبتة في آلة اخترعت حديثاً تسمى « فيزاغراف » تعوض الاكمه ما حرمتهُ الطبيعة اياه من حاسة الابصار ، فتجعل من الحروف العادية المطبوعة في اي

كتاب حروفاً بارزة ضخمة تسهل قراءتها لمساً بالبنان في هنيهة من الزمان

ومخترع الفيزاغراف هو المستر روبرت تومبرج من ولاية مساشوستس من اعمال الولايات المتحدة الاميركية وقد عرضها حديثاً في مدينة نيويورك . وهي على ثلاثة منضدة من مناضد الكتابة التي توضع في مكاتب الاشغال ودوائر الاعمال. فاذا أدخلت في الآلة كتاباً مطبوعاً وأدرتها فتحت عينها الكهربائية المستكنة في حامل اسطواني من النحاس الاصفر فاخذت تجول في الصفحة المعروضة من الكتاب المراد قراءته من اليسار الى اليمين حتى تتم تصفحها . وكل ما تراه تلك العين الكهربائية ينسخ في الحال حروفاً بارزة، وذلك على شريط رقيق ملفوف من الاليومنيوم مركب على يمين الآلة

وقد جرب المخترع الفيزاغراف امام الجمهور فجاء بسيدة شابة ضريرة كان قد درّبها ٣٠ يوماً فقط على استخدام الفيزاغراف والقراءة بها فجعلت تقرأ من فورها امام الحضور الكلمات التي تلمسها بنانها مؤلفة من الحروف البارزة التي تصدر من الفيزاغراف واحداً فواحداً فأعجب بها النظّارة ايما اعجاب

ولذا ما فرغ الضرير من قراءة الحروف البارزة مطبوعة على شريط الاليومنيوم، لمساً ببنانه امكنهُ الاحتفاظ بالشريط عينه حتى تمسّ الحاجة الى قراءته مرة اخرى والا استغنى عنهُ فيطمس معالمه ، وذلك بحصره بين اسطوانتين ، يشبهان عشّارة الملابس المنشورة حيث يضغط ليمسى حتى يعود الى اصله فيتسنى استعماله مرة اخرى عند الحاجة

والفيزاغراف مؤلفة من جزئين وهما الناقل والطابع . فالناقل يقرأ الكتابة المطبوعة في الكتاب ثم ينقلها الى الطابع نبضات كهربائية فيقوم الاخير بتدوينها نقطاً وشرطاً على شريط الاليومنيوم

ويتم ذلك الحدث باستخدام ست شعاعات صغيرة مرتبة ترتيباً عمودياً ، على طول الخط المطبوع من ناحية النقل . وكل شعاعة تعتبر أداة حسّاسة كثّافة خاصة بقضيب واحد من القضبان الستة المؤلف منها الطابع ، والقضيب الاسفل منها يتولى تصفح اذناب الحروف الافرنكية مثل P. و g. فاذا اصابت شعاعة كثّافة الجزء الاسود من الحرف حركت القضيب الطابع الخاص به فيقوم بطبع النقط والشرط على شريط الاليومنيوم

***

وقد يستطيع الضرير تنظيم وضع الكتاب المزمع قراءته . وكذلك يمكنه نقل الحامل المحتوي على العساسة الكهربائية من سطر الى آخر — وقد استغرق المخترع في اختراع الفيزاغراف اربع سنين لم يألُ فيها جهداً حتى حسّنها الى الدرجة التي هي عليها الآن وسيجعلها تقرأ المجلات والرسائل التي تكتب بالتيبريتر (الآلة الكاتبة) في القريب العاجل . لانه ذلل العقبة الكأداء التي اعترضته في بدء الامر وهي الوسط الصالح لتدوين الحروف حتى عثر على ضالته في شريط الاليومنيوم

وقد عرض الاستاذ «جون بلاّمي تايلور» المهندس المستشار لدى شركة الكهرباء العامة بأميركا امام اعضاء المجمع العلمي الاميركي الجهاز الذي اخترعه لجعل الصوت منظوراً والضوء مسموعاً. فنصب لهذا الغرض هدفاً زجاجيًّا صغيراً بمثابة مرآة ذات شكل قطع مكافىء وذلك في غرفة الرقص المظلمة في فندق استور بمدينة نيويورك. فثبت ان الضوء المتولد من الجهاز المشار اليه متى مسّ تلك المرآة تولدت منهُ موسيقى. وانهُ اذا اعترض اي شعاع الشعاعة المنعكسة عن المرآة، انقطعت الموسيقى. وانهُ اذا بسط امرؤ اصابعه تجاه النور تخلل النور الاصابع فتعزف الموسيقى، واذا اطبق اصابعهُ اطباقاً طفيفاً تضاءلت الانغام الموسيقية

***

ويستفاد من هذه التجربة ان الجهاز السابق الذكر يحوّل الصوت الصادر من اسطوانة الفونوغراف نبضات كهربائية فتتحوّل هذه نفسها امواجاً نورية

وبيان ذلك ان في الجهاز المستقبل بصاصة كهربائية تلتقط الضوء فتحوله قوة كهربائية محركة ثم تتحول هذه القوة صوتاً ينتقل من المرآة العاكسة للشعاعة الى الجهاز المستقبل وذلك على امواج الضوء

ويسمي الأستاذ تايلور طريقته العلمية هذه narrowcasting اي الاذاعة المحصورة تمييزاً لها عن الاذاعة الواسعة النطاق المسماة broadcasting

وقد استنبط الدكتور هانس تيرنج الاستاذ في احدى جامعات فينا والمخترع جهازاً كثير الشبه بالجهاز آنف الذكر لنقل الصوت بالضوء

بيد ان طريقة العلامة بلاّمي مازالت وليدة في مهد المختبرات العلمية ولما تعلم فوائدها. ومع ذلك يزعم الخبيرون بأنها ستستخدم في نقل الرسائل السرية الى الجهات القريبة في ميادين القتال وذلك بين مراكز طلائع الجيوش وفرقها في الميدان

***

ولما كانت اجهزة الراديو الحساسة جدًّا لا تبين امواج الضوء السريعة التناوب، فاذا استعملت الأشعة التي وراء الاحمر او غيرها من الاشعة التي لا تستطيع العيون البشرية رؤيتها؛ تمكنت الشعاعة (ذات النور الخفي) من نقل الرسائل دون ان تراها عيون رقباء الاعداء ولا تسمعها آذانهم

واما سبب كون الامواج اللاسلكية تدور حول الكرة الارضية ولا تتبع في سيرها خطًّا مستقيماً فهو بحسب رأي الخبراء وجود طبقة خفية تسمى في عرفهم (السطح اللاسلكي) تحول دون اتخاذ الامواج اللاسلكية مجرى مستقيماً. واما كون اشعة النور تخترق هاتيك الطبقة فيتجلى لنا من حقيقة ان القمر ينعكس نوره على الارض. ويؤخذ مما تقدّم انه اذا تحققت في اي وقت احلام العلماء الذين يعتقدون بامكان التراسل مع سكان الكواكب. كان رسولهم اليها حينئذ امواج النور

عرض جندي

اشعة اكس مكان الراديوم

الراديوم اغلى العناصر المعروفة بل اصح ان يقال ان اغلى الجواهر ارخص منه بكثير اذا اعتبر الوزن . وقد اكتشف في اواخر القرن الماضي وما زال منذ عهد اكتشافه على ازدياد في استعماله لمعالجة بعض الامراض والسرطان في مقدمتها وذلك لان اشعته اقوى كثيراً من اشعة اكس وانجع في بعض الامراض المذكورة

وقد عرف العلماء منذ زمان طويل انهُ اذا امكن الحصول على اشعة من اشعة اكس تكون «قاسية» وقصيرة الى حد محدود فان فعلها يكون كفعل اشعة الراديوم والظاهر ان هذا ما توصلوا اليهِ الآن في بعض معامل اميركا العلمية التابعة لاحدى الشركات الكهربائية . فقد صنعت انبوبة من اشعة اكس قوتها واموا جها مساوية للاشعة المنطلقة من مقدار هائل من الراديوم

***

وقد قدروا انهُ اذا اريد اعداد جهاز كامل من الراديوم للاستعمال في مستشفى من المستشفيات فان نفقاته لا تقل عن مائة الف جنيه ولكن جهازاً من اشعة اكس لا يكلف اكثر من ٢٠ الف جنيه

وفي العالم الآن ٥٠٠ جرام من الراديوم الصرف وثمن الجرام ١٥ الف جنيه . ومعلوم ان اول من اكتشفهُ مدام كوري « العالمة » الفرنسية ارملة الاستاذ كوري العالم الفرنسي الذي قتل منذ سنين في احد شوارع باريس بصدمة سيارة عمومية . اكتشفتهُ مدام كوري سنة ١٨٩٨ وهو يستخرج من اكسيد الاورانيوم وهذا يوجد في الاكثر في رواسب المعدن المعروف باسم البتشبلند واعظم مناجمه في بوهيميا وهناك مناجم اصغر منها في كندا والبرتوغال ومدغشكر ويكاد يوجد في كل تربة ولكن على قدر صغير وسبب غلائه صعوبة استخراجه

اما انبوبة اشعة اكس المشار اليها فتستعمل الآن للمعالجة في المستشفى التذكاري بمدينة نيويورك وقد عولجت بها جميع الامراض التي تعالج بالراديوم فجاءت بمثل نتائج الراديوم وبلغ عدد الذين عولجوا بها مئات ولكن اعظم امتحان لها هو في معالجة السرطان

ويقال ان الاشعة قوية حتى انها تخترق النحاس الى مدى ثمن بوصة والحديد الى مدى اربع بوصات ثم تصور بها سورة فوتوغرافية

وقد قال احد الخبيرين بالراديوم في انكلترا انه عرف منذ زمان طويل ان بعض اصناف اشعة اكس المعروفة باسم الاشعة «القاسية» تنجع في علاج الامراض مثل الراديوم بنفقة اقل وقد تحل محله في المستقبل

***

وقال احد العلماء المشهورين المشتغلين باشعة اكس في انكلترا انه يولد منها عادة ٤٠٠ الف فولط للاعمال الصناعية التي يراد بها اختراق الفولاذ الصلب واجزاء الطائرات لاكتشاف ما قد يوجد فيها من الشقوق الصغيرة

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٣ العالم الاميركي الاستاذ توماس هنت مورغان صاحب مذهب «العوامل الوراثية» Gene Theory في الوراثة (راجع مقالات اسس الوراثة للدكتور شريف عسيران في مقتطف يناير وفبراير سنة ١٩٣٢). ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٢ للعالم الالماني المشهور فرنرهيزنبرج الاستاذ بجامعة ليبزغ، وهو من اساطين علم الطبيعة الحديث القائم على نظرية اينشتين ونظرية الكمّ Quantum او المقدار وصاحب مبدإ عدم التثبت Principal of Uncertainty . وقسمت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٣ بين الاستاذ ديراك الانكليزي والاستاذ شرويد نغر الالماني، لمباحثهما في نظرية الكمّ. اما الاول فأستاذ في جامعة كمبردج. واما الثاني فكان استاذاً في جامعة زوريخ ثم في جامعة برلين وهو الآن في كلية مجدلين بجامعة اكسفرد

خسارة معهد باستور

في ٢٩ اكتوبر الماضي توفي الدكتور كالمت معاون مدير معهد باستور وصاحب المباحث المشهورة في السلّ وكان عمره سبعين سنة. وفي ٣ نوفمبر فقد ذلك المعهد مديره الدكتور اميل رو الذي اشتهر بمباحثه البكتيريولوجية، بالاشتراك مع باستور وبهرنغ وهما من اعلام هذا العلم في نشأته. وكان يوم وفاته في الثمانين من العمر

فقيدا الطيران المصري

في الثامن عشر من شهر نوفمبر الماضي طار سرب الطيارات المصرية الحربية من مطار «لمبد» بانكلترا بقيادة اللفتنانت كولونيل «تايت بك» بعد ما ودعها وزير مصر المفوض في لندن وكثير من كبار الانكليز احسن وداع

وعبر السرب — وهو مؤلف من عشر طيارات — بحر المانش بسلام واجتازوا الحدود الفرنسية فاذا هم يسيرون في ضباب كثيف شطر الطيارات شطرين فضلت ثلاث منها الطريق ولم تستطع اولاها متابعة السير فسقطت بطياريها وعطلت ثم اصلحت واصيب راكباها باصابات خفيفة وسقطت الاخريان فحطمتا ونجا راكبا احداها واحترق راكبا الثالثة وقد كانا مع الأسف مصريين هما المرحومان الملازم الأول فؤاد حجاج قائد الطيارة وشهدي دوس ميكانيكيها

اما الطيارات الباقية فواصلت سيرها حتى وصلت الى مطار «ليبورجيه» سالمة بحمد الله

ونقلت الجثتان الى باريس وصلي على احدهما في مسجد باريس وشيعتا في موكب حافل الى محطة ليون لايصالهما الى مرسيليا ومنها ارسلتا بالباخرة «مريت باشا» الى الاسكندرية فوصلتا يوم الثلثاء ٢٨ نوفمبر وشيعتا في اليوم التالي باحتفال عظيم مهيب سار فيه وزير الحربية وجميع وحدات الجيش بملابسهم العسكرية ونقابة المحامين وطلبة الجامعة والمدارس وشتى الطبقات

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثلاثين

صفحة

٥٠١ السر اليقر لدج . لفؤاد صروف
٥١٠ معرض المذاهب السياسية . للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٥١٦ صدلي يكن باشا . لخليل بك ثابت (مصوّرة)
٥١٩ انسان المستقبل
٥٢٤ الواحة المنسية (قصيدة) . لحسن كامل الصيرفي
٥٢٥ فلسفة التحليل النفسي
٥٢٩ مصطلحات علم النفس . للدكتور محمد مظهر سعيد
٥٣٥ الكتب والكتّاب والقرّاء
٥٤٠ تخطيط القسطاط . للاستاذ محمود احمد
٥٤٨ أدب الصومعة وأدب الحياة . للاستاذ امين نخلة
٥٥٢ الزراعة المصرية القديمة . للدكتور حسن كمال (مصوّرة)
٥٥٩ نافذة (قصيدة)
٥٦٠ استدراك على معجم الحيوان . للدكتور معلوف باشا
٥٦٢ ابن خلدون والنقد الحديث . للاستاذ محمد عبدالله عنان (مصوّرة)
٥٧٠ المعجم المحرّر . لأمين ظاهر خيرالله
٥٧٣ اصل الحياة (قصيدة) . لمعطي جواد
٥٧٦ القوى الروحية في الصين . لكلود فاريز
٥٨٣ العطور واستخراجها
٥٨٦ بول بانيلفه
٥٨٩ داود بركات . لبولس فاتم (مصوّرة)
٥٩٣ البحيرة (قصيدة لامارتين) . لجورج نيقولاوس
٥٩٦ اكتشاف أثري عظيم الشأن

٦٢٧ باب الزراعة والاقتصاد * تهضة اليابان الصناعية
٦٠٣ مكتبة المقتطف * آداب الطب . اسماعيل المقري عليه . صناعة الرياش . الاسلام والقبائل في مستعمرة نيجاريا . ترجمة حديثة للقرآن . سيرة حياتي . أشهر الشعراء . تاريخ مصر الاسلامية . آلاء الرحمن في تفسير القرآن . انظمة التعليم . محاضرات ومقالات في التعليم . ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب . الفلاح الاقتصادي
٦٢٣ باب الاخبار العلمية وفيه * بند